@ketab_n
1.6.2014

فيليب روث

سخط

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

فيليب روث

سخط

@ketab_n
Follow Me

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

فيليب روث: سخط، رواية

Twitter: @ketab_n

فيليب روث: **سخط**، رواية، ترجمة: خالد الجبيلي، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٠
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Philip Roth: *Indignation*
Copyright by Philip Roth 2008

© *Al-Kamel Verlag* 2010
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

Twitter: @ketab_n

تحت تأثير المورفين

بعد مضي زهاء شهرين ونصف الشهر على قيام الكتائب الكورية الشمالية، التي دُرِّبت وسُلِّحت جيداً على يد السوفييت والصينيين الشيوعيين، بعبور الخط الثامن والثلاثين إلى كوريا الجنوبية في ٢٥ حزيران ١٩٥٠، وبدء ويلات الحرب الكورية، التحقت بجامعة روبرت تريت. وهي جامعة صغيرة تقع في وسط مدينة نيوآرك، سُميّت باسم مؤسس المدينة في القرن السابع عشر. وكنت أول شخص في عائلتنا يدخل الجامعة. فلم يتجاوز أحد من أبناء عمومتي الدراسة الثانوية، ولم يكن أبي وأشقاؤه الثلاثة قد أكملوا دراستهم الابتدائية. قال لي أبي: «بدأت أعمل لكسب المال منذ أن كنت في العاشرة من عمري». كان أبي جزّار الحيّ، وكنت أقوم بإيصال الطلبات إلى الزبائن على دراجتي عندما كنت طالباً في المدرسة الثانوية، باستثناء فترة موسم مباريات البيسبول، وفي فترات ما بعد الظهر عندما كنت أحضر مباريات المناقشات التي تقام بين المدارس الثانوية، لكوني عضواً في فريق المناقشة في مدرستي. ومنذ اليوم الذي تركت فيه العمل في دكان أبي والذي كنت أعمل فيه ستين ساعة أسبوعياً إلى أن تخّرجت من المدرسة الثانوية في كانون الثاني وبدأت أدرس في الجامعة في شهر أيلول - تقريباً منذ اليوم الذي بدأت فيه الدراسة في جامعة روبرت تريت، بدأ ينتاب أبي شعور بالخوف من أنني سأموت. ربما كانت

Twitter: @ketab_n

لمخاوفه تلك علاقة بالحرب التي دخلت فيها القوات المسلحة الأمريكية على الفور برعاية الأمم المتحدة لدعم جهود جيش كوريا الجنوبية الذي لم يكن مدرباً ومجهزاً بشكل جيد؛ وربما كانت لمخاوفه علاقة بالخسائر الكبيرة التي تكبدتها قوّاتنا نتيجة كثافة نيران الشيوعيين وخشيته من أن أُستدعى إلى الجندية إن طال أمد النزاع كما حدث في الحرب العالمية الثانية، وأقاتل وأموت في ساحة المعركة الكورية، كما لقي ابنا عمي آبي وديف مصرعهما في الحرب العالمية الثانية. أو لعل مخاوفه كانت تنبع من همومه المالية: ففي السنة الماضية، فُتح أول سوبر ماركت في مكان قريب من دكان بيع اللحم الكوشر (الحلال) الذي تملكه أسرتنا وبدأت المبيعات في دكان أبي تتدنى باضطراد، وذلك لأن السوبر ماركت بدأ يبيع اللحوم والدواجن بأسعار أدنى من الأسعار التي يبيعها أبي، وبسبب انخفاض عدد الأسر التي لم تعد تعبأ كثيراً بشراء اللحوم والدجاج الكوشر من دكان موثوق ومصدق عليه من الحاخامات بعد الحرب، والذي كان صاحبه عضواً في اتحاد جمعية جزّاري لحم الكوشر في ولاية نيوجيرسي. أو ربما كان خوفه عليّ ينبع من خوفه على نفسه. فقد بدأت تنتاب هذا الرجل الذي شارف على الخمسين من العمر نوبات دائمة من السعال المؤلم، بعد أن كان يتمتّع بحياة مفعمة بالصحة، جعلت أمّي تشعر بالقلق عليه، لكن ذلك لم يمنعه من أن يبقي سيجارته مشتعلة في زاوية فمه طوال النهار. ومهما كان السبب أو مجموعة الأسباب التي أججت هذا التغيير غير المتوقع في سلوكه الأبوي الطيب كما في الماضي، فقد بدأ يظهر مخاوفه عليّ بملاحقتي ليلاً ونهاراً ليعرف الأماكن التي أذهب إليها. أين كنت؟ لماذا لم تمكث في البيت؟ كيف أعرف أين أنت عندما تخرج من البيت؟ إنك فتى أمامك مستقبل باهر - كيف أعرف أنك لا ترتاد أماكن يمكن أن تُقتل فيها؟

Twitter: @ketab_n

كانت أسئلته سخيفة ومضحكة لأنني كنت تلميذاً مجداً ومجتهداً ومتفوقاً ومتعقلاً وأشعر بالمسؤولية في المدرسة الثانوية، ولم أكن أخرج إلا مع أكثر الفتيات تهذيباً، وكنت محاوراً لبقاً، ولاعباً جيداً في فريق البيسبول الجامعي، أعيش سعيداً في حدود معايير المراهقة المسموح بها في الحيّ الذي نعيش فيه وفي مدرستي. وكانت أسئلة تثير الحنق أيضاً - وكأن الأب الذي كنت شديد القرب منه طوال تلك السنوات، والذي كبرت وترعرعت إلى جانبه في الدكان، لم يعد يعرف من هو ابنه وكيف يتصرف. وفي الدكان، كان الزبائن يدخلون البهجة إلى قلبه وإلى قلب أمّي عندما يقولون لهما كم من الرائع أن يروا ذلك الصبي الصغير الذي كانوا يجلبون له بعض أنواع الكعك - عندما كان أبوه يسمح له بأن يلعب بقطعة من الدهن ويقطّعها «مثل جزّار كبير»، مع أنه كان يستعمل سكيناً ذات نصل مثلم- وهو يكبر الآن تحت عينيهما ليصبح شاباً حلو الحديث، جيد السلوك، يقطّع لهم اللحم وينثر نشارة الخشب على أرضية الدكان ويكنسها، ثم يقتلع الريش المتبقي من رقاب الدجاجات الميتة المعلقة بخطّافات على الحائط عندما يطلب منه أبوه ذلك، «انتف ريش دجاجتين يا ماركي للسيدة فلانة؟». وخلال الشهور السبعة التي سبقت دخولي إلى الجامعة، كنت أقوم بأكثر مما كان يطلب مني، بأن أفرم اللحم وأنتف ريش بضع دجاجات. فقد علّمني كيف آخذ قطعة من لحم الخروف وأقطّعها، وكيف أقطع كل ضلع إلى شرائح، وعندما أصل إلى الأسفل، كيف أمسك الساطور وأقطّع ما تبقى منها.

كان يعلّمني دائماً بأسهل الطرق، فقد كان يقول: «لا تصب يدك بالساطور وكلّ شيء سيكون على ما يرام». وعلّمني كيف أكون صبوراً مع الزبائن الأكثر تطلباً وإلحاحاً، وخاصة الذين يصرّون على رؤية اللحم من كلّ زاوية قبل شرائه، الذين يتعين عليّ أن أرفع الدجاجة

Twitter: @ketab_n

لهم لينظروا من فتحة شرجها للتأكد من نظافتها. «لا تصدق ماذا تطلب منك تلك النساء قبل أن يشترين دجاجة»، قال لي. ثم كان يقلّدهن: «اقلبها. لا، إلى الأعلى. دعني أرى مؤخرتها». ولم يكن عملي يقتصر على نتف ريش الدجاج فقط، بل نزع أحشائها أيضاً. افتح شقاً في فتحة الشرج قليلاً وأدخل يدك وامسك الأحشاء وأخرجها. كنت أكره هذا الجزء من العمل. كان مقزّزاً ومثيراً للغثيان، لكن كان عليّ أن أقوم به. هذا ما تعلّمته من أبي وما كنت أحبّ أن أتعلّم منه: أن تفعل ما يجب عليك أن تفعله.

كان دكان أبي قبالة جادة ليونس في نيوآرك، ليس بعيداً من مستشفى بيث إسرائيل. وفي واجهة المحل، كان ثمة مكان لوضع الثلج، ورفّ عريض مائل قليلاً نحو الأسفل. وكانت شاحنة الثلج تأتي لبيعنا قطع الثلج، فكنا نضع الثلج هناك، ثم نضع اللحم فوقه ليراه الناس أثناء مرورهم من أمام المحل. وخلال الأشهر السبعة التي كنت أعمل فيها طوال اليوم في الدكان قبل أن ألتحق بالجامعة، كنت أرتّب الواجهة. «ماركوس هو الفنان»، كان أبي يقول عندما يبدي الناس تعليقاتهم على أسلوب العرض. كنت أضع كلّ شيء فيها. كنت أضع شرائح اللحم، والدجاج، وعظام أرجل الخرفان (مقادم) وجميع الأشياء التي كنا نعرضها، وأصنع منها أشكالاً وأرتّبها في النافذة بطريقة «فنية». وكنت أزيّنها ببعض السراخس التي كنت أشتريها من محل الأزهار قبالة المستشفى. كنت أقطّع اللحم وأبيعه وأرتّبه في واجهة المحل. وخلال الأشهر السبعة تلك، عندما حللت محل أمّي وأصبحت رفيقاً لأبي ورحت أرافقه إلى سوق الجملة في الصباح الباكر، حيث علّمني كيف أشتري اللحم أيضاً. كان يذهب إلى السوق مرة في الأسبوع، في الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف صباحاً، لأنك إذا ذهبت إلى السوق واخترت اللحم بنفسك وحملته إلى محلك

Twitter: @ketab_n

بنفسك، ووضعته في الثلاجة بنفسك، فإنك توّفر أجرة نقله. كنا نشتري ربع ذبيحة عجل كاملة، وكنا نشتري ربع ذبيحة حمل (خروف) لنبيعها لحماً مفروماً، وكنا نشتري عجلاً وكبدة لحم بقر، كما كنا نشتري قليلاً من الدجاج وكبد الدجاج، وقليلاً من الأدمغة (النخاعات) بسبب وجود بعض الزبائن الذين يطلبونها. كنا نفتح الدكان في الساعة السابعة صباحاً ونعمل حتى السابعة أو الثامنة مساء. ومع أني كنت في السابعة عشرة من عمري، فقد كنت أشعر بالحيوية والحماسة والنشاط في الصباح، لكن ما إن تصبح الساعة الخامسة مساء حتى كنت أشعر بالإنهاك. أما هو فكان لا يزال قوياً، يلقي ذبيحة وزنها مائة باوند على كتفه ويدخل إلى الثلاجة ويعلقها على خطّافات. وكان يقسّم اللحم إلى شرائح بالسكاكين، ويقطّعه بالساطور، ويظل يلبي طلبات الزبائن حتى الساعة السابعة مساء عندما أوشك على الانهيار. لكن كان يتعين عليّ أن أنظّف لوح الخشب الذي يقطع عليه اللحم قبل أن نعود إلى البيت، وأنثر قليلاً من نشارة الخشب عليه، ثم أكشطه بالفرشاة الحديد. وبما تبقى لي من طاقة، أكشط بقع الدم لكي يظل المكان نظيفاً.

كانت الأشهر السبعة تلك رائعة - رائعة إلا عندما يتعلق الأمر بنزع أحشاء الدجاج، الذي كان رائعاً أيضاً بطريقة ما، لأنه كان شيئاً تفعله، وتفعله جيداً، إلى درجة أنك لا تعود تبالي بأنك تفعل ذلك. هناك ثمة درس في القيام بهذا العمل. كنت أحبّ الدروس! وكنت أحبّ أبي، وكان هو يحبني، أكثر من أي فترة في حياتنا. فقد كنا أنا وهو نعدّ طعام غدائنا في الدكان. ولم نكن نتناوله هناك فقط، بل كنا نطهو طعامنا هناك أيضاً على شواية صغيرة في الغرفة الخلفية، بالقرب من المكان الذي نقطّع فيه اللحم ونجهّزه. وكنت أشوي كبدة دجاج لنا، وأشوي بعض شرائح اللحم. لم تمر علينا فترة أكثر سعادة من

Twitter: @ketab_n

تلك الفترة التي كنا نمضيها معاً. لكن لم تمض فترة وجيزة حتى بدأ الصراع المدمر بيننا: أين كنت؟ لماذا لم تمكث في البيت؟ كيف أعرف إلى أين تذهب عندما تخرج؟ إنك فتى أمامك مستقبل رائع - كيف لي أن أعرف أنك لا تذهب إلى أماكن يمكن أن تقتل نفسك فيها؟

في خريف تلك السنة التحقت بالسنة الأولى في جامعة روبرت تريت، وفي تلك الفترة بدأ أبي يوصد باب البيت الأمامي والخلفي، ولم يعد باستطاعتي أن أستعمل مفاتيحي لأفتح أياً من البابين، وكان عليّ أن أطرق بقوة على أحدهما لأتمكن من الدخول عندما أعود إلى البيت في الليل بعد عشرين دقيقة من الفترة التي كان يظن أني يجب عليّ أن أعود أثناءها. يخيّل إليّ أنه فقد عقله.

لقد فقد عقله حقاً: فقد تملكّه قلق شديد إلى درجة الجنون بأن ابنه الوحيد المدلل لم يكن مستعداً بعد لمواجهة مخاطر الحياة كأي شخص آخر يطأ مرحلة الرجولة. لقد أصبح مهووساً بسبب الاكتشاف المرعب بأن صبياً صغيراً قد كبر، وأصبح طويل القامة، حتى أطول من والديه، وبأنه لا يستطيع أن يبقيه إلى جانبه طوال الوقت، وأنه أصبح عليه أن يطلقه في هذا العالم.

تركت جامعة روبرت تريت بعد سنة واحدة فقط. تركتها لأنه لم يعد لأبي، فجأة، ثقة حتى بأنني أستطيع أن أعبر الشارع وحدي. تركتها لأن مراقبة أبي لي أصبحت شيئاً لا يطاق. إن الأمل بأن أصبح شاباً مستقلاً جعل هذا الرجل الذي كان يتمتع بمزاج جيد، والذي نادراً ما كان يُظهر غضبه أمام أحد، جعله يبدو وكأنه عازم على أن يمارس العنف ضدي إن أنا تجرأت وخذلته، في حين حولّني، أنا الذي كنت أتمتع بمهارة أن أكون منطقياً، بارد الأعصاب، وهما

Twitter: @ketab_n

الشيئان اللذان جعلاني أصبح الركن الأساسي في فريق المناقشة في المدرسة الثانوية - إلى شخص أصرخ وأعوي مُحبطاً في وجه جهله ولا عقلانيته. كان عليّ أن أبتعد عنه قبل أن أقتله - لذلك أخبرت أمّي المحبطة والمذهولة، التي وجدت نفسها بغتة أنه لم يعد لها تأثير عليه مثلي.

ذات ليلة، عدت إلى البيت بالحافلة من وسط المدينة في حوالى الساعة التاسعة والنصف مساء. كنت أمضي الوقت في القراءة في الفرع الرئيسي من مكتبة نيوآرك العامة، بسبب عدم وجود مكتبة في جامعة روبرت تريت. كنت قد غادرت المنزل في الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم، وحضرت دروسي، ثم توجهت إلى المكتبة لأكمل دراستي. كان أول شيء قالته لي أمّي عندما عدت «خرج أبوك يبحث عنك». «لماذا؟ أين يبحث؟». «لقد ذهب إلى صالة البلياردو». «حتى أني لا أعرف كيف أرمي كرة البلياردو. ماذا يظن؟ كنت أدرس، بحق الله. كنت أكتب بحثاً. كنت أقرأ. ماذا يظن أني أفعل ليلاً ونهاراً؟». «كان يتكلّم مع السيد بيرلغرين عن إدي، وقد جعله ذلك يشتعل غضباً منك». كان إدي بيرلغرين، الذي كان أبوه سبّاكاً، قد تخرّج من المدرسة الثانوية معي وذهب إلى الجامعة في بانزر، في إيست أورانج، ليدرس ويصبح مدرساً للرياضة البدنية. وكنت ألعب الكرة معه منذ أن كنت طفلاً. قلت: «أنا لست إدي بيرلغرين، أنا أنا». «لكن هل تعرف ماذا فعل؟، ذهب إلى بنسلفانيا، إلى سكرانتون، دون أن يخبر أحداً، بسيارة أبيه ليلعب البلياردو في صالة خاصة للبلياردو هناك». «لكن إدي مدمن على لعب البلياردو، ولن أفاجأ بأنه ذهب إلى سكرانتون. إن إدي لا يستطيع أن ينظف أسنانه في الصباح دون أن يفكّر بالبلياردو، ولن أفاجأ إن سمعت أنه ذهب إلى القمر ليلعب البلياردو. إن إدي يدّعي أمام أشخاص لا

Twitter: @ketab_n

يعرفونه بأنه يتفوق عليهم في اللعب، ويلعبون معه ويجعلهم يخسرون خمسة وعشرين دولاراً في كل لعبة». «سينتهي به الأمر بأن يصبح سارقاً للسيارات، قال السيد بيرلغرين». «أوه، يا أمّي، هذا أمر سخيف للغاية. لا علاقة لي بما يفعله إدي. هل سينتهي بي الأمر بأن أصبح سارق سيارات؟». «بالطبع لا، يا عزيزي». «إني لا أحبّ اللعبة التي يحبها إدي، إني لا أحبّ الأجواء هناك. إني غير مهتمّ بالحياة الحقيرة يا أمي. إني أهتم بالأشياء الهامة. لا أشعر بالرغبة في أن أذهب إلى صالة للعب البلياردو. انظري، هذا كل شيء يمكنني أن أوضحه لك عن نفسي وعن الأشياء التي أحبها ولا أحبها. ولن أتكلم عن ذلك مرة أخرى. لن أتحمل المزيد من هذا الهراء السخيف». عند ذلك، وكما لو كنا نتابع مسرحية، دخل أبي إلى البيت من الباب الخلفي، وكان لا يزال يستشيط غضباً، تفوح منه روائح دخان السجائر. كان غاضباً الآن لا لأنه وجدني في صالة البلياردو، بل كان يستشيط غضباً لأنه لم يجدني هناك. ولم يخطر بباله أن يذهب إلى وسط المدينة ويبحث عني في المكتبة العامّة - وذلك لأنه لا يمكن أن يُشجّ رأسك بعصا بلياردو في المكتبة، لأنك مدمن على لعب البلياردو، أو أن يهددك أحد بالسكين لأنك تجلس وتقرأ فصلاً من كتاب غيبون «أفول وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، كما كنت أفعل منذ الساعة السادسة في تلك الليلة.

قال: «إذن أنت هنا»؛ «نعم. إنه لشيء غريب، أليس كذلك؟ أنا في البيت. أنا أنام هنا. وأعيش هنا. أنا ابنك، هل نسيت؟»؛ «صحيح؟ لقد بحثت عنك في كل مكان»؛ «لماذا؟ لماذا؟ أرجو أن يخبرني أحد لماذا، أرجوك، لماذا في كل مكان»؛ «لأنه لو حدث لك شيء - لو حدث لك مكروه -»؛ «لكن لن يحدث لي شيء. أبي، أنا لست هذا الرعب على الأرض الذي يلعب البلياردو، إنه إدي

Twitter: @ketab_n

بيرلغرين! لن يحدث شيء». «أعرف أنك لست هو، بحق الله. أعرف أكثر من أي شخص آخر بأني محظوظ بابني». «إذن لماذا تفعل كل ذلك يا أبي؟». «إنها الحياة، حيث يمكن أن تؤدي أي زلة صغيرة إلى عواقب مأسوية»؛ «أوه، يا إلهي، إنك تبدو مثل ورقة مكتوب عليها الطالع»؛ «صحيح؟ صحيح؟ لا أبدو مثل أب قلق، بل مثل ورقة مكتوب عليها الطالع؟ أهكذا أبدو عندما أتكلّم مع ابني عن المستقبل القابع أمامه، الذي يمكن أن يدمّره أيّ شيء مهما كان تافهاً، أكثر الأشياء تفاهة؟»، فصحت: «أوه، إلى الجحيم!»، وخرجت من البيت، متسائلاً أين يمكنني أن أجد سيارة أسرقها لأذهب إلى سكرانتون لألعب البلياردو.

ثم أخبرتني أمّي بكل ما جرى في ذلك اليوم. فقد بدأ كل شيء عندما جاء السيد بيرلغرين في ذلك الصباح ليفحص المرحاض الكائن وراء الدكان، وجعل أبي يفكّر بالحديث الذي دار بينهما منذ ذلك الحين حتى أغلق الدكان. قالت لي لا بد أنه دخّن ثلاث علب سجائر، فقد كان منزعجاً للغاية. قالت أمّي: «لا تعرف كم هو فخور بك، فهو يقول لكلّ من يأتي إلى الدكان إن ابني متفوق. يحصل على أعلى الدرجات. إنه لا يخيب أملنا أبداً، حتى أنه لا يضطر لقراءة كتبه، إنه يحصل على أعلى الدرجات تلقائياً. حبيبي، عندما لا تكون موجوداً، فإنك تكون محور ثنائه. يجب أن تصدق ذلك. إنه يفتخر بك طوال الوقت». «وعندما أكون موجوداً أصبح محور هذه المخاوف الجديدة المجنونة. لقد سئمت من ذلك يا أمي»، فقالت أمّي: «لكني سمعته يا ماركي. سمعته يقول للسيد بيرلغرين: 'أحمد الله بأني لا أقلق على ابني من هذه الأمور'. كنت معه في الدكان عندما جاء السيد بيرلغرين لأن الحنفية ترشح. هذا ما قاله تماماً عندما كان السيد بيرلغرين يحدثه عن إدي. قال بالتحديد: 'لا يوجد ثمة شيء يجعلني

Twitter: @ketab_n

أقلق على ابني من هذه الأمور'. لكن السيد بيرلغرين ردّ عليه - وهذا ما أغضب: 'اسمعني يا ميسنير. أنا أحبّك يا ميسنير، كنت طيباً معنا، فقد اعتنيت بزوجتي أثناء الحرب وقدمت لها اللحم، استمع إلى شخص يعرف ما يحدث له شخصياً. إدي طالب في الجامعة أيضاً، لكن هذا لا يعني أنه يعرف ما يكفي لكي يبتعد عن صالة البلياردو. كيف خسرنا إدي؟ إنه ليس فتى سيئاً. وماذا عن شقيقه الصغير؟ وأيّ نوع من القدوة سيكون لشقيقه الصغير؟ ما الخطأ الذي فعلناه لكي نراه يتردد على صالة البلياردو في سكرانتون التي تبعد ثلاث ساعات من بيتنا! بسيارتي! من أين حصل على النقود لشراء البنزين؟ من لعب البلياردو! البلياردو! البلياردو! تذكّر كلماتي يا ميسنير: إن العالم ينتظر، إنه يلعق قطع لحمه، إنه يأخذ ابنك بعيداً عنك». فقلت: «وقد صدّقه أبي. إن أبي لا يصدق ما رآه بأمّ عينه طوال حياته، بل يصدق ما يقوله له السبّاك الجاثي على ركبتيه وهو يصلح المرحاض وراء الدكان! لا يمكنني أن أتوقّف. لقد فقد عقله بسبب ملاحظة عابرة مجنونة أبداها سبّاك!». «نعم، يا أمي»، قلت أخيراً، واندفعت إلى غرفتي، «يمكن أن تنجم عواقب مأسوية من أتفه الأشياء، أصغر الأشياء. إنه يثبت ذلك».

فكّرت بالهرب، لكني لم أكن أعرف إلى أين سأذهب. فلم أكن أميّز جامعة عن أخرى. أوبورن. ويك فوريست. بول ستايت. فاندربيلت. موهلينبيرغ. لم تكن سوى أسماء فرق كرة قدم بالنسبة لي. ففي كل خريف كنت أستمع إلى نتائج المباريات التي تجرى بين هذه الجامعات بلهفة شديدة في الموجز الرياضي الذي يقدمه بيل ستيرن مساء كل يوم سبت، لكن لم تكن لديّ فكرة جيدة عن الفروق الأكاديمية التي تميّز بين هذه الجامعات. ولاية لويزيانا ٣٥، رايس

Twitter: @ketab_n

٢٠؛ كورنيل ٢١، لافاييت ٧؛ نورث ويسترن ١٤، إلينوي ١٣. هذه هي الفروق التي كنت أعرفها عنها: ثم بدأت الفكرة بالاتساع لديّ. فالجامعة هي المكان الذي يلتحق فيه المرء، ويتخرج منها ويحصل على شهادة في نهاية الأمر. كان هذا كل ما يهم أسرة بسيطة مثل أسرتي. وكنت أذهب إلى الجامعة التي تقع في وسط المدينة لأنها قريبة من البيت، وبوسعنا أن نسدد أقساطها.

كان هذا الأمر جيداً بالنسبة لي. ومنذ بداية حياتي البالغة، وقبل أن يصبح كلّ شيء صعباً للغاية بغتة، كنت أتمتع بموهبة عظيمة بأني شخص قانع. لقد اكتسبت ذلك منذ طفولتي، وعندما التحقت بجامعة روبرت تريت، كان ذلك لا يزال في جعبتي. شعرت بسعادة كبيرة لوجودي هناك.

وبسرعة بدأت أعتبر أساتذتي بمثابة آلهة، وأتخذ لي أصدقاء، ينتمي معظمهم إلى عائلات كادحة مثل عائلتي وعلى درجة بسيطة من التعليم، هذا إن كانت هناك أي درجة من التعليم، أكثر مما لدى أسرتي. وكان بعضهم يهوداً من مدرستي الثانوية، لكن معظمهم لم يكونوا كذلك، وفي البداية كنت أشعر بالمتعة والإثارة لأن أتناول طعام الغداء معهم لأنهم كانوا أيرلنديين أو إيطاليين وكانوا بالنسبة لي فئة جديدة من الناس، لا لأنهم كانوا من نيوآرك فحسب، بل لأنهم كانوا بشراً أيضاً. وكنت سعيداً لأني كنت آخذ دروساً في الجامعة؛ ومع أن هذه الدروس كانت تحضيرية، فقد بدأ يحدث شيء لدماغي شبيه بما حدث لي عندما وقعت عيني على أحرف الأبجدية لأول مرة.

بعد أن علّمني المدرب كيف أمسك المضرب وأقذف الكرة في الملعب بعد أن كنتُ أقذفها بقوّة وبصورة عمياء عندما كنت في المدرسة الثانوية - أصبحت أقف في النسق الأول في فريق البيسبول

Twitter: @ketab_n

الصغير في الجامعة في ذلك الربيع، ثم أصبحت لاعباً في النسق الثاني إلى جانب لاعب يدعى أنجيلو سبينيلي.

لكنني كنت أتعلّم، أكتشف شيئاً جديداً في كلّ ساعة من كل يوم أمضيه في الجامعة، ولهذا السبب كنت أجد متعة كبيرة في وجودي في روبرت تريت، لأنها جامعة صغيرة وغير معروفة كثيراً. وهي أشبه بناد في الحيّ أكثر من كونها جامعة. وكانت روبرت تريت تقبع في الطرف الشمالي من وسط المدينة المفعم بالحركة والمليء بالمباني التي تضم مكاتب ومخازن كبيرة ومحلات متخصصة ببيع سلع معينة تملكها عائلات معروفة، المحصورة بين حديقة «ثوار الحرب» المثلثة الشكل حيث يتسكع المشردون الذين يرتدون أسمالاً وسخة (نعرف معظمهم بالاسم) وحديقة باسياك الموحلة. كانت الجامعة تتألف من مبنيين لا يمكن تمييزهما بسهولة: مصنع بيرة قديم مهجور مشيّد من الآجر، ملوّث بالدخان، بالقرب من المنطقة الصناعية إلى جانب النهر الذي حُوِّل إلى مختبرات علمية وقاعات دروس حيث كنت آخذ دروس علم الأحياء، وعلى مسافة قريبة، في الطرف المقابل من طريق المدينة الرئيسي، وقبالة الحديقة الصغيرة التي كانت كل ما لدينا، بدلاً من الحرم الجامعي - حيث كنا نجلس عند الظهيرة لنتناول السندويتشات التي نكون قد حضرناها عند الفجر، بينما كان المتسكعون يمررون زجاجة النبيذ من تحت مقعد الحديقة - مبنى يعود إلى الفترة النيوكلاسيكية، يتألف من أربعة طوابق من الحجارة، له مدخل يقوم على أعمدة، يبدو من الخارج مثل مصرف وقد كان كذلك خلال معظم فترة القرن العشرين. ويضم المبنى من الداخل المكاتب الإدارية للجامعة وقاعات دروس مؤقتة درست فيها مادة التاريخ ومادتي اللغة الإنكليزية والفرنسية، كان يدرّس فيها أساتذة يدعونني «السيد ميسنير» بدلاً من «ماركوس» أو «ماركي» وكنت أنجز جميع واجباتي قبل أن

Twitter: @ketab_n

يحين موعدها. كنت متلهّفاً لأن أصبح كبيراً، متعلّماً، ناضجاً، بالغاً، مستقلاً، وهو الشيء الذي أثار الفزع في نفس أبي الذي، مع أنه كان يوصد باب البيت عليّ لكي أبقى خارج البيت لمعاقبتي لأنني بدأت أستشعر أدنى مزايا البلوغ، كان يشعر بالفخر بسبب تفانيّ في دراستي، وبمركزي الفريد في الأسرة كطالب جامعي.

كانت السنة الأولى في الجامعة أكثر السنوات التي أمضيتها بهجة وأكثرها رداءة في حياتي، مما جعلني انتقل في السنة التالية إلى واينزبيرغ، وهي جامعة صغيرة تدرّس المواد النظرية في الفنون والهندسة، وتقع في ريف شمال وسط أوهايو، على مسافة تبعد ثمانية عشر ميلاً عن بحيرة إري، وخمسمائة ميل عن باب بيتنا الموصد بإحكام في وجهي. وكان حرم جامعة واينزبيرغ الجميل، بأشجاره الرشيقة الباسقة (علمت في ما بعد من إحدى الصديقات أنها أشجار الدردار)، وجدران الآجر ذات الأضلاع المربعة المكسوة باللبلاب يتربع ببهاء فوق التلّ الذي كان من الممكن أن يشكل خلفية رائعة لأحد تلك الأفلام الموسيقية الملونة التي يتجول في أرجائها الطلاب وهم يغنون ويرقصون بدلاً من أن يمضوا وقتهم في الدراسة. ولتسديد رسوم انتسابي إلى جامعة بعيدة عن بيتنا، اضطر أبي إلى الاستغناء عن خدمات إسحاق، الشاب الأرثوذكسي المؤدّب الذي يعتمر طاقية، والذي كان قد بدأ يعمل مساعداً بعد أن بدأت سنتي الأولى من الدراسة، واضطرت أمّي، التي كان من المفترض أن يحلّ إسحاق محلها، لأن تعود إلى العمل ثانية مع أبي. ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً آخر غير ذلك ليتدبّر أمور المعيشة.

خُصّصت لي غرفة في مساكن الطلبة في قاعة جينكنز، وسرعان ما اكتشفت أن الشبان الآخرين الثلاثة الذين سأقيم معهم من اليهود. وقد صدمني هذا الترتيب الغريب، لأنني كنت أتوقّع أولاً أن أنزل في

Twitter: @ketab_n

غرفة يكون لي فيها شريك واحد، وثانياً، لأن جزءاً من مغامرتي في الانتقال إلى الجامعة في أوهايو بعيداً عن بلدتي هو أن أعيش بين أشخاص من غير اليهود لكي أتعوّد على العيش مع أناس آخرين. واعتبر والدايّ أن هذا طموحاً غريباً، إن لم يكن خطيراً. أما بالنسبة لي، الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، فقد كان ذلك أمراً مبرراً تماماً. ولم يكن سبينيلي، لاعب البيسبول، وزميلي في كلية الحقوق وأقرب صديق لي في جامعة روبرت تريت، الذي دعاني إلى بيته في الحي الإيطالي في المدينة لألتقي بأفراد أسرته وأتناول الطعام معهم، وأجالسهم، وأنصت إليهم وهم يتحدثون بلكنتهم، ويتبادلون النكات باللغة الإيطالية، أقل أهمية عن الفصلين الدراسيين في تاريخ الحضارة الغربية، حيث كان الأستاذ يشرح لنا في كل درس شيئاً عن السبل التي كان العالم يسلك فيها قبل أن آتي إلى هذه الدنيا.

كانت الغرفة في مسكن الطلبة طويلة، ضيقة، ذات رائحة كريهة، سيئة الإضاءة، فيها أسرّة ذات طابقين عند طرفي الغرفة التي كانت أرضيتها مكسوة بخشب مهترئ، وفيها أربع مناضد خشب قديمة بالية، مثلّمة نتيجة الاستعمال، ملتصقة بالجدار الأخضر المكسو بالغبار. وأخذت السرير الأوطأ تحت سرير شاب نحيف يكسوه شعر بلون الغراب يضع نظارات ويدعى بيرترام فلوسير. ولم يكلّف نفسه عناء مصافحتي عندما حاولت أن أعرّفه على نفسي، بل نظر إليّ كما لو كنت فرداً ينتمي إلى نوع كان سيكون محظوظاً لو لم يصادفه من قبل. وتفحصني الشابان الآخران أيضاً، لكن نظرتهما لم تكن نظرة ازدراء، لذلك عرّفتهما على نفسي، وعرّفاني على نفسيهما، بطريقة نصف أقنعتني بأن فلوسير، من بين رفاقي في الغرفة، كان مميزاً. وكانوا ثلاثتهم يدرسون اللغة الإنكليزية وأعضاء في جمعية المسرح في الجامعة. ولم يكن أحد منهم ينتمي إلى أي رابطة أخوّة.

Twitter: @ketab_n

كانت هناك اثنتا عشرة رابطة أخوّة في الجامعة، إلا أنه كانت هناك رابطتان اثنتان فقط تقبلان أعضاء من اليهود، واحدة رابطة صغيرة جميع أعضائها الخمسين من اليهود، والأخرى رابطة غير طائفية يبلغ حجمها نصف رابطة الأخوّة الأولى، أُسّست محلياً على يد مجموعة من طلاب مثاليين يقبلون أي طالب قد تقع أيديهم عليه. أما الرابطات العشر الأخرى، فكانت مخصصة للذكور المسيحيين البيض فقط، وهو ترتيب لا يمكن لأحد أن يعترض عليه في جامعة تتباهى بأنها تتمسك بالتقاليد. وكانت بيوت رابطة الأخوّة المسيحية الفخمة، ذات الواجهات الحجرية، وذات الأبواب التي تشبه أبواب القلعة، تطل على شارع بوكي، الشارع الذي تحفّه الأشجار، وينتصب في وسطه مدفع أخضر صغير يرمز إلى الحرب الأهلية، بحسب النكتة ذات الإيحاء الفاضح التي تتكرر على مسامع القادمين الجدد، بأن قذيفة تنطلق منه كلما مرّت عذراء من أمامه. وكان شارع بوكي يمتد من الجامعة عبر شوارع سكنية تحفها أشجار كبيرة وبيوت قديمة حوفظ عليها بمهارة، وصولاً إلى شريان الأعمال التجارية في البلدة، الشارع الرئيسي الذي يمتد على طول أربعة أحياء، من الجسر فوق جدول واين من جهة، إلى محطة سكة الحديد من الجهة الأخرى. وكان يشرف على الشارع الرئيسي نيو ويلارد هاوس التي يلتقي في حانتها الخريجون السابقون في نهاية كل أسبوع لمشاهدة مباريات كرة القدم، وتذكّر الأيام التي كانوا قد أمضوها في جامعتهم ثملين. وقد تمكنت من الحصول على عمل في الحانة في ليلتيّ الجمعة والسبت من كل أسبوع، عن طريق مكتب التوظيف في الجامعة، كنادل بأجر قدره خمسة وسبعون سنتاً في الساعة، بالإضافة إلى الإكراميات. كانت الحياة الاجتماعية في الجامعة التي تضم زهاء مائة واثني عشر طالباً تدور، إلى درجة كبيرة، خلف أبواب الرابطات السود المرصعة

Twitter: @ketab_n

وفوق المروج الخضر الشاسعة ـ حيث يمكن رؤية شابين أو ثلاثة شبان يلعبون كرة القدم مهما كان الطقس.

كان فلوسير، رفيقي في الغرفة، يسخر من كلّ شيء أقوله، ويهزأ بي بقسوة ومن دون رحمة. وعندما كنت أحاول أن أتوصل إلى اتفاق معه، كان يدعوني ساخراً الأمير الساحر. وعندما كنت أطلب منه أن يتركني وشأني، كان يقول: «هذا الجلد الرقيق لهذا الصبي الكبير». وفي الليل، كان يصرّ على أن يستمع إلى بيتهوفن من جهاز التسجيل لديه بعد أن آوي إلى الفراش، وبصوت لم يكن يبدو أنه يزعج الرفيقين الآخرين في الغرفة كما كان يزعجني. لم أكن أعرف شيئاً عن الموسيقى الكلاسيكية، ولم أكن أحبها كثيراً، فضلاً عن أني كنت بحاجة إلى النوم إن كان عليّ أن أحتفظ بعملي في عطلة نهاية الأسبوع، وأن أحصل على الدرجات التي وضعتني على قائمة الطلاب الأوائل في جامعة روبرت تريت في الفصلين الدراسيين من دراستي. ولم يكن فلوسير يستيقظ قبل الظهيرة، حتى لو كان عنده دروس يجب أن يحضرها، ولم يكن يرتب سريره على الدوام، وكانت البطانيات تتدلى بإهمال من أحد الجانبين، حاجبة مشهد الغرفة من جانب سريري. كان العيش معه في مكان واحد أسوأ من العيش مع أبي خلال سنتي الأولى - إذ كان أبي على الأقل يخرج من البيت ويعمل في محل الجزارة طوال اليوم، بالرغم من أنه كان يحيطني برعايته بطريقة متشددة. كان رفاقي الثلاثة في الغرفة سيمثلون أدواراً في مسرحية «الليلة الثانية عشرة» في الجامعة، المسرحيّة التي لم أسمع عنها من قبل قط. فقد كان كل ما قرأته من مسرحيات مسرحية يوليوس قيصر في الثانوية، ومسرحية ماكبث في مادة الأدب الإنكليزي في السنة الأولى من الجامعة. وكان فلوسير سيؤدي دور شخصية تدعى مالفوليو في مسرحية «الليلة الثانية عشرة»، وفي الليالي التي لم

Twitter: @ketab_n

يكن يستمع فيها إلى بيتهوفن لمدة ساعات، كان يرقد في السرير فوقي ويبدأ يردد مقاطع من دوره بصوت مرتفع. وكان أحياناً يتمشى في الغرفة ليحفظ آخر عبارة سيقولها وهي «سأنتقم منك كلك». ومن سريري كنت أتوسل إليه وأقول، «أرجوك يا فلوسير، هل يمكنك أن تخفض صوتك»، فكان يجيب - صائحاً أو هامساً متوعداً «سأنتقم منك كلك»، مرة أخرى.

بعد أيام قليلة من وصولي إلى الجامعة، بدأت أبحث في مساكن الطلاب عن شخص في غرفته سرير فارغ يوافق على أن أشاركه الغرفة. وقد استغرق ذلك عدة أسابيع، كنت قد وصلت خلالها إلى ذروة إحباطي مع فلوسير. وبعد أن آويت إلى الفراش بساعة تقريباً، نهضت من سريري صارخاً، وأمسكت بإحدى الاسطوانات في الفونوغراف، وألقيت بها إلى الحائط بكل ما أوتيت من قوة.

«لقد حطّمت الرباعية السادسة عشرة»، قال من دون أن يتزحزح من مكانه، حيث كان يدخّن في السرير الأعلى، مرتدياً ثيابه بالكامل ولا يزال ينتعل حذاءه.

«لا يهمني! إني أحاول أن أنام!».

أضاء أحد الشابين الآخرين الأضواء العارية في الأعلى، ثم غادرا سريريهما ووقفا وهما يرتديان بناطيل شورت جوكي وراحا ينتظران ليريا ماذا سيحدث بعد ذلك.

«يا له من فتى صغير مؤدّب ولطيف»، قال فلوسير، «نظيف جداً. مستقيم جداً. إنه لا يراعي حرمة ممتلكات الآخرين، لكنه من الناحية الأخرى مستعدّ لأن يكون إنساناً».

«ما الخطأ في أن يكون إنساناً!».

« كلّ شيء»، أجاب فلوسير مبتسماً، «إن البشر يصبحون نتنين حتى أعالي السماء».

Twitter: @ketab_n

صحت: «إنك قذر! إنك نتن يا فلوسير! إنك لا تستحم، لا تبدّل ثيابك، لا ترتّب فراشك أبداً، ولا يوجد لديك أي اعتبار تجاه أحد! فأنت إما أن تبالغ في التمثيل حتى الساعة الرابعة صباحاً، أو تستمع إلى الموسيقى بأعلى صوت».

«حسناً، أنا لست فتى لطيفاً مثلك يا ماركوس».

وأخيراً تكلم أحد الشابين، وقال لي: «هوّن عليك. إنه شخص مزعج، لا تعامله بجدية».

فصحت: «لكني يجب أن أنام! لن أتمكن من العمل إذا لم أنل قسطاً من النوم! لا أريد أن أمرض، بحق السماء!».

«إن المرض سيفيدك»، قال فلوسير، مضيفاً إلى ابتسامته ضحكة ساخرة صغيرة.

«إنه مجنون!»، صحت بالاثنين الآخرين، «إن كلّ ما يقوله جنون!».

فقال فلوسير: «تحطّم رباعية بيتهوفن، وأكون أنا المجنون».

«توقف عن ذلك يا بيرت»، قال الشاب الآخر، «اخرس ودعه ينام».

«بعد ما فعله من عمل بربري بأسطوانتي؟».

«قل له إنك ستحضر له أسطوانة أخرى عوضاً عنها»، قال لي الفتى، «قل له إنك ستذهب إلى وسط البلدة وتشتري له اسطوانة أخرى جديدة. هيا قل له، لكي نخلد جميعنا إلى النوم».

«سأشتري لك اسطوانة جديدة»، قلت وأنا أستشيط غضباً من هذا الظلم الذي لحق بي.

«شكراً»، قال فلوسير، «شكراً جزيلاً. إنك حقاً فتى طيب يا ماركوس. لا يوجد أي عيب فيك. ماركوس النظيف، الذي يستحم

Twitter: @ketab_n

جيداً، والذي يلبس ثياباً أنيقة. إنك تفعل الشيء الصحيح في النهاية، تماماً كما علّمتك ماما أوريليوس».

اشتريت له أسطوانة من النقود التي كسبتها من عملي كنادل في الحانة. لم أحبّ هذا العمل. ومع أن ساعات العمل فيها كانت أقصر بكثير من الساعات التي كنت أعمل فيها مع أبي في محل الجزارة، فإن الضجيج والإفراط في الشراب والصياح والروائح النتنة التي تنبعث من دخان السجائر والبيرة والتي كانت تعبق في المكان، جعلتني أشعر بالتعب، وأصبحت أشعر بالقرف منها مثل أسوأ الأشياء التي كنت أقوم بها في دكان الجزارة. ولم أكن أشرب البيرة أو أي مشروب كحولي آخر، ولم أكن أدخّن، ولم أحاول قط أن أصيح أو أغني بأعلى صوتي لكي لا ألفت نظر الفتيات وأعطيهن انطباعاً رائعاً عني - كما كان يفعل عدد من السكارى الذين كانوا يحضرون معهم صديقاتهم إلى الحانة في ليلتي الجمعة والسبت.

في كل أسبوع تقريباً، كانت تقام حفلات «الارتباط بدبوس» في ردهة الحانة للاحتفال بخطبة غير رسمية لفتى من جامعة واينزبيرغ إلى فتاة من جامعة واينزبيرغ، وذلك بأن يقدم لها دبوساً يدل على ارتباطهما تقوم بتثبيته على صدر كنزتها أو بلوزتها. إذ ترتبط الفتاة بدبوس في الصفوف الأولى من الدراسة، وتُخطب في الصفوف الأخيرة، وتتزوج عندما تتخرج من الجامعة. كانت تلك هي النهايات البريئة التي تسعى إليها معظم عذراوات واينزبيرغ خلال فترة عملي العذرية هناك.

كان هناك زقاق ضيّق مكسو بالحجارة المقببة وراء الحانة والمحلات المجاورة المشرفة على الشارع الرئيسي، وكان الطلاب لا

Twitter: @ketab_n

يكفون عن الدخول والخروج من باب الحانة الخلفي طوال المساء إما ليتقيأوا، أو لينفردوا بصديقاتهم ويلامسوهن ويداعبوهن في الظلام. وكان الشيء الذي يوقف حفلات المعانقة والمداعبة هذه، وصول سيارة شرطة كل نصف ساعة أو ما يقارب ذلك، تسير ببطء في الزقاق، مطلقة أنوارها المتلألئة، فيهرع الشبان الذين كانوا مستميتين للقذف خارج الحانة ويدخلون بحثاً عن مخبأ. وباستثناء حالات نادرة، كانت تبدو الفتيات في واينزبيرغ رصينات أو بسيطات، وكان يبدو أنهن يعرفن كيف يتصرفن على نحو لائق (أي كان يبدو أنهنّ لا يعرفن كيف يُسئن التصرف ولم يكنّ يتصرفنّ بشكل غير لائق). وعندما كانت الخمرة تلعب في رؤوسهن، كن يذوبن ويشعرن بالغثيان، بدلاً من أن يصبحن فظات كما يفعل الفتيان. وحتى الفتيات اللاتي كن يجرؤن على الخروج إلى الزقاق الخلفي ويسمحن لأصدقائهن بمداعبتهن، كن يعدن ويدخلن وكأنهن خرجن إلى الزقاق ليسوين شعرهن. وبين الحين والآخر، كنت أرى فتاة تجذبني، وبينما كنت أجري ذهاباً وإياباً حاملاً أباريق البيرة، كنت التفت إليها محاولاً أن ألقي نظرة فاحصة عليها. كنت أكتشف باستمرار أن صديقها يثمل بشدة وعندها يصبح فظاً بغيضاً وعدوانياً. ولما كانوا يدفعون لي الحد الأدنى من الأجر، بالإضافة إلى الإكراميات، كنت أصل في الساعة الخامسة من مساء عطلة نهاية كلّ أسبوع لأبدأ التحضير لعملي لليلة، ثم أعمل حتى بعد منتصف الليل، أنظف الطاولات. وكنت أحاول أن أحتفظ بمظهر النادل المحترف مع أن رواد الحانة كانوا يطقطقون لي بأصابعهم للفت انتباهي، أو يصفرّون بصوت عال ويضعون أصابعهم على أفواههم، ويعاملونني كخادم لا كطالب زميل لهم بحاجة إلى العمل. وفي مرات عديدة في الأسابيع الأولى، كان يخيّل إليّ أنني أسمع صوتاً يناديني من إحدى الطاولات التي يجلس إليها شبان

Twitter: @ketab_n

مشاكسون بعبارة «أنت، أيها اليهودي! تعال إلى هنا!». لكنني كنت أفضل أن أتظاهر بأنهم ينادونني ببساطة «أنت! تعال إلى هنا». كنت أواصل عملي، عازماً على الالتزام بالدرس الذي تعلمته من أبي في دكان الجزّار: افتح المؤخرة بالسكين، وأدخل يدك، وامسك الأحشاء واسحبها خارجاً؛ سواء كانت تثير القرف أو التقزز، يجب عليك أن تفعل ذلك.

بعد أن أنتهي من عملي في الحانة، كنت أرى في أحلامي جميعها أن البيرة تحيط بي: تقطر من الحنفية في الحمّام، تملأ المرحاض عندما أدفق فيه الماء، وهي تتدفق في الأكواب من علب الحليب التي كنت أشربها مع وجبات طعامي في كافتيريا الطلبة. وفي أحلامي، لم تعد بحيرة إري الواقعة في الشمال على الحدود مع كندا أكبر عاشر بحيرة ماء عذبة على الأرض، بل أكبر بحيرة بيرة في العالم، وكانت وظيفتي تتمثل في أن أفرغها في أباريق لكي أقدمها للشبان في رابطة الأخوّة وهم يصرخون بأسلوب معاد، «هيه، أنت أيها اليهودي! تعال إلى هنا!».

في نهاية الأمر، وجدت سريراً فارغاً في إحدى الغرف في الطابق أسفل الطابق الذي كان يقيم فيه فلوسير الذي كان سيفقدني رشدي، وبعد أن قدمت الأوراق المطلوبة إلى أمين السر المسؤول عن الطلاب الذكور، انتقلت إلى غرفة يقيم فيها طالب في السنوات الأخيرة من كلية الهندسة. كان اسمه إلوين أيرس الابن، فتى قوي البنية، لا يتكلم كثيراً، غير يهودي، ومجتهد في دراسته. كان يتناول طعامه في بيت رابطة الأخوّة التي كان عضواً فيها، وكانت لديه سيارة من طراز لاسال تورينغ بأربعة أبواب، صنعت في عام ١٩٤٠، آخر سنة، كما شرح لي، تصنع فيها شركة جنرال موتورز هذا الطراز من

Twitter: @ketab_n

السيارات العظيمة. وكانت عائلته تستخدم السيارة عندما كان طفلاً، والآن يركنها وراء بيت رابطة الأخوّة. لم يكن يُسمح باقتناء السيارات إلا للطلاب في السنوات الأخيرة. وبدا أن إلوين يحتفظ بهذه السيارة الكبيرة لكي يُسمع الآخرين صوت محرّكها الرائع خلال فترات ما بعد الظهر من عطلة نهاية الأسبوع. وعندما كنا نعود بعد أن ننهي طعام العشاء - كنت أتناول وجبتي من المعكرونة والجبن في كافتيريا الطلاب الكئيبة مع الطلاب «المستقلين» الآخرين - بينما كان هو يتناول لحم البقر المشوي، ولحم الخنزير، وقطعاً من لحم الضأن مع الأعضاء في رابطة الأخوّة - كنا نجلس إلى موائد منفصلة نواجه الحائط الفارغ ذاته، ولم نكن نتكلّم طوال المساء. وعندما كنا ننهي دراستنا، كنا نغسل أيدينا في المغاسل في الحمّام العمومي أسفل الردهة، ونرتدي بيجاماتنا، ويتمتم أحدنا للآخر، ونأوي إلى الفراش، أنا في السرير السفلي، وإلوين أيرس الابن في السرير العلوي.

كانت إقامتي مع إلوين أشبه ما أكون مقيماً وحدي في الغرفة. وكان كلّ ما كان يتحدث عنه بحماسة شديدة هو مزايا سيارة لا سال طراز ١٩٤٠، التي تم توسيع قاعدة عجلاتها عن الطرازات السابقة، ولها كاربيراتور أكبر يزيد من قوّة أحصنتها. وبلكنة أوهايو الهادئة، الممطوطة، كان يصدر طرطقة جافة يقطع فيها حديثه عندما كنت أرغب في التوقف عن الدراسة قليلاً وأكلمه لبضع دقائق. لكن بالرغم من الوحدة التي كنت أشعر بها ووجود إلوين كرفيق لي في الغرفة، فقد تخلصت على الأقل من فلوسير، مصدر الإزعاج المدمر، وأصبح بإمكاني أن أتابع دراستي للحصول على درجات عالية؛ إذ إن التضحيات التي قام بها أبي وأمي لكي يرسلاني إلى الجامعة حتّمت عليّ أن أضع نصب عيني هدف الحصول على درجات متفوقة.

Twitter: @ketab_n

وبما أنني كنت طالباً في السنة التمهيدية أنوي دراسة الحقوق وأتخصص في العلوم السياسية، كنت أدرس مبادئ الحكومة الأمريكية والتاريخ الأمريكي حتى عام ١٨٦٥، بالإضافة إلى المواد المطلوبة في الأدب، والفلسفة، وعلم النفس. كما التحقت في برنامج لتدريب ضباط الاحتياط، وكنت أتوقع أن يرسلوني إلى كوريا برتبة ملازم عندما أتخرّج. وكانت الحرب آنذاك قد دخلت سنتها الرهيبة الثانية، عندما بدأ ثلاثة أرباع مليون جندي شيوعي من الصين وكوريا الشمالية يشنون هجمات ضخمة ومنتظمة على قوات الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة التي لحقت بها خسائر فادحة، والتي كانت تردّ بشنّ هجمات مضادة ضخمة. وطوال السنة الماضية، كان الخطّ الأمامي في شبه الجزيرة الكورية وفي سيول، عاصمة كوريا الجنوبية، قد احُتل وحُرّر أربع مرات. وفي نيسان ١٩٥١، أقال الرئيس ترومان الجنرال ماك آرثر من منصب القيادة بعد أن هدّد ماك آرثر بأن يقصف الصين الشيوعية ويحاصرها، وفي شهر أيلول، عندما التحقت بجامعة واينزبيرغ، كان بديله، الجنرال ريدجواي قد دخل في المراحل الأولى الصعبة من مفاوضات الهدنة مع وفد شيوعي من كوريا الشمالية، وبدا أن الحرب ستستمرّ لسنوات طويلة، بعد أن لقي عشرات الآلاف من الأمريكيين مصرعهم وجُرحوا وأُسروا. ولم يسبق للقوات الأمريكية أن قاتلت في حرب أكثر رعباً وفظاعة من هذه الحرب، حيث كانت تأتي موجة إثر موجة من الجنود الصينيين الذين كان يبدو أنهم محصنون ضدّ قوّتنا النارية، كان جنودنا يحاربونهم في معظم الأحيان في خنادق مستخدمين الحراب وأياديهم العارية. وقد زاد عدد الإصابات الأمريكية على أكثر من مائة ألف جندي، كانوا ضحية الشتاء الكوري القارس، ومهارة وبراعة الجيش الصيني في القتال بالسلاح الأبيض والقتال الالتحامي والليلي. لم يكن الجنود الصينيون

Twitter: @ketab_n

الشيوعيون الذين يهاجمون بالآلاف أحياناً، يتواصلون بواسطة اللاسلكي أو أجهزة الإرسال المعروفة - فقد كان جيشهم لا يزال غير آلي بأشكال شتى - بل كانوا يتنادون بواسطة الأبواق، وقد ذُكر أنه لم يكن هناك شيء مرعب أكثر من الأصوات التي تنبعث من تلك الأبواق في الظلام الدامس، ومن الحشود الكثيفة لجنود العدو، التي تتسلل خلسة إلى الخطوط الأمريكية، وتمطر بنيرانها اللاهبة رجالنا المرهقين، المنبطحين من شدة البرد، والمكومين طلباً للدفء في أكياس نومهم.

وقد أسفر الصدام الذي وقع بين ترومان وماك آرثر في الربيع الماضي، عن إجراء تحقيق في مجلس الشيوخ نتيجة قيام ترومان بطرد الجنرال. وكنت أتتبع هذه الأخبار في الصحف مع أنباء الحرب التي كنت أقرأها بهوس شديد منذ أن بدأت أفهم ماذا يمكن أن يحدث إذا استمر النزاع يتأرجح بين كرّ وفرّ، وعدم تمكن أحد الطرفين من حسم الأمر وتحقيق النصر. اعتراني شعور بالكراهية إزاء ماك آرثر لشدة تطرفه اليميني، الذي هدّد بتوسيع الصراع الكوري ليصبح حرباً شاملة مع الصين، بل وربما مع الاتحاد السوفييتي الذي أصبح يملك في الآونة الأخيرة قنبلة ذرّية. وبعد أسبوع من عزله من منصبه، خاطب ماك آرثر جلسة مشتركة من الكونغرس؛ ودافع عن وجهة نظره بقصف القواعد الجوية الصينية في منشوريا، واستخدام قوّات شيان كاي شيك الصينية الوطنية في كوريا. وقبل أن ينهي كلمته بوداعه الشهير، مقسماً بأنه «سيختفي كجندي قديم، حاول أن يؤدي واجبه، عندما منحه الله النور ليرى ذلك الواجب». وبعد كلمته هذه، بدأ عدد من أعضاء الحزب الجمهوري بالترويج لهذا الجنرال المتعجرف الأرستقراطي، الذي كان في السبعينيات من عمره آنذاك، كمرشّح لهم في الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٥٢. وكما كان متوقعاً، أعلن السيناتور جوزيف

Twitter: @ketab_n

مكارثي أنّ قيام ترومان الديمقراطي بطرد ماك آرثر من الخدمة «ربما كان أكبر نصر يحققه الشيوعيون على الإطلاق».

وفي أحد الفصول الدراسية، أصبح برنامج تدريب ضباط الاحتياط - أو كما كانوا يسمونه في البرنامج «العلوم العسكرية»، إلزامياً على جميع الطلاب. ولكي تصبح ضابطاً مؤهلاً ويحق لك أن تلتحق بالجيش برتبة ملازم ثانٍ لمدة سنتين في إدارة النقل بعد التخّرج، يتعين عليك أن تدرّس العلوم العسكرية لمدة لا تقل عن أربعة فصول دراسية. وإذا درست المواد المطلوبة في الفصل الدراسي فقط، فإنك ستجد نفسك عالقاً في الخدمة الإلزامية، وبعد أن تجتاز التدريب الأساسي، قد ينتهي بك الأمر جندي مشاة حقيراً تحمل بندقية م-١، ثبّتت عليها حربة، وتقبع في حفرة كورية بانتظار انطلاق دويّ الأبواق.

كانت مدة درس العلوم العسكرية ساعة ونصف الساعة في الأسبوع. ومن الناحية التعليمية، كان يبدو لي أنه تافه ومضيعة للوقت. فقد كان الكابتن الذي يدرّسنا، بليداً مقارنة بأساتذتي الآخرين (الذين لم يكونوا يثيرون إعجابي كثيراً)، ولم تكن المادة التي ندرسها مثيرة للاهتمام على الإطلاق. «أرح أخمص بندقيتك على الأرض، ووجّه السبطانة إلى الخلف. ضع إصبع قدم أخمص البندقية على حذائك الأيمن، في موازاة إصبع القدم الكبيرة. احمل البندقية بين إبهام وأصابع يدك اليمنى...». ومع ذلك، فقد تقدمت إلى الاختبارات، وأجبت عن الأسئلة في الفصل الدراسي لكي أتأكد من أنهم سيطلبون مني الالتحاق ببرنامج العلوم العسكرية المتقدّمة. كان ثمانية من أبناء عمومتي الذين يكبرونني - سبعة من طرف أبي، وواحد من طرف أمّي - قد شاركوا في معارك في الحرب العالمية الثانية، كان اثنان منهم جنديين عاديين في سلاح المشاة ولقيا مصرعهما منذ أقل

Twitter: @ketab_n

من عشر سنوات، واحد في أنزيو في عام ١٩٤٣، والآخر في معركة بالج في عام ١٩٤٤. وقلت لنفسي إن فرصي في البقاء حياً ستكون أفضل بكثير إذا ما التحقت بالجيش كضابط، وفق الدرجات التي أحصل عليها ومرتبتي المتفوقة في صفي - فقد صمّمت أن أكون طالباً متفوّقاً - كان بإمكاني أن أنتقل من إدارة النقل (حيث يمكن أن ينتهي بي الأمر في منطقة قتالية) إلى الاستخبارات العسكرية عندما ألتحق بالخدمة العسكرية.

كنت أريد أن أفعل كلّ شيء بشكل صحيح. فإذا فعلت كلّ شيء على ما يرام، يمكنني عندئذ أن أبرّر لأبي نفقات وجودي في الجامعة في أوهايو، بدلاً من نيوآرك. ويمكنني أن أبرّر لأمّي عودتها إلى العمل في الدكان. وفي صلب طموحي، كانت تكمن الرغبة في أن أتحرّر من أب متسلط، متبلد الأحاسيس، تملّكه فجأة خوف خارج عن سيطرته على ابنه. ومع أنني سُجلت في الصف التمهيدي لدراسة الحقوق، لم أكن مهتماً بأن أصبح محامياً. ولم أكد أعرف ماذا يفعل المحامي. كنت أريد أن أحصل على أعلى الدرجات، وأن أنام جيداً، وألا أتشاجر مع أبي الذي أحبّه، والذي جعلني استخدامه للسكاكين الحادة الطويلة، وسواطير اللحم الثقيلة، أشعر بأنه بطلي الرائع عندما كنت صبياً صغيراً. وكنت أتخيّل سكاكين أبي وسواطيره عندما أقرأ عن القتال بالسلاح الأبيض ضدّ الصينيين في كوريا. كنت أعرف كم هي حادّة. وكنت أعرف ما هو شكل الدم المتيبس حول أعناق الدجاجات المذبوحة، والدم الذي يقطر من لحم البقر على يدي عندما كنت أقطع شريحة من الضلع على طول العظم، وهو يقطر وينز من أكياس الورق البنية على الرغم من تغليفها بورق مشمّع من الداخل، لتستقر بين شقوق لوح تقطيع اللحم بفعل قوة الساطور الذي ينهال عليه. كان أبي يلفّ مئزراً حول رقبته وخلف ظهره، كان

Twitter: @ketab_n

يمتلئ بالدم على الدوام، وكان المئزر الجديد يلطخ بالدم بعد ساعة من فتحه المحل. كان الدم يغطي أمّي أيضاً. ففي أحد الأيام، عندما كانت تقطّع الكبدة إلى شرائح - يمكن أن تنزلق أو تتلوّى تحت يدك إذا لم تمسكها جيداً وتثبتها بقوة - جرحت كف يدها وهرعنا بها إلى المستشفى حيث قطبّت يدها اثنتي عشرة قطبة مؤلمة. وبالرغم من حذري وحرصي الشديدين، فقد جرحت نفسي عشرات المرات وتعين عليّ أن أضمدها، وكان أبي، بعد ذلك، يوبّخني لأني أسهو وأسرح بأفكاري بعيداً وأنا أقطع بالسكين. لقد نشأت وكبرت مع الدم - مع الدم والشحم ومسَنِّ السكاكين والدهن وماكينة فرم اللحم والأصابع المبتورة، أو أجزاء فقدت في أيدي أعمامي الثلاثة بالإضافة إلى أبي - ولم أتعود عليه أبداً ولم أحبّه في حياتي. كان جدي لأبي، الذي مات قبل أن أولد، جزّار كوشر (كان ماركوس الذي سُمّيت على اسمه، بسبب مهنته الخطرة، قد فقد نصف إبهام له)، كما كان لكل أخ من إخوة أبي الثلاثة، العمّ مازي، والعمّ شيكي، والعمّ آرتي، محل مثل محلنا في منطقة مختلفة من نيوآرك. دم على الأرضية الخشب المشققة المرتفعة عن الأرض، ووراء الواجهة الزجاجية وعلى البورسلان وفي الثلاجة، وعلى الميزان، وعلى المسَنِّ، وعلى حافة لفافة الورق الشمعي، وعلى الخرطوم الذي نغسل به أرضية الثلاجة - كانت رائحة الدم أول شيء يصادفني عندما أزور أعمامي وعمّاتي في محلاتهم.

كانت رائحة الذبيحة بعد ذبحها وقبل طهوها تصدمني في كلّ مرّة. وهناك آبي، ابن مازي وولي عهده، الذي قُتل في أنزيو؛ ودايف، ابن شيلي وولي عهده، الذي قُتل في معركة بالج، وأسرة ميسنير التي تعيش وتلغ في دمها.

كان كلّ ما أعرفه عن أن يكون المرء محامياً هو أنه يبتعد بقدر

Twitter: @ketab_n

الإمكان عن هذا العمل وألا يلفّ مئزراً تفوح منه رائحة نتنة ومبقع بالدم - دم، دهون، قطع من الأحشاء - ترى كلّ شيء على مئزرك لأنك تمسح يديك به باستمرار. كنت قد قبلت أن أعمل مع أبي بكل سرور عندما كان يتوقع مني ذلك، وتعلّمت كلّ ما أمكن أن يعلمني إياه من عمليات الذبح بطاعة شديدة. لكنه لم يتمكن من أن يعلّمني أن أحبّ الدم، أو أن أكون لا مبالياً تجاهه.

ذات مساء، طرق اثنان من أعضاء رابطة الأخوّة اليهودية باب غرفتي عندما كنت أنا وإلوين منهمكين في الدراسة، وسألا إن كان بإمكاني أن أخرج قليلاً لأتحدّث معهما في «البومة»، المقهى الذي يمضي فيه الطلاب أوقات فراغهم. خرجت إلى الممر وأغلقت الباب خلفي لكي لا أزعج إلوين. قلت لهما: «لا أظن أنني سأنضمّ إلى رابطة أخوّة»، فأجاب أحدهما، «حسناً، لا أحد يطلب منك أن تنضم». كان أطول من الشاب الآخر وأطول مني بعدّة بوصات، ويتحدث بطريقة رقيقة وواثقة ذكّرني بجميع الفتيان اللطيفين الذين كانوا يترأسون مجلس الطلاب في الثانوية، والذين كانت الفتيات في فرقة الرقص والموسيقى يقعن في غرامهم. لم يمس التواضع هؤلاء الصبية، في حين كان يطنّ في آذاننا دائماً مثل ذبابة أو بعوضة لا تريد أن تخرج. ماذا كان يدور في خلد النشوء عندما صنع واحداً من مليون مثل هذا الفتى الذي يقف أمامي؟ ما هدف مثل هذه الوسامة سوى أن تلفت الانتباه إلى نقائص وعيوب الآخرين؟ كان مظهري عادياً ومقبولاً، لكن المعيار الوحشي الذي حدده المثل الأعلى هذا، حوّلني هذا الشاب إلى مسخ من العامة. وعندما رحت أكلمه، تعمدت أن أشيح بنظري، فقد كانت قسماته رائعة ونظراته متواضعة. سألني، «لماذا لا تتناول عشاءك في بيت رابطة الأخوّة ذات ليلة؟ تعال ليلة

Twitter: @ketab_n

غد. الليلة التي يقدمون فيها لحم البقر المشوي. ستتناول وجبة لذيذة، وستلتقي بالأخوة، ولا يوجد أي التزام من جانبك بعمل أي شيء». أجبته: «لا، أنا لا أؤمن بالرابطات». «تؤمن بها؟ ماذا فيها لكي تؤمن أو لا تؤمن بها؟ مجموعة من الشباب يحملون آراء متشابهة يلتقون بهدف الصداقة والمودة. إننا نلعب ألعاباً رياضية معاً، ونقيم حفلات، ونرقص، ونتناول طعامنا معاً. وإلا فإن المرء يعيش وحيداً وهذا أمر سيّئ. هل تعرف أنه يوجد أقل من مائة يهودي من بين ألف ومائتي طالب في هذه الجامعة. إنها نسبة قليلة. إذا لم تنضم إلى رابطتنا، فإن الرابطة الأخرى الوحيدة التي تقبل شخصاً يهودياً هي الرابطة غير الطائفية، ولا توجد فيها أنشطة اجتماعية أو مرافق كثيرة. انظر، سأعرّفك بنفسي - اسمي سوني كوتلر». مجرّد اسم إنسان فان، قلت لنفسي. كيف يمكن أن يكون ذلك، بهاتين العينين السوداوين المتلألئتين، وتلك الذقن ذات الشق العميق، وتلك الخوذة المكسوة بالشعر الأسود المتموّج؟ بالإضافة إلى الطلاقة بثقة. قال: «إني طالب متقدم، ولا أريد أن أضغط عليك. لكن إخوتنا لاحظوك ورأوك هنا، ويظنون أنك ستشكل إضافة عظيمة إلى بيت الرابطة. وكما تعرف، يأتي الشبان اليهود إلى هذه الجامعة منذ فترة ما قبل الحرب، لذلك فإننا رابطة جديدة نسبياً في الجامعة، ومع ذلك فقد فزنا بكأس منحة الرابطات الدراسية على الرابطات الأخرى في جامعة واينزبيرغ ؛ وهناك العديد من شبابنا الذين يدرسون بجد ويدخلون كلية الطب وكلية الحقوق. فكّر بالأمر. اتصل بي إذا قرّرت أن تأتي وتقول مرحباً. وإذا أردت أن تبقى لتناول العشاء، فهذا أفضل».

في الليلة التالية، زارني عضوان من أعضاء رابطة الأخوّة غير الطائفية. كان أحدهما فتى ذا شعر أشقر طفيف، لم أكن أعرف أنه مثلي الجنس - ومثل معظم المثليين جنسياً في عمري، لم أكن أصدق

Twitter: @ketab_n

أنه من الممكن أن يكون المرء مثلياً جنسياً - أما الآخر، فقد كان فتى ممتلئ الجسم، زنجياً ودوداً، وراح يتكلم باسم الاثنين. كان أحد ثلاثة زنوج بين الطلاب جميعهم - ولم يكن يوجد زنجي واحد بين أعضاء الهيئة التدريسية. وكان الزنجيان الآخران فتاتين، وكانتا عضوين في ناد صغير للفتيات غير طائفي، أسسته بشكل رئيسي الفتيات اليهوديات القليلات في الجامعة. ولم تكن ترى وجهاً من الولايات الشرقية في أي رابطة؛ فقد كان الجميع من البيض ومن المسيحيين، سواي وما عدا هذا الفتى الملوّن وحوالى عشرة شبان آخرين. لكن لم تكن لدي فكرة عن عدد الطلاب المثليين جنسياً في الجامعة.

لم أدرك أن بيرت فلوسير كان مثلياً جنسياً، رغم أنه كان ينام في السرير فوق سريري مباشرة. وقد أدركت ذلك لاحقاً.

قال الفتى الزنجي: «اسمي بيل كوينبي، وهذا بيل الآخر، بيل آرلنغتون. إننا من إكسي دلتا، رابطة الأخوّة غير الطائفية».

فقلت: «قبل أن تواصل كلامك، فإني لن أنضمّ إلى أي رابطة. سأكون مستقلاً».

ضحك بيل كوينبي، وقال: «لم يكن معظم الشباب في رابطتنا راغبين في الانضمام إلى رابطة الأخوّة. ولا يفكر معظم الشبان في رابطتنا كما يفكّر الطلاب الذكور العاديون في الجامعة. إنهم ضدّ التمييز، وليسوا مثل الشبان الذين تسمح لهم ضمائرهم بأن لا يقبلوا أعضاء في رابطتهم بسبب عرقهم أو دينهم. تبدو لي أنك من ذلك النوع من الأشخاص الذين يفكرون بهذه الطريقة. هل أنا مخطئ؟».

«أيها الشابان، إني أقدّر لكما مجيئكما إليّ، لكني لن أنضمّ إلى أيّ رابطة».

فسأله أحدهما: «هل يمكنني أن أعرف السبب؟».

قلت «إني أفضّل أن أكون وحدي وأدرس». مرة أخرى ضحك

Twitter: @ketab_n

كوينبي وقال: «حسناً، مرة أخرى، إن معظم الشبان في رابطتنا يفضّلون أن يكونوا وحدهم وأن يدرسوا. لم لا تأتي وتزورنا؟ إننا لسنا في أي حال رابطة تقليدية في واينزبيرغ. إننا مجموعة مميّزة، إذا جاز لي أن أقول ذلك - مجموعة من الغرباء توحّدنا لأننا لا ننتمي إلى الآخرين ولا نشاركهم اهتماماتهم. تبدو لي أنك ستكون شخصاً يشعر أنه في بيته في رابطة مثل رابطتنا».

ثم تكلّم بيل الآخر، وقال كلمات تكاد تشبه الكلمات التي قالها لي سوني كوتلر في الليلة الماضية، فقال: «من الممكن أن تشعر بالوحدة كثيراً هنا. ستعيش وحيداً تماماً».

فقلت: «سأغامر بذلك. لا أخشى أن أكون وحيداً. لديّ عمل ولديّ دراستي. إنها لا تجعلني أشعر بالوحدة كثيراً».

«إنك تعجبني»، قال كوينبي، ضاحكاً بودّ، «تعجبني ثقتك بنفسك».

فقلت: «ولدى نصف الشباب في رابطتكم نفس النوع من الثقة»، فضحكنا ثلاثتنا معاً. لقد راق لي هذان الشابان اللذان اسمهما بيل. حتى أنه راقت لي فكرة الانضمام إلى رابطة فيها زنجي - تكون متميّزاً، خاصة عندما أخذته إلى البيت في نيوآرك بمناسبة العشاء الكبير الذي أقامته عائلة ميسنير بمناسبة عيد الشكر - لكنني قلت: «يجب أن أخبركما، لا أنوي أن أفعل شيئاً يلهيني عن الاهتمام بدراستي. لا يمكنني أن أفعل شيئاً آخر سوى ذلك. إن كلّ شيء يتمحور حول دراستي». كنت أفكّر، كما كنت أفكّر غالباً، وخاصة عندما تأتي أخبار مروعة من كوريا، كيف أستطيع أن أنتقل من إدارة النقل إلى إدارة الاستخبارات العسكرية بعد أن أتخرج بتفوق. «لهذا السبب جئت إلى هنا وهذا ما سأفعله. شكراً لكما على أي حال».

في صباح يوم الأحد ذاك، عندما اتصلت بالهاتف بوالديّ في

Twitter: @ketab_n

نيوجيرسي كما أفعل كل أسبوع، فوجئت بأن والديَّ يعلمان بزيارتي عن طريق سوني كوتلر. ولكي أمنع أبي من التدخل في شؤوني، كنت أخبر الأسرة بأقل قدر أستطيع إخبارها به. وفي غالب الأحيان، كنت أطمئنهما وأؤكد لهما أنني في صحة جيدة، وأن كلّ شيء يسير على ما يرام. كان هذا كافياً بالنسبة لأمّي، أما أبي فكان يسأل دائماً، «وماذا يجري هناك ما عدا ذلك؟ ما الأشياء الأخرى التي تفعلها؟». «الدراسة. الدراسة والعمل أثناء عطل نهايات الأسبوع في الحانة». «وماذا تفعل لكي تروح عن نفسك؟»؛ «لا شيء حقاً. لا أحتاج إلى تسلية. لا يوجد لديّ وقت»؛ «وهل توجد فتاة في الأفق؟»؛ « ليس بعد»؛ «كن حذراً»؛ «سأكون»؛ «إنك تعرف ماذا أقصد»؛ «نعم»؛ «لا تريد أن تقع في أيّ مشكلة»، فأضحك وأقول: «لن أفعل ذلك»؛ «لا يعجبني أن تعيش وحدك هكذا»؛ «إنني على ما يرام وحدي»؛ «وماذا لو ارتكبت خطأ ولا يوجد أحد هناك ينصحك ويرى ماذا تفعل عندها؟ ماذا؟».

كان ذلك الحديث المعتاد، يتخلّله بالطبع سعاله المتقطّع. لكن في صباح يوم أحد مشمس، ما إن اتصلت بالبيت، حتى قال لي: «إذاً علمنا أنك التقيت بابن كوتلر. إنك تعرف من هو، أليس كذلك؟ إن عمّته تعيش هنا في نيوآرك. إنها متزوجة من سبيكتور الذي يملك مخزن تجهيزات المكاتب في ماركت ستريت. عمّه سبيكتور. عندما قلنا لها أين أنت، قالت لنا إن اسمها قبل الزواج كوتلر، وتعيش أسرة أخيها في كليفلاند، وإن ابن أخيها يذهب إلى الجامعة نفسها ويرأس رابطة الأخوّة اليهودية، ورئيس مجلس الرابطات. يهودي ورئيس مجلس الرابطات. كيف يمكن أن يكون ذلك؟ دونالد. دونالد كوتلر. يسمونه سوني، أليس هذا صحيحاً؟». قلت: «هذا صحيح». «إذاً إنه شاب رائع. علمت أنه نجم في كرة السلة، واسمه مدرج في قائمة

Twitter: @ketab_n

رئيس الجامعة. ماذا قال لك؟». «طلب مني أن أنضم إلى رابطته». «وماذا أيضاً؟». «قلت إنني لست مهتماً بالانضمام إلى الرابطات». «لكن عمّته تقول إنه فتى رائع. إنه يحصل على درجات ممتازة، مثلك. وعلمت أنه فتى وسيم». أجبت متعباً: «إنه وسيم جداً. إنه جذاب جداً». فأجاب: «ماذا تقصد؟» فقلت: «أبي، توقّف عن إرسال أناس لزيارتي». «لكنك هناك لوحدك. عندما وصلت وضعوك في غرفة فيها ثلاثة رفاق يهود، وأول شيء فعلته، أنك انقلبت عليهم وبحثت عن شخص من الأغيار وأصبحت تقيم معه في الغرفة». «إن إلوين رفيق غرفة رائع. إنه هادئ، ولطيف، ويراعي مشاعري، وهو مجتهد. لا أستطيع أن أجد أفضل منه». «أنا واثق من ذلك، أنا متأكّد من ذلك، لا يوجد لدي شيء ضدّه. لكن هناك الفتى كوتلر». «أبي لا أستطيع أن أسمع المزيد». «لكن كيف أستطيع أن أعرف ماذا يجري لك؟ كيف أعرف ماذا تفعل؟ من الممكن أن تفعل أي شيء». «أنا أفعل شيئاً واحداً»، قلت بحزم، «إني أدرس وأداوم على دروسي. وأكسب حوالى ثمانية عشر دولاراً من عملي في الحانة في عطلة نهاية الأسبوع». «وما الخطأ في أن يكون لديك بعض الأصدقاء اليهود في مكان كهذا؟ شخص تتناول وجبتك معه، ترافقه إلى السينما». «انظر، أعرف ماذا أفعل». «في الثامنة عشرة من عمرك؟» «أبي، سأقفل السماعة الآن. ماما؟». «نعم يا عزيزي». «سأغلق الخط. سأتكلّم معك يوم الأحد المقبل». «لكن ماذا عن الفتى كوتلر؟» كانت آخر كلماته التي سمعتها.

كانت هناك فتاة، مع أنها لم تكن في الصورة بعد، قد لفتت نظري. كانت طالبة في السنة الثانية، منتقلة من جامعة أخرى مثلي، بيضاء اللون، ممشوقة القامة، ذات شعر كستنائي غامق، وسلوكها ينم

Twitter: @ketab_n

عن الثقة بالنفس والتعالي إلى حد يثير الرهبة. كانت مسجلة في فصل التاريخ الأمريكي، وكانت تجلس إلى جانبي تماماً في بعض الأحيان، لكن بما أنني لم أكن أرغب في أن أجازف بأن ترفضني وتطلب مني أن أدعها وشأنها، لم أكن أمتلك الشجاعة لأن أومئ لها إيماءة ترحيب، ناهيك عن التكلّم معها. وفي ذات ليلة، رأيتها في المكتبة. كنت أجلس في مكان يطل على غرفة المطالعة الرئيسية؛ وكانت هي تجلس إلى إحدى الطاولات الطويلة في غرفة المطالعة، تدوّن ملاحظات من أحد المراجع. ثمة شيئان جذباني إليها وأسراني. واحد تلك البقعة الرائعة في شعرها. فلم يسبق لي أن شعرت بالضعف إزاء بقعة في شعر رأس أحد. أما الشيء الآخر، فهو ساقها اليسرى الملتفة فوق ساقها اليمنى، التي كانت تتأرجح إلى الأعلى وإلى الأسفل على نحو إيقاعي. وكانت تنورتها قد سقطت إلى نصف الطريق ووصلت عند ربلة ساقها، كما كانت الموضة. ومن المكان الذي أجلس فيه، كنت أرى تحت الطاولة حركة تلك الساق المتواصلة. لا بد أنها بقيت جالسة هناك هكذا طوال ساعتين، لا تتوقف عن تدوين ملاحظات. وكان كلّ ما فعلته طوال ذلك الوقت، أنني كنت أنظر إلى الطريقة التي فرقت فيه شعرها في خطّ مستقيم، والطريقة التي لم تكفّ فيها عن تحريك ساقها إلى الأعلى والأسفل. لم تكن المرة الأولى التي أتساءل فيها عن الشعور الذي تشعر به الفتاة وهي تهزّ ساقها بهذه الطريقة. فقد كانت مستغرقة في كتابة واجباتها، وكانت تتملكني، بعقل ذلك الفتى الذي يبلغ الثامنة عشرة من عمره، الرغبة في أن أدسّ يدي تحت تنورتها. وقد كبت الرغبة الجامحة في أن أهرع إلى الحمّام لأنني كنت أخشى أن يكشف أمين المكتبة أو أحد الأساتذة أو أحد الطلبة أمري، وأُطرد من الكلية، وينتهي بي الأمر جندياً عادياً أحارب في كوريا.

في تلك الليلة، كان عليّ أن أجلس في مقعدي حتى الثانية

Twitter: @ketab_n

صباحاً - والمصباح الذي يشبه عنقه عنق إوزة متجه نحو الأسفل لأبعد وهج الضوء عن إلوين، النائم في السرير في الأعلى - لكي أنهي كتابة دروسي التي لم أتمكن من كتابتها بسبب انشغالي بساق الفتاة المتأرجحة، ذات الشعر الكستنائي.

إن ما حدث عندما اصطحبتها فاق كلّ ما يمكنني أن أتخيّله في حمّام المكتبة، لو أني كنت أمتلك الشجاعة الكافية لألجأ إلى إحدى المقصورات فيه لأفرّج عن رغباتي مؤقتاً. وكانت القواعد التي تنظّم حياة البنات في واينزبيرغ هي من النوع الذي لم يكن أبي يمانع في فرضها عليّ. إذ كان يتعين على كلّ طالبة، بمن فيهن الطالبات في السنوات الأخيرة، أن توقّع اسمها عندما تأتي إلى مساكن الطالبات وتغادرها في المساء، حتى لو كانت ذاهبة إلى المكتبة. لم يكن بوسع الطالبات البقاء خارج مساكن الطالبات بعد الساعة التاسعة خلال أيام الأسبوع، أو بعد منتصف الليل في يومي الجمعة والسبت، وبالطبع لم يكن يُسمح لهن بالدخول إلى مساكن الذكور على الإطلاق، أو إلى بيوت رابطات الأخوّة إلا إذا كنّ برفقة شخص يكبرهن سناً، ولم يكن يسمح للذكور بالدخول إلى مساكن الفتيات، بل كان يتعين عليهم الجلوس على أريكة منجّدة بقماش قطني مزهّر في بهو الاستقبال الصغير، بانتظار الفتاة بعد أن تستدعيها المشرفة في الطابق السفلي عبر الهاتف؛ وتسجل المشرفة اسم الشاب من بطاقة هويته التي يتعين عليه أن يبرزها لها. وبما أنه يحظر على الطلاب، ما عدا طلاب السنوات الأخيرة، إحضار سياراتهم إلى الجامعة - في جامعة ينتمي معظم طلابها إلى الطبقة المتوسطة، كان بإمكان عدد قليل من الأسر أن تقدم لأبنائها الطلبة سيارة ونفقات صيانتها - فلم يكن هناك مكان يستطيع أن يلجأ إليه الطالب والطالبة ليختليا معاً. لذلك كان بعضهم يذهب إلى مقبرة البلدة لممارسة ألعابهم الجنسية متكئين على شواهد القبور، أو

Twitter: @ketab_n

مضطجعين فوق القبور نفسها؛ وكان البعض الآخر يكتفي بالقدر القليل الذي يمكنهم أن يحصلوا عليه في السينما؛ لكن في غالب الأحيان، وبعد المواعيد المسائية، كانت الفتيات يُدفعن على جذوع الأشجار في الظلام في الحديقة التي تضم مساكن الفتيات الثلاثة، حيث كانت الآثام، التي كانت التعليمات المعلقة على الحائط تهدف إلى كبحها ومنعها، تمارس جزئياً بين أشجار الدردار التي تضفي جمالاً خاصاً على الحرم الجامعي. وبشكل عام، لم يكن ذلك يتعدى الملامسة من وراء طبقات الثياب، أما الطلاب، فلم تكن هناك حدود لإطفاء شهواتهم مهما قلت. ولما كانت نظرية النشوء تمقت المداعبة من وراء الثياب التي لا تفضي إلى التفريغ الذي تحدثه رعشة الجماع، قد يصبح الجانب الجنسي مؤلماً ومعذّباً جسدياً. إذ إن التهيج الذي يدوم طويلاً والذي لا يفضي إلى القذف قد يجعل الشبان يمشون وهم يترنحون إلى أن يزول ببطء الألم الحارق الواخز المتشنج في الخصيتين، وهو ما يُطلق عليه «البيضتان الزرقاوان». وفي ليالي عطلة نهاية الأسبوع في واينزبيرغ، كان ألم البيضتين الزرقاوين هو السائد، وكان ينتاب العشرات من الطلاب، بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل، بينما كان القذف، أكثر أنواع العلاج الطبيعية واللطيفة، الحدث غير المسبوق والمراوغ في ذروة حياة أداء الطالب الجنسية.

أعارني إلوين، شريكي في الغرفة، سيارته لا سال السوداء، في الليلة التي اصطحبت فيها أوليفيا هوتون. كان ذلك أثناء أيام الأسبوع، عندما لم يكن لديّ عمل في الحانة. لذلك كان علينا أن ننطلق في وقت مبكر، لكي أعيدها إلى مسكنها في الساعة التاسعة. توجهنا إلى «إسكارغو»، أرقى مطعم في مقاطعة ساندوسكاي، الذي يبعد نحو عشرة أميال عن الجامعة. طلبت هي قواقع، الطبق المتميّز، ولم أطلبه أنا، لا لأنني لم أكن قد تناولتها من قبل، ولا لأنني لا أستطيع أن

Twitter: @ketab_n

أتخيّل نفسي أتناولها، بل لأنني كنت أحاول أن أجعل قيمة الفاتورة منخفضة. كنت قد اصطحبتها إلى مطعم إسكارغو لأنه كان يبدو لي أن اصطحابها إليه سيكون أرقى بكثير من اصطحابها إلى مطعم «البومة» حيث يمكنك أن تتناول الهامبرغر والبطاطا المقلية مع كوكا لقاء مبلغ يقل عن خمسين سنتاً. بالإضافة إلى أنني كنت أشعر بالغربة في مطعم إسكارغو كما كنت أشعر بغربة أكبر في مطعم «البومة»، الذي كان يحُشر رواده حشراً في مقصورات، بالإضافة إلى وجود أعضاء الرابطات ونوادي الفتيات في الجامعة. وحسب علمي، كانت معظم الأحاديث تدور حول المناسبات الاجتماعية التي جرت في عطلة نهاية الأسبوع السابق أو المناسبات التي ستُجرى في عطلة نهاية الأسبوع القادم. كنت قد سئمت ومللت من التواصل معهم وأنا أقوم على خدمتهم في بار ويلارد.

طلبت هي قواقع، ولم أطلبها أنا. كانت من ضواحي كليفلاند الغنية، ولم أكن أنا كذلك. كان والداها مطلقين، ولم يكن أبواي كذلك، ولا يحتمل أن يكونا كذلك. وكانت قد انتقلت من ماونت هوليوك إلى أوهايو لأسباب تتعلق بطلاق والديها، هذا على الأقل ما قالته. بل إنها كانت أجمل بكثير مما بدت لي في الصف. ولم تتح لي الفرصة لكي أمعن النظر في عينيها طويلاً كي أدرك مدى اتساعهما. كما لم أكن قد لاحظت بشرتها الشفافة النقية. ولم أجرؤ على النظر بإمعان إلى فمها طويلاً لأدرك اكتناز شفتها العليا وبروزها على نحو مثير عندما كانت تنطق كلمات معينة، كلمات تبدأ بـأحرف «م» أو «و» أو «واه» أو «س» أو «ش».

بعد أن تبادلنا الحديث نحو عشر أو خمس عشرة دقيقة، دُهشت عندما مدّت يدها فوق الطاولة ولمست ظاهر يدي، وقالت: «إنك متوتر جداً. لماذا لا تسترخي قليلاً».

Twitter: @ketab_n

قلت لها: «لا أعرف كيف». وبالرغم من أنني كنت أقصد ممازحتها قليلاً، تبين لي أنني كنت كذلك حقاً. كنت دائماً أعمل سعياً وراء تحقيق هدف ما؛ أوصل الطلبات إلى البيوت، وأنتف ريش الدجاج، وأنظّف ألواح تقطيع اللحم، وأحصل على أعلى الدرجات لكي لا أخيّب أمل والديّ، وأمسك المضرب بإحكام لأقذف الكرة حتى تسقط في وسط أرض الفريق المنافس. وكنت قد انتقلت من جامعة روبرت تريت لكي ابتعد عن قيود أبي غير المعقولة. وكنت أرفض أن أنضم إلى أي رابطة أخوّة لكي أركّز على دراستي. وقد أخذت التدريب العسكري بجدية قاتلة لكي لا ينتهي بي الأمر قتيلاً في كوريا. أما الآن، فقد كان الهدف أوليفيا هوتون. لقد اصطحبتها إلى مطعم وصلت فيه قيمة فاتورة الطعام الذي تناولناه نصف ما أكسبه في عطلة نهاية الأسبوع، لأنني كنت أريدها أن تظن أنني أنتمي إلى طبقة راقية، وأنني واسع الاطلاع مثلها، وفي الوقت نفسه، كنت أريد أن ينتهي العشاء قبل أن يكاد يبدأ لأجعلها تجلس في مقعد السيارة الأمامي وأن أركن السيارة في مكان منعزل وألمسها. حتى ذلك الحين، كانت حدود رغبتي الجنسية تنحصر في اللمس. فقد كنت قد لمست فتاتين في المدرسة الثانوية؛ وكنت قد صادقت كلاً منهما لمدة سنة تقريباً. وكانت واحدة منهما فقط مستعدة لأن تلمسني أيضاً. تملكتني رغبة قوية في ملامسة أوليفيا، لأن ملامستها هي الوسيلة الوحيدة إذا كنت أريد أن أفقد عذريتي قبل أن أتخرج من الجامعة وألتحق بالجيش. وكان ثمة هدف آخر أيضاً: فعلى الرغم من القيود الصارمة التي كانت تفرضها الجامعة في وسط غرب أمريكا الصغيرة في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة، فقد كنت مصمماً على ممارسة الجنس قبل أن أموت.

بعد أن تناولنا العشاء، قدت السيارة إلى خارج الحرم الجامعي

Twitter: @ketab_n

نحو مشارف البلدة، وتوقفت على جانب الطريق بالقرب من مقبرة البلدة. كان الوقت قد تجاوز الساعة الثامنة مساء بقليل، وكان أمامي أقل من ساعة واحدة لكي أعيدها إلى مسكن الطالبات قبل أن تُقفل الأبواب. لم أكن أعرف مكاناً آخر أستطيع أن أركن فيه سيارتي، بالرغم من خشيتي من قدوم سيارة الشرطة التي تجوب الزقاق خلف الحانة، وتقف وراء سيارة إلوين بأضوائها الوامضة، ويترجل منها شرطي ويتقدم من السيارة، ويوّجه ضوء مصباحه إلى المقعد الأمامي ويسألها، «هل كلّ شيء على ما يرام يا آنسة؟» هذا ما كان يقوله رجال الشرطة عادة عندما يفعلون ذلك في واينزبيرغ.

كانت الساعة الثامنة وعشر دقائق مساء، ورغم شعوري بالقلق من مجيء سيارة الشرطة، عندما أطفأت محرّك السيارة واستدرت لأقبّلها. وبدون أي اعتراض بادلتني القبلة. قلت لنفسي، «لكي لا ترفضك توقف عند هذه المرحلة». لكن النصيحة كانت حمقاء، لأن قضيبي كان قد استجاب على الفور. انسلت يدي برقة داخل معطفها، وفككت أزرار بلوزتها، ورحت أحرّك أصابعي داخل حمالة صدرها. واستجابة لمداعبتي لها من وراء قماش حمالة صدرها، فتحت فمها أكثر ولم تتوقف عن تقبيلي، بل راحت تقبلني بحرارة وشوق أكثر بلسانها الذي زادني تهيجاً. وحيداً في سيارة مركونة على جانب طريق غير منار ويدي تجوس داخل بلوزة فتاة، ولسانها يجول داخل فمي، ذلك اللسان الذي كان يعيش وحيداً في عتمة فمها، والذي أصبح الآن أكثر الأعضاء في جسدها حيوية ونشاطاً. حتى تلك اللحظة، لم يكن أحد قد أدخل لسانه في فمي غير لساني أنا. إن التفكير بهذا كاد أن يجعلني أقذف. بالتأكيد كان ذلك الشيء وحده كافياً لأن أقذف. لكن السرعة التي سمحت لي أن أمضي بها - وذلك الاندفاع السريع، الانزلاق، الأسنان التي تلعق اللسان، اللسان الذي يشبه جسداً سُلخ

Twitter: @ketab_n

عن جلده - دفعتني لأن أحاول أن أمسك بيدها وأقرّبها بلطف من مقدمة بنطالي. ومرة أخرى، لم أواجه منها أي مقاومة. *لم تكن هناك معركة*.

إن ما حدث بعد ذلك، جعلني أفكّر به كثيراً لأسابيع عديدة. حتى وأنا ميت، كما هو حالي الآن لا أعرف منذ متى، أحاول أن أتذكر القوانين والأنظمة التي كانت تحكم الجامعة، وأن أستعيد بإيجاز الجهود المزعجة التي كنت أبذلها لتحاشي تلك القوانين التي ساهمت في ترسيخ سلسلة من الأحداث المؤسفة التي انتهت بموتي وأنا لا أزال في التاسعة عشرة من عمري. حتى الآن (إن كان من الممكن القول إن «الآن» لا تزال تعني شيئاً)، وراء الوجود الجسدي، حيّاً كما أنا هنا (إن كانت «هنا» أو «أنا» تعني شيئاً) بما أن الذاكرة وحدها (إن كانت «الذاكرة» بالتحديد، هي الشيء الذي يجعلني أستمر باعتباري أنا «نفسي»)، لا أزال أمعن التفكير في تصرفات أوليفيا. أمن أجل ذلك صُنع الخلود، لكي يخوض المرء في تفاصيل عمره؟ من كان يتخيّل أن أحداً سيتذكّر إلى الأبد كلّ لحظة من حياته حتى أدنى وأصغر التفاصيل فيها؟ أم أن تلك هي حياة الآخرة بالنسبة لي، وبما أن كلّ حياة فريدة من نوعها، كذلك هي حياة الآخرة. فكلّ بصمة إصبع هي خالدة في الحياة الآخرة ولا تشبه بصمة شخص آخر؟ لا توجد لديّ إمكانية أن أعرف ذلك. وكما هو الحال في الحياة، لا أعرف إلا الأشياء الموجودة، وفي الموت، ما يبدو لي أنه كان موجوداً. لم تكن مكبلاً بحياتك عندما كنت تعيشها، بل تظل ملتصقاً بها حتى عندما تغادرها. أو ربما كان ذلك يحدث لي وحدي. من يمكنه أن يخبرني؟ وهل سيكون الموت أقل ترويعاً لو كنت قد فهمت أنه ليس شيئاً لا نهاية له، بل إنه يتكوّن، بدلاً عن ذلك، من ذاكرة تظل تتذكر لدهور

Twitter: @ketab_n

ودهور؟ مع أن هذا التذكر الأبدي قد يكون مجرد دهليز يفضي إلى النسيان. ولما كنت شخصاً ملحداً، كان يخيّل لي أنه لا توجد في الحياة الآخرة ساعة، جسد، دماغ، روح، إله - لا يوجد فيها شيء ذو مظهر أو شكل، أو جوهر. بل مجرد تحلل مطلق. لم أكن أعرف أنها ستكون مجرد مكان يتذكّر فيه المرء فقط، بل تبين لي أن التذكّر سيكون كلّ شيء. ولا أعرف أيضاً إن كنت سأستمر في التذكّر لمدة ثلاث ساعات فقط أو مليون سنة. إنها ليست ذاكرة منسية هنا - إنه الزمن. لا هوادة - لأنه لا يوجد نوم أيضاً في الحياة الآخرة، إلا إذا كانت كلها سبات، وحلم ماض ولّى إلى الأبد مع الشخص الذي مات إلى الأبد. لكن سواء كان هناك حلم أم لم يكن، لا يوجد شيء هنا يمكن تذكّره سوى الحياة الغابرة. هل يعني «هنا» الجحيم؟ أم عنان السماء؟ هل هو أفضل من النسيان أم أسوأ؟ إنك تتخيّل أن الشك والغموض سيتلاشيان على الأقل في الموت. لكن بما أنه لا توجد لديّ فكرة عن المكان الذي أنا فيه، ومن وماذا أنا، أو إلى متى سأظل على هذه الحال، سيلازمني الغموض والشك إلى الأبد. من المؤكد أن هذه ليست عنان السماء الرحبة التي صوّرها لنا الخيال الديني، حيث سنلتقي نحن الصالحين معاً مرة أخرى، ونكون سعداء للغاية لأن سيف الموت لم يعد مصلتاً فوق رؤوسنا. إني أشكّ بقوة بأنك يمكن أن تموت هنا أيضاً. إنك لا تستطيع أن تمضي قدماً هنا، هذا أمر مؤكد. فلا توجد هنا أبواب، ولا توجد أيام، والاتجاه الوحيد (الآن؟) هو إلى الخلف، والحكم الإلهي لا نهاية له، لا لأن إلهاً ما كان قد أصدر حكمه عليك، بل لأنك أنت نفسك تحكم على أعمالك إلى الأبد.

إن سألت كيف يمكن أن يكون ذلك - ذاكرة فوق ذاكرة، لا شيء سوى ذاكرة - فإني بالطبع لا أستطيع أن أجيب، وليس لأننا

Twitter: @ketab_n

«أنت» و«أنا»، لم نعد موجودين، مثل «هنا» و«الآن»، بل لأن كلّ شيء موجود هو الماضي المُتذكّر، انتبه، غير المُسترجع، وليس المُعاش ثانية في بداهة عالم الأحاسيس، بل هو مستعاد فقط. وإلى أي مدى أستطيع أن أستوعب الماضي؟ أعيد رواية حكايتي لنفسي على مدار الساعة في عالم لا ساعة له، روح لا جسد لها تكمن لائطة في كهف الذاكرة هذا. أشعر وكأني هكذا منذ مليون سنة. هل سيستمر هذا إلى الأبد - سنواتي التسع عشرة القليلة ستستمر إلى الأبد، بينما كلّ شيء آخر غائب، سنواتي التسع عشرة القليلة هنا حاضرة باستمرار وبإصرار لا مفر منه، بينما ساهم كلّ شيء في جعل السنوات التسع عشرة حقيقية، في حين أن كلّ شيء يضع المرء في المركز مباشرة، يظل وهماً بعيداً، بعيداً؟

لم أستطع أن أصدق آنذاك - وعلى نحو مضحك، لا أزال لا أصدق الآن - أن ما حدث بعد ذلك كان قد حدث لأن أوليفيا أرادته أن يحدث. لم تكن تلك هي الطريقة التي تحدث بين فتى رُبِّي تربية تقليدية، وفتاة لطيفة من منبت جيد، عندما كنت لا أزال حياً يرزق في عام ١٩٥١، عندما دخلت أمريكا الحرب للمرّة الثالثة خلال نصف قرن فقط. بالتأكيد إنني لم أكن أصدّق مطلقاً أن ما حدث كان لأنها وجدتني فتى جذّاباً، ناهيك عن أني كنت محبوباً ومرغوباً. فمن هي الفتاة التي وجدت فتى محبوباً في جامعة واينزبيرغ؟ بالنسبة لي، لم أسمع قط بأن مثل هذه المشاعر تنتاب الفتيات في واينزبيرغ أو في نيوآرك أو في أي مكان آخر. وحسب علمي، لم تكن الشهوة تلهب الفتيات بهذه الطريقة؛ بل كنّ يُستثرن في ظل حدود ومحرمات وممنوعات مطلقة، ساعدت جميعها على تحقيق طموح معظم الطالبات في واينزبيرغ وهو إقامة أسرة مع شاب يكسب رزقه، لتعيش

Twitter: @ketab_n

معه حياة أسرية توقفت عنها مؤقتاً حتى تكمل دراستها في الجامعة، وأن تفعل ذلك بأسرع ما يمكنها.

ولم أكن أصدق أيضاً أن أوليفيا قد فعلت ما فعلته لأنها كانت تجد متعة في ذلك. كانت الفكرة مثيرة للدهشة حتى بالنسبة لفتى ذكي، منفتح مثلي. لا، إن ما حدث لا يمكن إلا أن يكون ناجماً عن عيب في شخصيتها، مع أنه ليس من الضروري أن يكون عيباً أخلاقياً أو فكرياً - ففي الصف كانت تدهشني بتفوقها العقلي على جميع الفتيات اللاتي كنت أعرفهن، وأثناء العشاء معها، لم يكن هناك شيء يمكن أن يقنعني بأنها لا تتمتع بشخصية قوية ومتماسكة. لا، إن ما فعلته لي لا بد أن يكون ناجماً عن انحراف ما. «بسبب طلاق والديها»، قلت لنفسي. ولم يكن ثمة تفسير آخر للغز بهذه الدرجة من العمق.

عندما عدت إلى الغرفة بعد ذلك، كان إلوين لا يزال منكباً على دراسته. أعدت له مفاتيح سيارته لا سال، أخذها مني وهو يتابع وضع خطوط تحت بعض الفقرات في كتاب الهندسة الذي كان يقرأه. كان يرتدي بنطال بيجامته وقميصاً قطنياً، وإلى جانبه أربع زجاجات فارغة من الكوكا كولا. لا بد أنه سيشرب ما لا يقل عن أربع زجاجات أخرى، قبل أن يتوقف عن الدراسة عند منتصف الليل. لم أفاجأ لأنه لم يسألني عن الفتاة التي كنت معها، إذ لم يخرج هو نفسه مع أي فتاة، ولم يحضر أي مناسبة اجتماعية تعقدها رابطة الأخوّة التي ينتسب إليها. كان يمارس رياضة المصارعة عندما كان طالباً في الثانوية في سينسيناتي، لكنه لم يعد يمارس الرياضة في الجامعة ليتفرغ للدراسة ويحصل على شهادة الهندسة. كان أبوه صاحب شركة قوارب جرّ على نهر أوهايو، وكان يزمع أن يخلف أباه ذات يوم ليصبح رئيساً للشركة، ولكي يحقق هذا الهدف، كان قد كرّس نفسه للدراسة والحصول على شهادته بتفوق.

Twitter: @ketab_n

لكن كيف لي أن أستحمّ، وأن أرتدي بيجامتي، وآوي إلى الفراش، دون أن أكلّم أحداً عن ذلك الشيء الاستثنائي الذي حدث لي؟ ومع أن هذا ما كنت قد شرعت به، وكدت أن أنجح به، حتى بعد أن استلقيت في سريري لمدة ربع ساعة تقريباً، بينما كان إلوين يواصل دراسته، انتصبت في جلستي وقلت: «لقد لعَقَتْ قضيبي».

«أووه»، قال إلوين دون أن يرفع رأسه عن الصفحة التي كان يقرأها.

«لقد لعَقَتْ قضيبي».

«نعم»، قال إلوين في الوقت المناسب، وهو ينطق الأحرف مشيراً إلى أن اهتمامه سيظل مركزاً على عمله مهما كان الموضوع الذي أريد أن أحدثه عنه.

قلت: «حتى أني لم أطلب منها أن تفعل لي ذلك، لم أكن أحلم بأن أطلب منها أن تفعل ذلك. حتى أنني لم أكن أعرفها. لقد لعقت قضيبي. هل سمعت أن مثل هذا يمكن أن يحدث؟».

«لا»، أجاب إلوين.

«إني متأكد أنها فعلت ذلك لأن أبويها مطلّقان».

التفت ونظر نحوي. كان وجهه مستديراً، ورأسه كبيراً. كانت قسماته عادية جداً إلى درجة أن بإمكان طفل أن يرسمها على يقطينة في عيد القديسين. كانت تعابيره مرسومة في خطوط شخص نفعي، ولم يكن يبدو أنه شخص يرغب، مثلي، في أن يكبت عواطفه، هذا إن كانت لديه عواطف جامحة بحاجة إلى كبح. ثم سألني: «هل طلبت منك ذلك؟».

«لم تقل شيئاً. إني أخمّن فقط. لقد فعلت ذلك من تلقاء نفسها. مدت يدها ووضعتها على بنطالي، ومن تلقاء نفسها، ودون أن أفعل شيئاً آخر، فكت أزرار فتحة بنطالي وأخرجته، وفعلت ذلك».

Twitter: @ketab_n

«حسناً، إني سعيد جداً من أجلك يا ماركوس، لكن إن كنت لا تمانع، لديّ دراسة يجب أن أكملها».

«أريد أن شكرك على السيارة. فلم يكن ذلك ليحدث لولا إعارتك لي السيارة».

«هل سارت على ما يرام؟».

«كانت رائعة».

«يجب أن تكون كذلك. فقد شحّمتها منذ فترة قريبة».

«لا بد أنها فعلت ذلك من قبل، ألا تظن ذلك؟» قلت لإلوين.

«ممكن»، أجاب إلوين.

«لا أعرف ماذا أفعل».

«هذا واضح».

«لا أعرف إذا رأيتها مرة أخرى».

«الأمر يعود لك»، قال منهياً الحديث، لذلك، استلقيت صامتاً في سريري في الطبقة العلوية لا أكاد أستطيع أن أغفو وأنا أفكر ماذا يجب أن يكون رأيي بأوليفيا هوتون. كيف يمكن أن تشكل هذه النعمة التي حدثت لي عبئاً عليّ أيضاً؟ أنا الذي يجب أن أكون أكثر الأشخاص رضاء في واينزبيرغ، أصبحت أشدهم حيرة.

وبنفس غرابة تصرّف أوليفيا عندما كنت أفكّر بما حدث، تعزز الأمر عندما التقينا في درس مادة التاريخ. وكالمعتاد، جلس أحدنا بجانب الآخر، وعلى الفور رحت أتذكر ما فعلته لي - وما فعلته أنا استجابة لذلك. فعندما كنا في السيارة، فوجئت بمباغتتها لي فانتصبت في جلستي في المقعد، ورحت أنظر إلى الأسفل، إلى مؤخرة رأسها في حضني، وكأني أرى شخصاً يفعل ذلك لشخص آخر، لا لي أنا.

Twitter: @ketab_n

لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا، إلا في تلك «الصورة الفاحشة» ذات الحواف المهترئة بسبب تناقلها بين مئات أيدي الفتيان المهيجين جنسياً، والتي لا بد أنها تخص أحد الفتيان المتمرّدين في المراتب الدنيا في المدرسة الثانوية. لقد أدهشني تواطؤ أوليفيا كما أدهشني دأبها وتركيزها في ما كانت تفعله. كيف عرفت ماذا تفعل أو كيف تفعله؟ وماذا سيحدث لو قذفت، وهو احتمال كان يبدو قوياً منذ اللحظة الأولى؟ ألا ينبغي لي أن أحذّرها، إن كان هناك وقت كاف لتحذيرها؟ ألا ينبغي لي أن أكون مهذباً وأقذف في منديلي؟ أو أن أفتح باب السيارة، وأقذف سائلي فوق رصيف الشارع بجانب المقبرة بدلاً من أن يتبلل أحد منا؟ نعم، افعل ذلك، قلت لنفسي، اقذف في الشارع. لكني بالطبع لم أفعل. إن مجرد عدم التخيّل بأن أقذف في فمها - أن أقذف في أيّ شيء - في الهواء أو في منديل ورقي أو في جورب وسخ - كان إغراء هائلاً بالنسبة لمبتدئ. ومع ذلك، لم تفه أوليفيا بكلمة.

كلّ ما كان بوسعي أن أتصوره أن فتاة أبواها مطلقان، لن تجد ضيراً في أن تفعل أي شيء أو تبالي بما يمكن أن يحدث لها. لقد مضت فترة قبل أن أدرك أخيراً (بعد ألف سنة، هذا كلّ ما أعرفه)، أن كل ما فعلته، قد يكون جيداً أيضاً.

مرت أيام عديدة لم أطلب منها أن نخرج معاً مرة أخرى. وبعد انتهاء الفصل الدراسي، عندما كنّا جميعنا متجهين نحو قاعة الدرس، حاولت أن أكلمها. وفي صباح يوم خريفي بارد، صادفتها في مكتبة بيع الكتب. لا يمكنني أن أقول إنني لم أكن أريد أن أصادفها في مكان ما، مع أننا عندما كنا نلتقي في الصف لم أكن أولي أي اعتبار لوجودها. وكنت في كلّ مرّة أنعطف عند إحدى زوايا الحرم الجامعي، لم أكن أتمنّى أن أراها فقط، بل أن أسمع نفسي أقول لها:

Twitter: @ketab_n

«يجب أن نتواعد مرة أخرى. يجب أن أراك. يجب أن تصبحي لي ولا لأحد غيري».

كانت ترتدي معطفاً شتوياً من وبر الإبل، وجوارب صوفية عالية، وكانت تغطي شعرها الكستنائي قبعة صوفية بيضاء أنيقة تعلوها كرة حمراء محاكة من الصوف. كانت قد وصلت لتوها من الخارج، وكان خداها حمراوين وأنفها يسيل قليلاً. كانت تبدو وكأنها آخر فتاة في العالم تمارس الجنس بواسطة الفم.

«مرحباً مارك»، قالت.

«آخ، نعم، مرحباً»، قلت.

«لقد فعلت لك ذلك لأني أحبك كثيراً».

«عفواً؟».

نزعت قبعتها وهزّت شعرها - كان سميكاً وطويلاً وغير مقصوص، وتدلت بضع ضفائر على جبهتها، كما كانت تفعل معظم الفتيات الأخريات في الجامعة آنذاك.

«قلت إني فعلت لك ذلك لأنني أحببتك»، قالت لي، «أعرف أنك لن تفهم ذلك. أعرف أن هذا هو السبب الذي جعلك لا تتصل بي، والسبب الذي جعلك تتجاهل وجودي في الصف. لذلك أردت أن أوضح لك الأمر». افترت شفتاها عن ابتسامة، وقلت لنفسي إنها بهاتين الشفتين، دون أن تحثّني، سأفعل ذلك طوعاً تماماً. مع أنني أنا الذي أحسّ بالخجل! «هل هناك ألغاز أخرى؟» سألت.

«لا، هذا جيد».

«لا، ليس جيداً»، قالت، وقد تجهم وجهها الآن، وكلما تغيّرت قسمات وجهها، تغيّر جمالها. لم تكن فتاة جميلة واحدة، بل كانت خمساً وعشرين فتاة جميلة مختلفة. «إنك تبعد عني مسافة مائة ميل. لا، ليس الأمر على ما يرام بالنسبة لك»، قالت، «أعجبتني جديتك.

Twitter: @ketab_n

أعجبني نضجك أثناء العشاء - أو ما ظننت أنه نضج. لقد جعلت منه أضحوكة، لكني أحببت توترك. لم ألتق قط بأحد كان بهذه الدرجة من التوتر. أعجبتني طلعتك يا ماركوس، ولا تزال».

«هل فعلت ذلك من قبل مع شخص آخر؟».

فقالت بدون تردد، «نعم. ألم تفعل إحداهن لك ذلك؟».

«لم تقترب مني ولا واحدة».

«إذاً تظن أني عاهرة»، قالت، وتجهم وجهها ثانية.

«بالتأكيد لا»، أسرعت أطمئنها.

«إنك تكذب. لهذا السبب لم تعد تكلّمني. لأنني عاهرة».

قلت: «لقد فوجئت بذلك. هذا كل ما في الأمر».

«هل خطر لك أنني فوجئت أنا أيضاً؟».

«لكنكِ فعلتها من قبل. لقد قلت لي ذلك للتو».

«كانت هذه المرة الثانية».

«هل فوجئت في المرة الأولى؟».

«كنت في ماونت هوليوك. كان ذلك أثناء حفلة في أمهيرست. كنت قد سكرت. كان الشيء كله فظيعاً. لم أكن أدرك شيئاً. كنت أشرب طوال الوقت. لذلك انتقلت إلى هنا. لقد أوقفوني عن الدراسة. أمضيت ثلاثة أشهر في عيادة لأتخلص من الشراب. لم أعد أشرب. لم أعد أشرب أي مشروب كحولي على الإطلاق ولن أفعل ذلك ثانية. عندما فعلت ذلك هذه المرة لم أكن ثملة. لم أكن ثملة، ولم أكن مجنونة. لقد أردت أن أفعل ذلك لا لأنني عاهرة، بل لأنني كنت أريد أن أفعلها لك. كنت أريد أن أقدم لك ذلك. ألا تستطيع أن تفهم أنني أردت أن أقدمها لك؟».

«يبدو وكأني لا أستطيع».

«لقد أردت - أن - أعطيك ما كنت - تريده. هل هذه الكلمات

Twitter: @ketab_n

تستعصي على الفهم؟ إنها تكاد تكون من مقطع واحد. يا إلهي. . .» قالت بحدة، «ما مشكلتك؟».

في المرة التالية، عندما كنا في درس التاريخ، جلست في مقعد في مؤخرة القاعة كي لا أراها. الآن بعد أن عرفت أنها اضطرت لمغادرة ماونت هوليوك بسبب الشراب، ودخولها إلى مستشفى لمدة ثلاثة أشهر لكي تقلع عن الشراب، أصبحت لدي أسباب أقوى للابتعاد عنها. إذ لم أكن أشرب على الإطلاق، وكان والداي لا يكادان يشربان، فماذا يربطني بفتاة لم تبلغ العشرين من العمر بعد، وقد دخلت إلى المستشفى لكي تقلع عن الشراب؟ ومع أنني كنت قد اقتنعت بأن ليس لي علاقة بها، بعثت لها برسالة بواسطة بريد الجامعة:

عزيزتي أوليفيا،

تظنين أنني ابتعدت عنك بسبب ما حدث في السيارة في تلك الليلة. لا. فكما أوضحت لك، فإن سبب ابتعادي لأنه لم يحدث لي ذلك من قبل. بالإضافة إلى أنه لم تقل لي فتاة من قبل شيئاً شبيهاً بما قلته لي في المكتبة. لديّ صديقات أحببت شكلهن وقد أعربت لهن عن جمالهن، لكن لم تقل لي واحدة منهن إلا أنت بأنها أعجبت بقسمات وجهي، أو أبدت إعجابها بأي شيء فيّ. لم تفعل ذلك أيّ فتاة كنت قد عرفتها أو سمعت عنها، وهو شيء في حياتي لم أدركه إلا عندما عبّرت لي عن رأيك بصراحة في المكتبة. إنك مختلفة عن أي فتاة عرفتها، وآخر شيء يمكن أن يقال عنك إنك عاهرة. أظن أنك أعجوبة. إنك جميلة. إنك ناضجة. وأعترف بأن لديك تجربة تفوق تجربتي بكثير. لم أعد أستطيع أن أفكر جيداً. إني مشوش. أرجو أن تسلمي عليّ في قاعة الصف.

مارك

Twitter: @ketab_n

لكنها لم تقل شيئاً؛ حتى أنها لم تعد تنظر إليّ. لم تعد تريد أن تتعامل معي. لقد فقدتها، وأدركت أن ذلك لم يكن لأن والديها كانا مطلقين، بل لأن والديّ لم يكونا كذلك.

ومهما أقنعت نفسي بأن عدم اقترابي منها أفضل لي وبأنها كانت تسكر لنفس السبب الذي لعقت قضيبي لأجله، لم أتمكن من التوقف عن التفكير بها. كنت أخشاها. كنت سيئاً مثل أبي. كنت أبي. لم أتركه في نيو جيرسي، يغلفني خوفه وهواجسه؛ لقد أصبحت هو في أوهايو.

عندما بدأت أتصل بمسكن الطالبات، لم ترد على اتصالاتي. وعندما كنت أحاول أن أقترب منها لأحدثها بعد انتهاء الدروس، كانت تبتعد عني. كتبت لها مرة أخرى:

عزيزتي أوليفيا،

كلميني. انظري إليّ. سامحيني. لقد كبرت عشر سنوات منذ لقائنا الأول. لقد أصبحت رجلاً.

مارك

بسبب شيء صبياني في تلك الكلمات الثلاث الأخيرة - صبيانية ومتوسلة وكاذبة - حملت الرسالة في جيبي لمدة أسبوع تقريباً قبل أن أضعها في صندوق بريد الجامعة في قبو مساكن الطلاب.

ووصلتني الرسالة التالية رداً عليها:

عزيزي ماركوس،

لا أستطيع أن أراك. إنك ستهرب مني ثانية، هذه المرة عندما

Twitter: @ketab_n

سترى الندبة في رسغي. لو كنت قد رأيتها في الليلة التي التقينا فيها، لشرحت لك الأمر بصدق. كنت مستعدة لأن أفعل ذلك. لم أحاول أن أخبئ الأمر، لكنك لم تلحظها. إنها ندبة بسبب موسى حلاقة. لقد حاولت أن أقتل نفسي في ماونت هوليوك. لهذا السبب مكثت في العيادة ثلاثة أشهر. إنها عيادة مينينغير في توبيكا، كنساس. مصحّة مينينغير ومستشفى المضطربين نفسياً. سأعطيك اسمه الكامل. أبي طبيب ويعرف الناس هناك لذلك ذهبت إليه. لقد استعملت الموسى عندما سكرت لكني كنت أفكّر بأن أفعل ذلك منذ مدة طويلة، طوال تلك الفترة، لم أكن أعيش، بل كنت أنتقل من صف إلى صف وأنا أتصرف كما لو كنت أعيش. لو كنت صاحية لنجحت. وبفضل شراب الراي والزنجبيل أعيش اليوم. أصبحت غير قادرة على القيام بأيّ شيء. حتى أنني أصبحت عاجزة عن الانتحار. لا أستطيع أن أبرر وجودي حتى بهذه الطريقة. إن إدانة الذات هي اسمي الثالث.

إني غير نادمة على ما فعلناه، لكن يجب ألا نفعل شيئاً آخر. انس كل شيء عني وامض في طريقك. لا يوجد أحد هنا مثلك يا ماركوس. إنك لم تصبح رجلاً فقط - بل كنت أكثر من ذلك طوال حياتك. لا أستطيع أن أتخيّلك أبداً «فتى» حتى عندما كنت كذلك. وبالتأكيد لم تكن فتى مثل الفتيان هنا. إنك لست روحاً بسيطة، ولا مكان لك هنا. فإذا نجوت من هذا المكان المليء بالحقد، سيكون لديك مستقبل باهر. بداية، لماذا جئت إلى واينزبيرغ؟ لقد أتيت إلى هنا لأصبح فتاة طبيعية. أما أنت؟ فيجب أن تدرس الفلسفة في السوربون وتعيش في سقيفة في مونبارناس. كلانا يجب أن نفعل ذلك. الوداع أيها الرجل الجميل!

أوليفيا

Twitter: @ketab_n

قرأت الرسالة مرّتين، وللتأثير القوي الذي أحدثته فيّ صحت: «لا يوجد أحد هنا مثلكِ! كما أنكِ لست روحاً بسيطة!». كنت قد رأيتها تكتب بقلمها الباركر ٥ وهي تدوّن ملاحظاتها في الصف - قلم مبرقش باللونين البني والأحمر - لكني لم أكن قد رأيت كتابة بخط يدها من قبل، ولم أر كيف توّقع اسمها بريشة ذلك القلم، كيف تكتب حرف "O" بذلك الخط الرفيع، وذلك الارتفاع الغريب عندما تضع النقطتين فوق حرف "i"، والذيل الطويل اللطيف في نهاية حرف "ℓ". أدنيت الصفحة من فمي وقبّلت حرف "O". رحت أقبّله وأقبّله. ثم، وبشكل عفوي، أخذت ألعق حبر توقيعها برأس لساني، بصبر ودأب مثل قطّة تلعق الحليب من طاسة حتى زالت حروف الـ O و ℓ و i و v و الـ i الثانية - لعقتها حتى اختفى الذيل المعقوف تماماً. لقد شربت كتابتها. أكلت اسمها. لقد بذلت ما بوسعي لألتهم كل شيء.

في تلك الليلة، لم أتمكن من التركيز على دروسي وظللت مشغولاً برسالتها، فرحت أعيد قراءتها المرة تلو الأخرى، قرأتها من الأعلى إلى الأسفل، ثم من الأسفل إلى الأعلى، بادئاً بعبارة «أيها الرجل الجميل» ومنتهياً بعبارة «لا أستطيع أن أراك». وأخيراً قاطعت إلوين الجالس إلى طاولته، وطلبت منه أن يقرأها ويخبرني برأيه. فهو في جميع الأحوال شريكي في الغرفة، أمضي في صحبته ساعات عديدة في الدراسة والنوم. قلت له: «لم أتلق رسالة كهذه من قبل». كانت تلك هي اللازمة المحيّرة التي رحت أرددها طوال تلك السنة الأخيرة من حياتي: لم أتلق رسالة مثلها من قبل. بالطبع كان إعطائي الرسالة إلى إلوين لكي يقرأها - إلوين الذي يطمح لأن يدير شركة قوارب جر على نهر أوهايو - خطأ كبيراً وأمراً في غاية الغباء.

«أهذه هي الفتاة التي لعقت قضيبك؟» قال عندما انتهى.

Twitter: @ketab_n

«حسناً، نعم».

«في السيارة».

«إنك تعرف ذلك، نعم».

فقال: «عظيم، كلّ ما أحتاج أن أفعله من أجل «كس» كهذا أن أقطع شرايين رسغيها في سيارتي لا سال».

غضبت لأنه أطلق على أوليفيا اسم «كس»، وعندها قررت أن أبحث عن غرفة جديدة وشريك جديد. بعد أسبوع اكتشفت غرفة شاغرة في الطابق العلوي من مبنى نيل هول، أقدم مسكن للطلاب في الحرم الجامعي، يعود إلى بدايات إنشاء الجامعة عندما كانت معهداً معمدانياً. وعلى الرغم من وجود سلالم النجاة فيه، كان يُطلق على المبنى اسم «مصيدة الحرائق». كانت الغرفة التي وجدتها شاغرة منذ سنوات عديدة، ولم يكن يتعين عليّ أن أعيد تقديم الأوراق اللازمة إلى سكرتيرة عميد مساكن الرجال، لذلك انتقلت إليها. كانت صغيرة جداً، في نهاية بهو ذي أرضية خشبية ينبعث منها صرير، وفيها شباك ضيّق مرتفع يبدو أنه لم يُغسل منذ أن شُيِّد هذا المبنى، بعد سنة من انتهاء الحرب الأهلية.

أردت أن أحزم أمتعتي وأترك الغرفة في مبنى جينكنز هول من دون أن أرى إلوين وأشرح له سبب ذهابي. أردت أن أختفي لأنني لم أعد أحتمل صمته مرة أخرى. لم أستطع أن أتحمّل صمته، ولم أستطع أن أتحمّل ذلك النزر اليسير مما كان يقوله - والطريقة التي يقوله فيها بحقد - عندما كان يتنازل ويتكلم معي. لم أكن أدرك مدى كراهيتي له حتى قبل أن يقول إن أوليفيا «كس». وقد جعلني صمته المتواصل أظن أنه كان يرفض وجودي لسبب ما - لأنني كنت يهودياً، لأنني لم أكن طالباً في كلية الهندسة، لأنني لم أكن عضواً في رابطة ما، لأنني لم أكن أهتمّ بمحرّكات السيارات أو قوارب الجر، لأنني لم

Twitter: @ketab_n

أكن أحداً آخر - أو أنه كان لا يأبه لمجرد وجودي. نعم، لقد أعارني سيارته لا سال الثمينة عندما طلبت منه ذلك، فبدا لي في تلك اللحظة أن ثمة مشاعر صادقة تجمعنا أكبر من تلك التي كان بوسعه أن يبديها أو يرغب في إظهارها، أو ربما لأنه كان مجرد بشر كان يفعل أحياناً أشياء غير متوقّعة. لكنه أطلق على أوليفيا اسم «كس»، وقد احتقرته من أجل ذلك.

كانت أوليفيا هوتون فتاة رائعة أدمنت على الكحول في ماونت هوليوك، وحاولت أن تضع حداً لحياتها بشكل مأسوي بموسى حلاقة. إنها ليست «كساً». إنها بطلة.

كنت لا أزال أحزم حقائبي عندما ظهر إلوين فجأة في الغرفة عند الظهيرة. سار إلى جانبي، وتناول كتابين من جانب طاولته، ثم استدار واتجه عائداً نحو الباب، كالعادة من دون أن ينبس بكلمة.

«سأنتقل من الغرفة»، قلت له.

«وماذا يهمني».

«عليك اللعنة»، قلت.

وضع الكتابين على الطاولة، ووجه إليّ لكمة في فكّي. أحسست وكأنني سأنهار، ثم أمسك وجهي حيث وجّه إليّ لكمته، ليرى إن كنت أنزف، أو أن عظمة قد كسرت، أو أن الأسنان قد سقطت. رحت أنظر إليه وهو يحمل الكتابين ويخرج.

لم أكن أفهم إلوين، لم أكن أفهم فلوسير، لم أكن أفهم أبي، لم أكن أفهم أوليفيا، لم أكن أفهم أحداً أو شيئاً. (موضوع هام آخر من حياتي في السنة الماضية). لماذا تريد فتاة على قدر كبير من الجمال والذكاء، وبهذه الدرجة من الرقي، أن تموت وهي لا تزال في التاسعة عشرة من عمرها؟ لماذا تسكر في ماونت هوليوك؟ لماذا تمص قضيبي؟ أن «تعطيني شيئاً»، على حد تعبيرها؟ لا، كان ثمة شيء أكثر

Twitter: @ketab_n

مما فعلته، لكن ما هو ذلك الشيء الذي لم أستطع أن أدركه. لا يمكن أن أعلل كلّ شيء بسبب طلاق أبويها. وما الفرق إن كان الأمر كذلك؟ وكلما ازددت حزناً وكدراً وأنا أفكّر بها، ازدادت رغبتي بها؛ وكلما ازداد الألم في فكي، ازدادت رغبتي فيها. دفاعاً عن شرفها، تلقيت لكمة في وجهي لأول مرة في حياتي، وهي لا تعرف ذلك؛ وسأنتقل إلى مبنى نيل هول بسببها، وهي لا تعرف ذلك أيضاً. لقد وقعت في غرامها، وهي لا تعرف ذلك - لقد اكتشفت ذلك بنفسي منذ فترة وجيزة. (موضوع آخر: اكتشاف أشياء). لقد وقعت في غرام مراهقة، كانت مدمنة على الكحول، ونزيلة مصحّة نفسية، لم تنجح في أن تتخلص من حياتها بموسى حلاقة، ابنة أبوين مطلقين، ومسيحية حتى العظم. لقد وقعت في حبّ - أو أنني وقعت في الحبّ حماقة الوقوع في حبّ - فتاة لا بد أن أبي يتصور أنني كنت أرقد في السرير معها في تلك الليلة الأولى عندما أقفل فيها الباب عليّ ولم يسمح لي بأن أدخل إلى البيت.

عزيزتي أوليفيا،

لقد رأيت الندبة عند العشاء. لم يكن من الصعب معرفة سبب وجودها هناك. لم أسألك لأنك إن لم تكوني ترغبين في الحديث عنها، فلماذا يتعين عليّ أنا؟ وخمّنت أيضاً، عندما قلت لي إنك لا ترغبين في أن تشربي شيئاً، بأنك شخص كنت تكثرين من الشراب. لم يكن ثمة شيء مفاجئ في رسالتك. أريد أن نلتقي على الأقل وأن نتمشى - كنت سأكتب «نتمشى عند جدول واين كريك» لكنني لم أكتبها لكي لا تظن أنني أقترح عليها أن تلقي بنفسها هناك. لم أعرف ماذا أفعل عندما كذبت وقلت لها إنني كنت قد لاحظت الندبة في رسغها، ثم أزيد الطينة بلة عندما قلت إنني عرفت بنفسي أنها كانت

Twitter: @ketab_n

تكثر من الشراب. حتى أنها أخبرتني في رسالتها أنها تشرب، ورغم درجة السكر الذي كنت أشاهده في نهاية عطلة الأسبوع عندما كنت أعمل في حانة ويلارد، لم أكن أعرف أنه يمكن أن يدمن شخص بهذه السن على الكحول. أما بالنسبة لتقبلي الندبة في رسغها برباطة جأش - حسناً، تلك الندبة، التي لم ألحظها في ليلة موعدنا، استحوذت الآن على تفكيري.

هل كانت هذه اللحظة تؤذن ببداية تراكمات من الأخطاء طوال العمر (هل مُنحت عمراً لكي أرتكبها)؟ خيّل إليّ آنذاك أنها تؤذن ببداية رجولتي. ثم تساءلت إن كان الاثنان قد تزامنا معاً. كلّ ما كنت أعرفه أن الندبة هي التي فعلت ذلك. كنت مذهولاً. لم يشغل بالي أي شخص في حياتي. تاريخ الشرب، الندبة، المصحّة، الضعف، الثبات - أصبحت عبداً لها جميعها. لبطولاتها جميعها.

ختمت الرسالة بما يلي:

إذا عدتِ وجلستِ إلى جانبي في درس التاريخ فإنني سأتمكن من مواصلة التركيز على دروسي. إني لا أتوقف عن التفكير بك وأنت تجلسين ورائي، بدلاً من التركيز على ما ندرسه. أنظر إلى البقعة التي كان جسدك يشغلها، والرغبة في الالتفات مصدر دائم لشرودي- لأنني، يا جميلتي أوليفيا، لا أريد شيئاً أكثر من أن أكون قريباً منك. أحبّ نظراتك، وأعشق بجنون جسدك الرائع.

فكّرت إن كان عليّ أن أكتب «أعشق بجنون جسدك الرائع، حتى الندبة على رسغك، وكلّ ما فيك». هل سأبدو أني شخص فاقد الحس إذا لم أعر ندبتها أي اهتمام؟ ولكي أكون في الجانب السليم، لم أكتب «حتى الندبة على رسغك وكلّ ما فيك»، بل أضفت الملاحظة: «سأنتقل إلى مبنى نيل هول نتيجة خلاف نشأ بيني وبين رفيقي في الغرفة». وأرسلت الرسالة بواسطة بريد الجامعة.

Twitter: @ketab_n

لم تعد تجلس إلى جانبي في غرفة الصف، لكنها ظلت تجلس في مؤخرة الصف، بعيداً عن نظري. وكنت أهرع ظهر كل يوم إلى صندوق البريد في القبو في مبنى جنكينز، لأرى إن كانت قد بعثت لي رداً. وطوال الأسبوع، كنت أذهب لأرى صندوقاً فارغاً؛ وعندما ظهرت رسالة أخيراً، كانت من المشرف على مساكن الرجال.

عزيزي السيد ميسنير،

بلغني أنك انتقلت إلى غرفة أخرى في بيوت الطلبة في نيل هول بعد أن كنت قد أقمت لفترة وجيزة في غرفتين منفصلتين في مبنى جنكينز. إن القلق يساورني إزاء التغييرات الكثيرة في هذه الغرف لطالب منتقل من جامعة أخرى لم يمض عليه سوى فصل دراسي واحد في سنته الأولى في جامعة واينزبيرغ. أرجو أن تنسّق مع سكرتيري لزيارتي في مكتبي خلال هذا الأسبوع؛ اجتماع قصير أثق بأنه سيكون مفيداً لكلينا.

المخلص

هاويس د. كودويل

المشرف على مساكن الرجال

تم تحديد الاجتماع مع المشرف كودويل يوم الأربعاء القادم، بعد انتهاء الصلاة في الكنيسة الصغيرة بخمس عشرة دقيقة. ومع أن واينزبيرغ كانت قد تحولت إلى جامعة غير طائفية بعد عقدين من الزمن على تأسيسها كمعهد لاهوتي، عندما كان حضور الصلاة ممارسة يومية، كان يتعين على الطلاب أن يحضروا إلى الكنيسة بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة من كل يوم أربعاء، أربعين مرّة قبل أن يتخرجوا. وكان المضمون الديني للمواعظ التي تلقى يُخفّف

Twitter: @ketab_n

أو يُموّه بأنها تتحدث عن موضوع أخلاقي سام، ولم يكن المتحدثون من رجال الدين دائماً: ففي بعض الأحيان، كان يأتي أشخاص متنورون متدينون مثل رئيس الكنيسة اللوثرية المتحدة في أمريكا. وفي مرّة أو مرّتين في الشهر، كان المتكلمون ينتمون إلى أعضاء الهيئة التدريسية في جامعة واينزبيرغ، أو في جامعات قريبة، أو يكونون قضاة محليين، أو مشرّعين من مجلس الولاية. إلا أن الدكتور تشيستر دونيهاوير، رئيس قسم الديانة في واينزبيرغ، وهو نفسه كاهن معمداني، كان يعتلي المنصّة في معظم الأحيان لتلاوة الكتاب المقدس. وكان موضوع حديثه يتركّز باستمرار حول «كيف يمكننا أن نقيّم أنفسنا في ضوء تعاليم الكتاب المقدس». وكانت هناك جوقة تضم قرابة خمسين طالباً، ثلثهم تقريباً من الفتيات الشابات، تنشد كل أسبوع ترتيلة دينية مسيحية عن بدء الساعة ونهايتها؛ وأثناء عيد الفصح وعيد الميلاد، كانت الجوقة تؤدي مقطوعات موسيقية موسميّة، وكان يؤمها عدد كبير من الناس. ومع أن الجامعة أصبحت علمانية منذ نحو قرن من الزمن، لم تكن الكنيسة الصغيرة تقع في إحدى قاعات الكلية العامة، بل كانت جزءاً من كنيسة منهجية (ميثودية)، وهي الكنيسة الأبرز والأهم في البلدة، تقع في منتصف الطريق بين الشارع الرئيسي وحرم الجامعة، وهي الكنيسة الوحيدة التي تتسع لمجموعة الطلاب.

كنت اعترض بشدة على أي شيء يتعلق بحضوري الكنيسة، بدءاً بالمكان نفسه. فلم أكن أرى أن من العدل أن أُرغم على الجلوس في كنيسة مسيحية، وأستمع لمدة خمس وأربعين أو خمسين دقيقة إلى الدكتور دونيهاوير، أو إلى أي شخص آخر يقدم لي مواعظ ضد رغبتي لكي أصبح مؤهلاً للتخرّج من مؤسسة علمانية. ولم أكن أعارض ذلك لأنني كنت يهودياً متديناً، بل لأنني كنت ملحداً متحمساً.

Twitter: @ketab_n

وهكذا، في نهاية الشهر الأول من دراستي في واينزبيرغ، وبعد أن استمعت إلى موعظة ثانية ألقاها الدكتور دونيهاوير، شدد فيها على «مثال السيد المسيح» أكثر من الموعظة الأولى، توجهت مباشرة من الكنيسة إلى الحرم الجامعي، وتوجهت إلى قسم المراجع في المكتبة لأبحث في دليل الجامعات عن جامعة أخرى لكي أنتقل إليها، جامعة تكون بعيدة عن مراقبة أبي، ولا أكون فيها مرغماً على أن أضع ضميري موضع الريبة بالاستماع إلى كلام تافه يُفرض عليّ فرضاً. ولكي أتحرر من أبي، اخترت جامعة تبعد مسافة خمس عشرة ساعة بالسيارة من نيو جيرسي، يصعب الوصول إليها بالحافلة أو بالقطار، ويفصلها أكثر من خمسين ميلاً عن أقرب مطار تجاري - لكن دون أن أفهم المعتقدات التي يتم تلقينها للأطفال باعتبارها حقائق ثابتة في عمق أمريكا.

ولكي أتجاوز موعظة الدكتور دونيهاوير الثانية، وجدت أن من الضروري أن أستدعي إلى ذاكرتي أغنية كنت قد تعلمت لحنها الحماسي وكلماتها العسكرية اللاهبة في المدرسة الابتدائية عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية. وكانت برامج اجتماعاتنا الأسبوعية تهدف إلى تعزيز الفضائل الوطنية، التي كانت تجمعنا نحن الأطفال الذين كنا ننشد معاً الأناشيد العسكرية: البحرية «مراسي أويغ»، والبرية «عربات المدافع انطلقي إلى الأمام»، والجوية «نحلق في السماء الزرقاء»، والبحرية «من قاعات مونتيزوما»، وأناشيد فرق الجيش النسائية. وكنا ننشد أيضاً ما أخبرونا بأنه النشيد الوطني لحلفائنا الصينيين في الحرب التي شنّها اليابانيون عليهم، الذي يقول:

انهضوا، يا من تأبون أن تكونوا عبيدا!
بلحمنا ودمنا سنبني جداراً عظيماً جديدا!
نواجه جماهير الصين يوم الخطر.

Twitter: @ketab_n

الغضب يملأ قلوب جميع مواطنينا،
انهضوا! انهضوا! انهضوا!
جميع القلوب بعقل واحد،
تحدّوا نيران العدو،
تقدموا!
تحدّوا نيران العدو،
تقدموا! تقدموا! تقدموا!

لا بد أنني كررت هذا النشيد في نفسي أكثر من خمسين مرة خلال موعظة الدكتور دونيهاوير الثانية، ثم خمسين مرة أخرى عندما كانت الجوقة تنشد تراتيلها المسيحية، وكنت في كلّ مرّة، أشدد على كلّ مقطع من المقاطع الأربعة التي تشكّل معاً كلمة «غضب».

كان مكتب المشرف على الطلاب الذكور يقع بين مجموعة من المكاتب الإدارية على جانبيّ بهو الطابق الأول في مبنى جينكنز هول. وكان مسكن الرجال، حيث نمت في المرة الأولى في سرير تحت سرير بيرترام فلوسير، ثم تحت سرير إلوين أيرس، يشغل الطابقين الثاني والثالث. عندما دخلت إلى مكتبه من غرفة الانتظار، تقدم المشرف من وراء طاولته ليصافحني. كان نحيفاً ذا كتفين عريضتين، وله فكّ يشبه الفانوس، وعينان زرقاوان متلألئتان، وتكسو رأسه طبقة كثيفة من الشعر الأشيب. كان رجلاً طويلاً، ربما كان في أواخر الخمسينيات من عمره، لا يزال يتحرك بخفة وحيوية ذلك النجم الرياضي الشاب الذي كان قد شارك في ثلاث مباريات رياضية في واينزبيرغ قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكان يعلق على جدران مكتبه صور بطولات الفرق الرياضية في واينزبيرغ، وكانت تنتصب كرة

Twitter: @ketab_n

قدم برونزية على مسند وراء طاولته. وكانت الكتب الوحيدة الموجودة في مكتبه، مجلدات الكتاب السنوي للجامعة، وكتاب «عشّ البومة»، مرتّبة في خزانة زجاجية وراءه بحسب ترتيب زمني.

أشار إليّ بأن أجلس على الكرسي قبالته. وفيما كان عائداً إلى مكانه وراء طاولته، قال بلطف: «لقد أردتك أن تأتي ونلتقي لأرى إن كان بإمكاني أن أساعدك على التأقلم مع واينزبيرغ. وأرى من جدول الدرجات التي حصلت عليها - ورفع من على طاولته ملفاً كان يتصفّحه عندما دخلت - الدرجات التي حصلت عليها في سنتك الأولى. ولا أريد أن يتدخل أيّ شيء في واينزبيرغ في سجلّك الأكاديمي الرائع بأي شكل من الأشكال».

كان قميصي الداخلي قد تبلل بالعرق حتى قبل أن أجلس وأقول كلماتي الأولى متشنجاً. بالطبع، كنت لا أزال متوتراً وقلقاً لأنني كنت عائداً من الكنيسة للتو، لا بسبب موعظة الدكتور دونيهاوير فحسب، بل بسبب ترديدي للنشيد الوطني الصيني في سريرتي بطريقة عنيفة. أجبت: «ولا أنا يا سيدي».

لم أتوّقع أن أسمع نفسي أقول للمشرف «سيدي»، مع أن ذلك لم يكن شيئاً غير عادي لأن شعوراً بالخجل - الذي يأخذ شكل رسميات شديدة - تجاه الجميع يغمرني، عندما أضطر إلى مقابلة شخص ذي سلطة لأول مرّة. ومع أن قوّة ضربات قلبي لم تهدأ، كان عليّ أن أقاوم إحساساً قوياً بالرهبة، وكان عليّ أن أتدبر ذلك بالتحدث بشيء من الفظاظة أكثر مما تتطلبه المقابلة. وفي مرات كثيرة، كنت أغادر هذه اللقاءات بأن أوبّخ نفسي على إحساسي بالخجل في بداية اللقاء، ثم للصراحة غير الضرورية التي تغلّبت فيها عليه، وأقسم أنني سأجيب في المستقبل بأقصى ما يمكنني من إيجاز على أيّ سؤال يوجّه إليّ أو أن أتماسك وأحتفظ بهدوئي وأغلق فمي.

Twitter: @ketab_n

«هل ترى أيّ صعوبات محتملة في الأفق هنا؟» سألني المشرف.

«لا يا سيدي. لا يا سيدي».

«كيف تسير دراستك؟».

«أظن أنها تسير على ما يرام يا سيدي».

«هل تحصل على كلّ ما كنت تتمناه من المواد التي تدرسها؟»

«نعم يا سيدي».

لم يكن هذا صحيحاً بدقة. فقد كان أساتذتي متكلفين ورسميين للغاية أو أنهم كانوا عاديين وشعبيين جداً بالنسبة لي. وخلال الشهور الأولى من قدومي إلى هذه الجامعة، لم أجد واحداً منهم جذاباً كما كان أساتذتي في سنتي الأولى في جامعة روبرت تريت. فقد كان جميع المدرسين تقريباً في جامعة روبرت بيت يقطعون الاثني عشر ميلاً من مدينة نيويورك إلى نيوآرك لتدريسنا، وكانوا يبدون لي أنهم مفعمون بالنشاط وتعج في رؤوسهم الأفكار - من المؤكد أن آراء بعضهم كانت يسارية بصراحة شديدة بالرغم من الضغوط السياسية السائدة - أما هؤلاء الأساتذة من الوسط الغربي الأمريكي، فلم يكونوا كذلك بطرائق عديدة. وكان هناك أستاذان يهوديان من أساتذتي في روبرت تريت، يتحدثان بحماسة لم تكن غريبة عليّ، لكن حتى الأساتذة الثلاثة الذين لم يكونوا يهوداً، كانوا يتكلّمون بسرعة أكبر، وباندفاع أشد من الأساتذة في واينزبيرغ، وكانوا يجلبون إلى الصف الصخب الذي كان يدور وراء نهر هدسون من مواقف أكثر حدة وأشد قسوة وأكثر حيوية، ولم يكن ذلك بالضرورة يستر كراهيتهم. وعندما كنت أستلقي في سريري في الليل، عندما كان إلوين ينام في السرير الذي كان فوق سريري، كنت أتذكر غالباً هؤلاء المدرسين الرائعين الذين كنت محظوظاً بأنهم درّسوني هناك، والذين اعتنقت أفكارهم بحماسة ولهفة، والذين كانوا أول من جعلوني أطّلع على المعرفة

Twitter: @ketab_n

الحقيقية، وبمشاعر رقيقة لم أكن أتوقعها كادت تغمرني، كنت أتذكّر أصدقائي في فريق البيسبول في السنة الأولى، مثل رفيقي الإيطالي أنجيلو سبينيلي الذي فقدته تماماً الآن. أما في جامعة روبرت تريت، فلم أكن أشعر بأن الأساتذة يحافظون على أساليب الحياة القديمة، وهو أمر يختلف تماماً عما كنت أشعر به في واينزبيرغ، كلما سمعت المدافعين والمناصرين يترنمون بفضائل «تقاليدهم».

«هل تخالط زملاءك على نحو كاف؟» سألني كودويل، وأضاف: «هل تلتقي بطلاب آخرين؟».

«نعم يا سيدي».

انتظرت منه أن يطلب مني أن أعدد له أسماء الطلاب الذين تعرفت عليهم حتى الآن، متوقعاً أنه سيسجّل أسماءهم في الملف القانوني أمامه - الذي كُتب عليه اسمي بخط يده في الأعلى - ويحضرهم إلى مكتبه ليعرف إن كنت أصدقه القول أم لا. لكن ردّه كان أنه بدأ يصبّ الماء في كأس من إبريق موجود على المنضدة الصغيرة وراء طاولة مكتبه، وقدمها لي من وراء الطاولة.

«شكراً يا سيدي». أخذت أرشف الماء لكي لا يسري في الطريق الخطأ، فيجعلني أسعل ولا أستطيع أن أتحكم بنفسي. وأدركت أيضاً أنه من استماعه لأجوبتي القليلة الأولى، أدرك كم كان حلقي جافاً.

قال: «إذن يبدو أن المشكلة الوحيدة هي أنك تعاني من مشكلة في التأقلم مع الحياة في مساكن الطلاب. هل هذا صحيح؟ كما قلت في رسالتي، يساورني شيء من القلق لأنك تنقلت إلى ثلاث غرف مختلفة خلال الأسابيع الأولى فقط من مجيئك إلى هنا. قل لي أنت، ما المشكلة التي تزعجك؟».

كنت قد أعددت جواباً في الليلة الماضية، لأني أعرف أن انتقالي

Twitter: @ketab_n

هو السبب الرئيسي الذي جعله يستدعيني لهذا الاجتماع. ولم يعد بمقدوري الآن أن أقول ما كنت قد خططت لقوله.

«هلا تفضلت وأعدت سؤالك يا سيدي؟».

«هدّئ من روعك يا بني»، قال كودويل، «حاول قليلاً».

فعلت كما طلب مني. إنهم سيلقون بي خارج الجامعة، قلت في نفسي، لأنني أتنقل من غرفة إلى غرفة، سيطلبون مني أن أغادر واينزبيرغ. بهذه الطريقة سينتهي الأمر. سأُطرد، وسأُستدعى إلى الجيش وسأُرسل إلى كوريا، وأُقتل.

«وما المشاكل التي كنت تصادفها في الغرف التي أقمت فيها يا ماركوس؟».

«في الغرفة التي خُصصت لي في البداية» - نعم، ها هي، الكلمات التي كتبتها وحفظتها عن ظهر قلب - «كان أحد رفاق غرفتي الثلاثة يشغّل الفونوغراف دائماً بعد أن آوي إلى الفراش، ولم أكن أحصل على قدر كاف من النوم طوال الليل. أنا أحتاج إلى النوم لأني أعمل. كان الأمر لا يطاق». قرّرت في آخر دقيقة أن أستخدم كلمة «لا يطاق»، بدلاً من عبارة «لا يحتمل»، وهي الصفة التي تدربت عليها في الليلة الماضية.

«لكن ألم يكن بوسعكما أن تجلسا وتتوصلا إلى حلّ توافقان عليه بشأن الوقت الملائم الذي يشغّل فيه الفونوغراف؟» سألني كودويل، «أكان عليك أن تنتقل من الغرفة؟ ألم يكن هناك خيار آخر؟».

«نعم، كان عليّ أن أنتقل».

«ألم تكن هناك طريقة للتوصل إلى حل وسط».

«ليس معه يا سيدي». كان هذا أبعد حد يمكنني أن أمضي إليه، راجياً أن يجدني جديراً بالإعجاب لأنني حميت فلوسير من كشفه بعدم ذكر اسمه.

Twitter: @ketab_n

«ألا تستطيع غالباً أن تصل إلى حلّ وسط مع الأشخاص الذين لا تراهم شخصياً؟».

«لا أقول 'غالباً' يا سيدي. لا يمكنني أن أقول إن شيئاً كهذا قد حدث من قبل».

«وماذا عن شريك غرفتك الثاني؟ ألا يمكن العيش معه أيضاً. أأنا على صواب؟».

«نعم يا سيدي».

«لماذا تعتقد ذلك؟».

«لم تكن اهتماماتنا متوافقة».

«إذاً لم يكن هناك مجال للتوصل إلى حلّ وسط أيضاً».

«لا يا سيدي».

«والآن تعيش وحدك، كما أرى. تعيش وحيداً تحت أفاريز مبنى نيل هول».

«حتى انتهاء الفصل الدراسي، كانت تلك الغرفة الفارغة الوحيدة التي تمكنت من العثور عليها».

«اشرب مزيداً من الماء يا ماركوس. إنه سيساعدك».

لكن لم يكن فمي جافاً. ولم يكن العرق يتصبب مني أيضاً. في الواقع، شعرت بالغضب لقوله «سيساعدك». عندها اعتبرت نفسي أنني تغلبت على أسوأ شعور لي بالتوتر، وأنني أصبحت أتصرف مثل أي شخص في عمري في مثل هذه الجلسة. لقد تملكني شعور بالغضب. أحسست بالمهانة. شعرت بالامتعاض، حتى أني لم أنظر باتجاه الكأس. لماذا يتوجب عليّ أن أخضع لهذا الاستجواب لمجرد أنني انتقلت من غرفة في مساكن الطلاب إلى غرفة أخرى سعياً وراء راحة البال التي أحتاجها من أجل دراستي؟ وما دخله في كل ذلك؟ ألا يوجد لديه شيء أفضل من استجوابي عن إقامتي في مساكن الطلاب؟

Twitter: @ketab_n

فأنا طالب مجتهد وأحصل على أعلى الدرجات - لماذا هذا لا يكفي الكبار جميعهم الذين لا يمكن إرضاؤهم (وأعني شخصين، المشرف وأبي)؟

«وماذا عن رابطة الأخوّة التي تنتمي إليها؟ إنك تتناول وجبات طعامك هناك، كما فهمت».

«أنا لا أنتمي إلى رابطة أخوّة يا سيدي. إني لا أهتم بحياة الرابطات».

«ما هي اهتماماتك إذاً؟».

«دراستي، يا سيدي. أن أتعلم».

«هذا شيء يدعو للإعجاب. لكن ألا يوجد شيء آخر؟ هل أقمت علاقات اجتماعية مع أي شخص منذ أن جئت إلى واينزبيرغ؟»

«إني أعمل في عطلة نهاية الأسبوع، إني أعمل نادلاً في الحانة أقدم المشروبات. من الضروري أن أعمل لمساعدة أبي في تسديد نفقاتي يا سيدي».

«لا يتوجب أن تفعل ذلك يا ماركوس. يمكنك أن تكفّ عن مناداتي «سيدي». نادني المشرف كودويل، أو نادني المشرف إذا أحببت. إن واينزبيرغ ليست أكاديمية عسكرية، ولسنا في نهاية القرن أيضاً. إننا في عام ١٩٥١».

«لا مانع لديّ في أن أناديك سيدي»، قلت ذلك مع أنني كنت أكره ذلك. لهذا السبب أفعل ذلك! كنت أريد أن أتناول كلمة «سيدي» وأدسها في مؤخرته لأنه اختارني من بين جميع الطلاب، وطلب مني أن أحضر إلى مكتبه لأسمع منه هذا الكلام. أنا الطالب الذي يحقق أعلى الدرجات. لماذا لا يروق ذلك لأحد؟ كنت أعمل في عطل نهايات الأسبوع. لماذا لا يروق ذلك لأحد؟ حتى إنني تساءلت عندما مصت قضيبي للمرة الأولى ما الخطأ الذي حصل لكي يجري لي

Twitter: @ketab_n

ذلك. لماذا لم يرق ذلك للآخرين؟ ماذا يُفترض أن أفعل لكي أثبت قيمتي للناس؟

وعلى الفور، أتى المشرف على ذكر أبي، «يذكر التقرير هنا أن أباك جزّار لحم كوشر».

«لا أظن ذلك يا سيدي. لقد كتبت فقط «جزّار». هذا ما أكتبه في أي استمارة، إني واثق من ذلك».

«حسناً، هذا ما كتبته أنت. إني أفترض فقط أنه جزّار كوشر».

«نعم. لكني لم أكتب ذلك».

«إنني أقرّ بذلك. لكن هذا الكلام ليس غير دقيق لتعريفه بدقة بأنه جزّار كوشر يا ماركوس؟».

«لكن ما دوّنته ليس غير دقيق أيضاً».

«يدفعني الفضول إلى معرفة لماذا لم تدوّن عبارة 'كوشر' يا ماركوس».

«لا أظن أن لهذا علاقة. إذا كان والد أحد الطلاب المنتسبين طبيب أمراض جلدية، أو طبيب أمراض عظمية، أو أخصائي ولادة، ألن يكتب فقط 'طبيب'؟ أو 'دكتور'؟ أظن ذلك، على أي حال».

«لكن كوشر لا تدخل في التصنيف ذاته».

«إن كنت تسألني يا سيدي، إن كنت أحاول أن أخفي الدين الذي ولدت به، فالجواب لا».

«حسناً، من المؤكد أني أرجو ذلك. إني مسرور لسماع ذلك. يحقّ لكل شخص أن يمارس عقيدته علناً، وهذا ينسحب على واينزبيرغ مثل أي مكان آخر في هذا البلد. من الناحية الأخرى، فإني ألاحظ أنك لم تدّون تحت بند التفضيل الديني 'يهودي' مع أنك من أصل يهودي، وبحسب محاولة الجامعة في مساعدة الطلاب على

Twitter: @ketab_n

الإقامة مع آخرين من نفس الديانة، فقد خُصّصت لك غرفة يشاركك فيها طلاب يهود أصلاً».

«أنا لم أكتب أي شيء تحت التفضيل الديني يا سيدي».

«يمكنني أن أرى ذلك. أتساءل لماذا لم تفعل ذلك».

«لأنه لا يوجد لديّ أي تفضيل. لأنني لا أفضّل ممارسة دين على دين آخر».

«وأي شيء يمدّك بالغذاء الروحي إذاً؟ لمن تصلّي عندما تكون بحاجة إلى مؤاساة؟».

«لست بحاجة إلى مؤاساة. إنني لا أؤمن بالله ولا أؤمن بالصلاة». بما أنني كنت من أفضل المجادلين في الثانوية فقد كنت معروفاً بأني أستطيع أن أتوجه إلى النقطة التي أريدها مباشرة - وهذا ما فعلته، «إني أقتات على ما هو حقيقي، وليس على ما هو خيالي. إن الصلاة بالنسبة لي أمر مناف للعقل».

«أهي كذلك؟» أجاب بابتسامة، «ومع ذلك فإن ملايين عدة من البشر يفعلون ذلك».

«كانت الملايين تعتقد ذات يوم بأن الأرض مسطحة يا سيدي».

«نعم، هذا صحيح. لكن هل لي أن أسألك يا ماركوس، بمجرد دافع من الفضول، كيف يمكنك أن تسيّر أمورك في الحياة - المليئة مثل حياتنا بالبلايا والمحن - ولا دين لديك أو توجيه روحي؟».

«إني أحصل على أعلى الدرجات يا سيدي».

أحدث ذلك ابتسامة للمرة الثانية، ابتسامة تنم عن تنازل، أحببتها أقل من الابتسامة الأولى. كنت مستعداً الآن لأن أبدي احتقاراً للمشرف كودويل بكلّ كياني لأنه وضعني في هذه المحنة.

قال: «لم أسألك عن درجاتك. إني أعرف درجاتك. ولديك كلّ الحقّ في أن تكون فخوراً بها، كما قلت لك».

Twitter: @ketab_n

«إذا كان الأمر كذلك يا سيدي، فإنك تعرف الجواب على سؤالك بأنني أستطيع أن أتقدم في دراستي من دون أيّ توجيه ديني أو روحي. إني أشعر بأني على ما يرام هكذا».

بدأت أرى أنني بدأت أغيظه، وبطريقة لن تكون لصالحي.

«حسناً، إذا كان بإمكاني أن أقول ذلك»، قال المشرف، «لا يبدو لي أن أمورك تسير على ما يرام. على الأقل لا تبدو على ما يرام بالنسبة لرفاقك في الغرف. يبدو أنه ما إن يحدث خلاف في الرأي بينك وبين رفاقك في الغرفة، حتى تحزم أشياءك وتغادر».

«هل توجد مشكلة إذا وجدت حلاً وغادرت الغرفة بهدوء؟»، سألته، وسمعت نفسي بدأت أغني في داخلي، « انهضوا، يا من تأبون أن تكونوا عبيداً! بلحمنا ودمنا سنبني جداراً عظيماً جديداً!».

«ليس بالضرورة، لا أكثر من وجود مشكلة وإيجاد حلّ لها بهدوء والبقاء في الغرفة. انظر أين انتهى بك الأمر - في أقل الغرف المرغوبة في الحرم الجامعي بأكمله. غرفة لم يرغب أحد في أن يقيم فيها، أو اضطر لأن يعيش فيها منذ سنوات عدة. بصراحة، لا تعجبني فكرة بقائك هناك وحدك. إنها أسوأ غرفة في واينزبيرغ، بلا استثناء. إنها أسوأ غرفة في أسوأ طابق في أسوأ مسكن للطلاب منذ مائة سنة. ففي الشتاء هي شديدة البرودة، وفي بداية الربيع، تصبح علبة حارة، مليئة بالذباب. وهذا ما اخترت أن تمضي أيامك ولياليك فيه كطالب في السنة الثانية».

«لكني لا أعيش هناك يا سيدي، لأنه لا توجد لديّ معتقدات دينية، إذا كان ذلك ما تلمح إليه بطريقة غير مباشرة».

«لماذا إذاً؟».

«إنها كما أوضحت» قلت، وفي غضون ذلك، وبصوت مليء كنت أغني في رأسي، «لقد واجهت جماهير الصين يوم الخطر» -

Twitter: @ketab_n

«في غرفتي الأولى لم أكن أستطيع أن أحصل على قسط كاف من النوم بسبب رفيقي في الغرفة الذي كان يصرّ على أن يشغّل فونوغرافه في وقت متأخر من الليل، ويقرأ بصوت مرتفع في منتصف الليل، وفي غرفتي الثانية وجدت نفسي أعيش مع شخص اعتبرت أن تصرفاته لا تحتمل».

«يبدو أنك تعاني من مشكلة تتعلق بدرجة تحمّل الآخرين أيها الشاب».

«لم أسمع أحداً يقول عني ذلك يا سيدي»، قلت في اللحظة التي كنت أغني فيها في داخلي أجمل كلمة باللغة الإنكليزية: «غض ـ ب»، وعلى الفور تساءلت ماذا يقابلها باللغة الصينية. كنت أريد أن أتعلّمها وأن أطوف في أرجاء الجامعة، وأصرخ بها بأعلى عقيرتي.

فأجاب: «يبدو أن هناك أشياء عديدة عن نفسك لم تسمع بها من قبل. لكن 'من قبل' كنت تعيش في بيتك، عندما كنت طفلاً تعيش في أحضان عائلتك. أما الآن، فإنك تعيش حياة شخص راشد مع ألف ومائتي شخص آخر، والشيء الذي يجب أن تتقنه في واينزبيرغ، بالإضافة إلى إتقانك لدروسك، هو أن تتعلّم كيف تنسجم مع الناس، وكيف تتحمّل الآخرين الذين هم ليسوا نسخ كربون عنك».

بعد أن أدى إنشادي خلسة إلى رفع معنوياتي، قلت: «إذاً ماذا لو تحملتني قليلاً؟ أنا آسف، يا سيدي، فأنا لا أقصد أن أكون صفيقاً أو وقحاً. لكن...»، ولدهشتي، انحنيت إلى الأمام، خبطت بطرف قبضتي على طاولته وقلت: «أرجو أن تخبرني بالتحديد ما الجريمة التي ارتكبتها؟ هل أن انتقالي مرتين، من غرفة إلى أخرى، جريمة في جامعة واينزبيرغ؟ هل هذا يجعلني شخصاً مداناً؟».

هنا صبّ قليلاً من الماء، وتناول جرعة طويلة. كنت أتمنى لو أنني صببت له الكأس بلطف. كنت أتمنى لو أني قدمت له الكأس

Twitter: @ketab_n

وقلت: «هدئ من روعك أيها المشرف. جرّب هذا، لم لا؟».

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وقال: «هل قال أحد إنها جريمة، يا ماركوس؟ أظن أنك تحب أن تبالغ كثيراً. هذا ليس لَصالحك ولا يخدمك كثيراً، وهي صفة أرجو أن تعيد النظر فيها. حدثني الآن، كيف تتوافق مع أفراد أسرتك؟ هل يسير كلّ شيء على ما يرام في البيت بينك وبين أمّك وأبيك؟ إني أرى من الاستمارة هنا، أنك تقول إنه لا يوجد لديك تفضيل ديني، كما تقول إنه لا يوجد لديك أشقاء. لا يوجد سوى أنتم الثلاثة في البيت، إذا اعتبرت أن ما دوّنته هنا دقيقاً».

«لماذا لا يكون دقيقاً يا سيدي؟». اخرس، قلت لنفسي. اخرس، ومن الآن وصاعداً، توقّف عن التقدم! لم أستطع. لم أستطع لأن الولع بالمبالغة لم يكن ولعي أنا، بل ولع المشرف نفسه: إذ إن سبب هذا الاجتماع هو أنه أولى أهمية مبالغاً فيها وبشكل سخيف للغرفة التي أردت أن أنتقل إليها. قلت: «كنت دقيقاً عندما كتبت أن أبي يعمل جزّاراً. إنه جزّار. لست أنا الوحيد الذي يصفه بأنه جزّار. فهو يصف نفسه بأنه جزّار. أنت من وصفه بأنه جزّار كوشر، وهو شيء لا أمانع في تسميته. لكن هذا ليس سبباً للقول بأنني لم أكن في أي حال من الأحوال غير دقيق عندما ملأت الاستمارة التي قدمتها إلى جامعة واينزبيرغ. لم يكن خطأ أنني تركت بند التفضيل الديني فارغاً».

«إن كان لي أن أقاطعك يا ماركوس. ما درجة الانسجام بينكم أنتم الثلاثة، من وجهة نظرك؟ هذا هو السؤال الذي سألته. أنت وأمّك وأبوك، كيف كانت علاقة أحدكم بالآخر؟ أريد أن أسمع منك جواباً مباشراً من فضلك».

«العلاقة بيني وبين أمّي رائعة. كنا دائماً هكذا. كما كانت علاقتي بأبي رائعة في معظم سنوات حياتي. لكن منذ السنة الأخيرة في

Twitter: @ketab_n

المدرسة الابتدائية وحتى التحاقي بجامعة روبرت تريت، كنت أعمل في دكان الجزارة خارج أوقات الدوام. كنا شديدي القرب كما يمكن لابن وأب أن يكونا. إلا أنه مؤخراً، شاب علاقتنا توتر جعلنا غير سعيدين».

«توتر من أجل ماذا، هل لي أن أسأل؟».

«إنه قلق غير ضروري يتعلق باستقلاليتي».

«غير ضروري لأنه ليس لديه سبب لأن يكون؟».

«أبداً على الإطلاق».

«هل يثير القلق مثلاً عدم مقدرتك على التأقلم مع رفاقك في الغرفة هنا في واينزبيرغ؟».

«لم أحدثه عن رفاقي في الغرفة. لم يخطر ببالي أن هذا الأمر مهم. كما أن 'عدم القدرة على التأقلم' ليس هو الأسلوب الصحيح لوصف الصعوبة يا سيدي. لا أريد أن تحوّل المشاكل السطحية اهتمامي عن دراستي».

«لن أعتبر انتقالك مرّتين في أقل من شهرين مشكلة سطحية، ولا أبوك أيضاً، أنا متأكّد من ذلك، الذي لو اطّلع على حالتك - بما أن له كلّ حقّ في أن يطلع عليها، بالمناسبة، لا أظن أنك في البداية كنت ستتجشم عناء الانتقال، إن كنت ترى ذلك مجرد مشكلة سطحية. لكن لنضع هذا جانباً يا ماركوس، هل خرجت مع فتيات منذ أن قدمت إلى جامعة واينزبيرغ؟».

احمّر وجهي. « انهضوا، يا من تأبون. . .»، وقلت: « نعم».

«كم. . . قليل؟ بعض؟ كثير؟».

«واحدة».

«واحدة فقط».

وقبل أن يجرؤ على سؤالي مع من، وقبل أن أضطر إلى ذكر

Twitter: @ketab_n

اسمها، وأن اضطر إلى الإجابة عن سؤال عما رشح بيننا، وثبت واقفاً من الكرسي، وقلت: «سيدي، إني أعترض على أن أُستجوب بهذه الطريقة. لا أرى ما الهدف من ذلك. لا أرى سبباً يجعلني أجيب على أسئلة تتعلق بعلاقاتي مع رفاقي في الغرفة أو تتعلق بارتباطي بديني، أو بتقييمي لدين أي شخص آخر. إنها شؤوني الخاصة، وكذلك حياتي الاجتماعية وكيف أعيشها. وأنا لا أخرق أي قوانين، وسلوكي لا يؤذي أحداً، ولا يضر أحداً، ولم أعتدِ على حق أحد. وإذا كانت ثمة حقوق اعتُدي عليها فهي حقوقي أنا».

«مرة أخرى، اجلس من فضلك، وأوضح فكرتك».

جلست، وفي هذه المرة، بمبادرة مني، تجرّعت كأس الماء. بدا الآن أن ذلك أكثر مما أستطيع أن أحتمله، ومع ذلك، كيف يمكنني أن أذعن عندما يكون مخطئاً ومعي أنا كل الحقّ؟ «إني أعترض على أنه يتعين عليّ أن أحضر الكنيسة أربعين مرّة قبل أن أتمكن من التخرج وأحصل على شهادتي، يا سيدي. لا أرى كيف يحق للجامعة أن ترغمني على أن أستمع إلى رجل دين مهما كان دينه، أو أن أستمع إلى تراتيل مسيحية تستحضر الإله المسيحي حتى لو لمرة واحدة. وبما أني شخص ملحد، لأكون صادقاً معك، فإني أشعر بإهانة عميقة من ممارسات ومعتقدات دين منظّم». الآن لم أستطع أن أكبح نفسي، وقد اعتراني شعور بالضعف، «لست بحاجة إلى مواعظ يقدمها لي دعاة أخلاق محترفين يعلمونني كيف يجب أن أتصرّف. ومن المؤكد أنني لست بحاجة إلى أيّ إله يخبرني كيف أفعل ذلك. بصورة عامة، أنا قادر على أن أقود وجوداً أخلاقياً دون أن أؤمن بمعتقدات يستحيل إثباتها، وتتجاوز السذاجة، والتي هي في رأيي، ليست أكثر من قصص حوريات تروىٰ للأطفال يؤمن بها الكبار، وليس لها أساس من الصحة أكثر من كونها في واقع الأمر إيماناً بسانتا كلوز. أظن أنك

Twitter: @ketab_n

مطلع جيداً، يا سيد كودويل، على كتابات برتراند راسل. برتراند راسل، عالم الرياضيات والفيلسوف البريطاني المعروف، الذي حصل على جائزة نوبل في الآداب في العام الماضي. وكان من بين أعماله الأدبية التي مُنح من أجلها جائزة نوبل مقالة حظيت بإقبال واسع من القرّاء كان قد ألقاها لأول مرة في محاضرة في عام ١٩٢٧ بعنوان 'أنا لست مسيحياً' هل اطلّعت على تلك المقالة، يا سيدي؟».

«أرجوك اجلس مرة أخرى»، قال كودويل.

فعلت ما طلبه مني، لكنني قلت: «إني أسألك إن كنت قد اطّلعت هذه المقالة المهمة للغاية التي كتبها برتراند راسل. أفهم أن جوابك لا. حسناً، لقد اطلعت عليها جيداً لأنني كنت أحرص على حفظ مقاطع طويلة منها عندما كنت كابتن فريق المناقشة في مدرستي الثانوية. لم أنسها بعد، وقد وعدت نفسي بأن لا أنساها على الإطلاق. إن هذه المقالة ومقالات أخرى لا تضم مناقشات راسل وحججه ضد مفهوم المسيحية عن الله فحسب، بل تضم كذلك مناقشات ضد مفاهيم الله التي تؤمن بها جميع الأديان العظيمة في العالم، والتي يجد راسل أنها جميعها غير صحيحة وضارّة على حد سواء. وإذا قيض لك أن تقرأ مقالته، بهدف التفتّح الذهني، فإني أحثّك على قراءتها، وستجد أن برتراند راسل، أحد أبرز علماء المنطق في العالم بالإضافة إلى كونه فيلسوفاً وعالم رياضيات، يلغي بمنطق لا مراء فيه حجة علّة الوجود، الحجة التي تقول إنه ما دام هناك خلق، فلا بد أن هناك خالقاً، حجة القانون الطبيعي، الحجة الأخلاقية بوجود إله، وحجة العدل ورفع الظلم. سأعطيك مثالين. الأول، السبب الذي يجعل مقولة علّة الوجود غير صحيحة، فهو يقول: 'إذا كان يجب أن تكون هناك علّة لكل شيء، إذاً يجب أن تكون هناك علّة لوجود الله. وإذا كان هناك شيء بدون علّة، فقد

Twitter: @ketab_n

يكون العالم كما هو الله'. والمثال الثاني، بالنسبة للحجّة التي تقول إنه ما دام هناك خلق فلا بد أن يكون هناك خالق، فإنه يقول: 'هل تعتقد أنك إذا مُنحت قدرة كلية ومعرفة تامة وملايين السنين حتى تتقن تشكيل عالمك، فإنك لا تستطيع أن تنتج شيئاً أفضل من جماعة كوكلاكس كلان أو الفاشيين؟' ويناقش أيضاً أوجه الخلل في تعاليم المسيح على النحو الذي يظهر فيه المسيح في الإنجيل، بينما يلاحظ أن وجود المسيح مشكوك فيه من الناحية التاريخية. وهو يعتبر أن أكبر خلل في شخصية المسيح الأخلاقية، تكمن في إيمانه بوجود جهنم. إذ يكتب راسل: 'لا أشعر أنا نفسي بأنه يمكن لأيّ شخص يتمتع بإنسانية مفرطة أن يؤمن بوجود عقاب أبدي'، ويتّهم المسيح بأنه يهدد بغضبه وانتقامه كل من لا ينصت إلى تعاليمه ومواعظه. ويناقش بصراحة تامة كيف أخّرت الكنائس تقدّم البشرية وأعاقته وكيف أنها، بإصرارها على ما ترغب في أن تطلق عليه *المبادئ الأخلاقية*، تسبب كلّ أنواع المعاناة التي لا يستحقها البشر. ويقول إن الدين يقوم أساساً على فكرة الخوف - الخوف من شيء غامض، الخوف من الهزيمة، الخوف من الموت. ويقول برتراند راسل إن الخوف هو أمّ الوحشية، لذلك لا غرو أن الدين والوحشيّة يسيران جنباً إلى جنب منذ قرون طويلة. ويقول راسل اغزوا العالم بالذكاء والعقل، لا بالاستسلام بخنوع للإرهاب الذي ينبعث من العيش فيه. ويخلص إلى أن مفهوم الله كله ليس جديراً بالرجال الأحرار. هذه هي أفكار الرجل الذي فاز بجائزة نوبل، والذي اشتُهر بمساهماته في الفلسفة وببراعته في المنطق وفي نظرية المعرفة، وإني اتفق معها جميعها اتفاقاً تاماً. وبعد أن درستها، وبعد أن أمعنت التفكير فيها، قررت أن أعيش وفقها، بذات القدر الذي يجعلني متأكّداً من أنك يجب أن تقبل ذلك يا سيدي، ولديّ كلّ الحقّ في أن أفعل ذلك».

Twitter: @ketab_n

«أرجوك اجلس»، قال كودويل مرة أخرى.

جلست. لم أدرك أنني وقفت ثانية، لكن هذا ما قد سبّبته الكلمة التي تحض على النهوض والتي رددها شخص يعيش في أزمة ثلاث مرات متتالية.

قال لي: «إذاً أنت وبرتراند راسل لا توافقان على وجود دين منظّم، ولا تحتملان وجود رجال الدين، بل حتى إنكما لا تؤمنان بالله، والأكثر من ذلك، يا ماركوس مسنر، إنك لا تحتمل وجود رفاقك في الغرفة، كما أفهم، بنفس الدرجة التي لا تحتمل فيها أباً محبّاً يعتبر أن أهم شيء بالنسبة له أن يشعر بالقلق على ابنه. وخاصة أن العبء المالي الذي يتحمله لكي يرسلك من البيت إلى الجامعة ليس بالأمر التافه، إني واثق من ذلك. ألا توافقني على ذلك؟».

«لماذا إذاً أعمل في حانة نيو ويلارد هاوس يا سيدي؟ نعم، الأمر كذلك. أعتقد أنني قلت لك ذلك للتو».

«حسناً، قل لي الآن، وهذه المرة دع برتراند راسل جانباً - هل تحتمل معتقدات أي شخص تخالف معتقداتك؟».

«أظن يا سيدي أن الآراء الدينية التي لا يتحملها ولا يتسامح بها تسعة وتسعون بالمائة من الطلاب والمدرسين والإدارة في واينزبيرغ هي آرائي أنا».

هنا فتح ملفي وراح يقلّب صفحاته ببطء، ربما ليجدد ذاكرته بسجلّي، أو ربما (كنت أرجو ذلك) لكي لا يطردني من الجامعة على الفور بسبب التهمة التي وجهتها له بقوة ضد الجامعة كلها. أو ربما ليتظاهر فقط بأنه، بقدر ما كان محترماً وموضع إعجاب في واينزبيرغ، فإنه شخص يستطيع أن يتحّمل شخصاً يؤمن بأفكار تتناقض مع أفكاره.

Twitter: @ketab_n

قال لي: «أرى هنا أنك تدرس لكي تصبح محامياً. ومن هذا اللقاء، أظن أنك ستصبح محامياً بارزاً»، ثم تجهّم وجهه وقال: «قد أراك يوماً وأنت تدافع عن قضية أمام المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وتفوز بها، أيها الشابّ، تفوز بها. إني معجب بصراحتك، وبطريقة إلقائك، وبتركيب جملك - إني معجب بإصرارك وبالثقة التي تنم عنك في كلّ ما تقوله. إني معجب بقدرتك على الحفظ عن ظهر قلب، وعلى قراءة أشياء يصعب فهمها حتى لو لم أكن معجباً بالضرورة بما تختار أن تقرأه ولمن تقرأ، والسهولة التي تأخذ فيها المعنى الظاهري لتجديف عقلاني على الله قاله رجل لا أخلاقي مثل برتراند راسل، تزوج أربع مرات، الزاني الوقح، المدافع عن ممارسة الحبّ بحرية، والذي اعترف بأنه اشتراكي، وكان قد طُرد من منصبه في الجامعة لأنه قاد حملة ضد الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى، والذي سجنته السلطات البريطانية من أجل ذلك».

«لكن ماذا عن جائزة نوبل!».

«حتى إني أعجب بك الآن يا ماركوس، عندما تخبط بيدك على طاولتي وتقف لتشير بإصبعك إليّ لكي تسأل عن جائزة نوبل. إنك تتمتع بروح قتالية. إنني أحترم فيك ذلك، أو إني سأحترمها فيك حقاً لو أنك سخّرت هذه الروح من أجل قضية جديرة وهامة أكثر من قضية شخص اعتبرته حكومته الوطنية مجرماً هدّاماً».

«لم أكن أقصد أن أشير بإصبعي يا سيدي. حتى إني لم ألحظ أنني فعلت ذلك».

«لقد فعلت ذلك يا بني. ليس للمرة الأولى، وربما ليس للمرة الأخيرة. لكن هذا أقل ما يقال عن ذلك. فأنا لم أفاجأ كثيراً لأنك تعتبر أن برتراند راسل بطل. هناك دائماً شاب أو شابان في مقتبل عمريهما الفكري في كلّ جامعة، أفراد نصّبوا أنفسهم على أنهم

Twitter: @ketab_n

مثقفون، وينتمون إلى النخبة، ويريدون الارتقاء بأنفسهم، ويشعرون بالتفوّق على زملائهم، وحتى على أساتذتهم، لذلك يمرّون بمرحلة إيجاد محرَض أو محطّم للمعتقدات الدينية، ويبدون إعجابهم بأشخاص مثل راسل أو نيتشه أو شوبينهاير. لكننا لسنا هنا لنناقش هذه الآراء، ومن المؤكد أنه يحق لك أن تعجب بمن تحبّ، مهما كان تأثيرهم ضاراً، ومهما كانت خطورة نتائج ذاك الشخص الذي يسمى مفكراً حرّاً، ومصلحاً مدعياً. ماركوس، إن ما يجمعنا اليوم، وما يثير قلقي اليوم، ليس أنك تحفظ عن ظهر قلب لأنك كنت في فريق المناقشة في المدرسة الثانوية، برتراند راسل الذي يعارض الأفكار السائدة، والذي يساعد على تنشئة وتربية جيل من الساخطين والمتمردين. إن ما يثير قلقي مهاراتك الاجتماعية كما أبديتها هنا في جامعة واينزبيرغ. إن ما يقلقني عزلتك، ما يثير قلقي رفضك الصريح لتقاليد واينزبيرغ الراسخة، كما يشهد على ذلك ردّ فعلك إزاء الذهاب إلى الكنيسة، وهو أحد المتطلبات الجامعية البسيطة التي لا تتجاوز أكثر من ساعة واحدة من وقتك كلّ أسبوع لمدة ثلاثة فصول دراسية تقريباً. بالإضافة إلى مادة التربية البدنية. وخلال تجربتي كلها في واينزبيرغ، لم أر حتى الآن طالباً اعترض على أي من هذين المتطلبين، واعتبر أنها انتهاك لحقوقه، أو أنها تساوي إرغامه على العمل في مناجم الملح. إن ما يقلقني هي الدرجة السيئة التي تحاول أن تضع نفسك فيها في مجتمع واينزبيرغ. بالنسبة لي، يبدو أنها مشكلة يجب معالجتها على الفور، ويجب استئصالها من أصلها».

قلت في نفسي، لا بد أني سأُطرد من الجامعة، وسأعود إلى البيت، وسألتحق بالجيش وسأُقتل. إذ لم يفهم كلمة واحدة مما ذكرته له من كتاب «لماذا أنا لست مسيحياً» أم أنه فهم، لذلك فإنهم سيأخذونني إلى الجيش وسأُقتل.

Twitter: @ketab_n

قال كودويل: «لديّ مسؤولية شخصية ومهنية تجاه الطلاب وأسرهم».

«سيدي، لم أعد أحتمل أكثر من هذا. أشعر وكأنني سأتقيّأ».

«أعذرني؟» لقد نفد صبره، وأصبحت عينا كودويل اللامعتين الزرقاوين البلّوريتين تحدقان فيّ بمزيج قاتل من عدم التصديق والغضب.

قلت: «إني أشعر بدوار. أشعر بأني سأتقيأ، لم يعد بإمكاني احتمال سماع محاضرة كهذه. إني لست ناقماً. لست ثائراً. لا يمكن أن تنطبق أي من هاتين الكلمتين عليّ، كما أني أكره استعمال أياً منهما، حتى لو كان مجرد التلميح إلى ما يقصد بهما. إني لم أفعل شيئاً أستحق أن أسمع من أجله هذه المحاضرة. هل سبب ذلك أنني انتقلت إلى غرفة يمكنني أن أتفرغ فيها لدراستي دون أن يلهيني أو يصرف انتباهي أحد، وحيث أستطيع أن أنام لفترة تكفيني لكي أقوم بعملي على أكمل وجه. إني لم أرتكب أي مخالفة. ولديّ كلّ الحقّ في أن أقيم علاقات اجتماعية مع أي شخص، أو لا أقيم أي علاقة بالطريقة التي تلائمني. هذا كل ما في الأمر. لا يهمني إن كانت الغرفة حارة أم باردة، إن هذا لا يقلقني. لا يهمني إن كانت مليئة بالذباب. ليست هذه هي النقطة المهمة بالنسبة لي! كما يجب أن أوّجه انتباهك إلى أن حجّتك ضد برتراند راسل، ضدّ أفكاره، لم تكن تستند إلى العقل وتقارع الفكر بالفكر، بل إنها حجّة موجهة ضدّ شخصه هو، وتدعو إلى التحامل والتحيز، بمعنى آخر، إنها هجوم شخصي، عديم القيمة من الناحية المنطقية. سيدي، إني أطلب بكل احترام أن أحصل على إذن منك وأن أغادر الآن، لأنني بدأت أشعر بالغثيان، وأشعر بأني سأتقيأ إن لم أفعل ذلك».

«بالطبع يمكنك أن تغادر. بهذه الطريقة تعالج جميع الصعوبات

Twitter: @ketab_n

التي تعترضك، يا ماركوس - أن تغادر. ألم يخطر لك ذلك من قبل؟». وبابتسامة أخرى من ابتساماته التي بدأ النفاق يذوي فيها، أضاف: «أنا آسف إن كنت قد أضعت وقتك».

نهض من وراء طاولته، وهكذا، وبموافقته الظاهرة، نهضت من على الكرسي أيضاً، هذه المرة لكي أغادر، لكن دون أن ألقي الطلقة الأخيرة حتى أعيد الحقائق إلى نصابها. «إني لا أعالج مصاعبي بالمغادرة. أذكر أنك قلت إني أحاول أن أفتح عقلك على برتراند راسل. إني أعارض قولك هذا بقوة أيها المشرف كودويل».

«حسناً، على الأقل تغلّبنا على كلمة 'يا سيدي' أخيراً... أوه، يا ماركوس»، قال وهو يودعني إلى الباب، «وماذا عن الرياضة؟ يقول التقرير هنا إنك كنت تلعب في فريق البيسبول في السنة الأولى. لذلك على الأقل، أفهم بأنك تؤمن بالبيسبول. في أي مركز كنت تلعب؟».

«لاعب ثان».

«وتريد أن تشارك في فريق البيسبول في جامعتنا؟».

«كنت ألعب الكرة في السنة الأولى في كليّة في مدينة صغيرة جداً في مدينتي. كان بوسع أي شخص يريد أن يشارك أن يفعل ذلك. كان هناك لاعبون في الفريق لم يلعبوا الكرة قط عندما كانوا في المدرسة الثانوية. لا أظن أني سأكون لاعباً جيداً في الفريق هنا. سيكون إلقاء الكرة أسرع مما اعتدت عليه، ولا أظن أن طريقة إمساكي بالمضرب، كما كنت أفعل عندما كنت عضواً في الفريق في سنتي الأولى في مدينتي، ستحلّ مشكلتي في قذف الكرة في هذا المستوى من المنافسة. لعلي أستطيع أن أقف في الملعب، لكني أشكّ في أني سأكون مؤهلاً لذلك».

«إذاً ما أفهمه أنك تريد أن تقول إنك لن تلعب البيسبول بسبب المنافسة؟»

Twitter: @ketab_n

فانفجرت قائلاً: «لا يا سيدي! لن أنضم إلى الفريق لأنني شخص واقعي من حيث فرصي بالنجاح في الفريق! ولا أريد أن أضيّع وقتي عندما يكون أمامي كلّ هذه الدراسة! سيدي، أشعر بأني سأتقيّأ. قلت لك إني سأفعل ذلك. إنه ليس ذنبي. ها هي تأتي، إني آسف!».

ثم تقيّأت، ومن حسن الحظ أني لم أتقيّأ على المشرف أو على طاولته. خفضت رأسي، وتقيّأت بقوة على السجادة؛ وعندما حاولت أن أتفادى السجادة، تقيّأت على الكرسي الذي كنت جالساً عليه، وعندما ابتعدت عن الكرسي، تقيّأت على زجاج إحدى الصور المؤطّرة المعلقة على جدار مكتب المشرف، اللوحة التي تصور فريق كرة القدم الذي فاز ببطولة واينزبيرغ في عام ١٩٢٤.

لم تكن لديّ الرغبة في أن أتشاجر مع المشرف على الطلاب الذكور، كما لم تكن لدي الرغبة في أن أتشاجر مع أبي أو مع رفاقي في الغرفة. ومع ذلك فقد كنت أُزج زجاً في المشاجرة.

طلب المشرف من سكرتيرته مرافقتي إلى باب حمّام الرجال في البهو. وما إن دخلت إلى الحمّام وأصبحت وحدي، حتى غسلت وجهي وتغرغرت بالماء الذي رحت أغرفه بيدي من تحت الحنفية. بصقت الماء في المغسلة حتى لم أعد أشعر بأي أثر للقيء في فمي أو في حنجرتي، ثم بللت مناشف ورقية بالماء الحار، ونظفت كل ما تساقط على كنزتي وبنطالي وحذائي بقدر ما أمكنني. ثم انحنيت على المغسلة ونظرت في المرآة إلى الفم الذي لم أستطع أن أغلقه. أطبقت على أسناني بإحكام إلى حد أن عظم فكّي بدأ يخفق ألماً. لماذا كان علي أن أذكر الكنيسة؟ إن الكنيسة انضباط وتهذيب، قلت لعينيّ اللتين بدتا، لدهشتي، خائفتين إلى درجة لا تصدق. اعتبر كنيستهم جزءاً من العمل الذي يتعين عليك أن تقوم به لكي تجتاز هذا المكان كطالب

Twitter: @ketab_n

متفوّق ـ كما كنت تقوم بنزع أحشاء الدجاج. كان كودويل مصيباً عندما قال إنك حيثما ذهبت ستجد دائماً شيئاً يجعلك تفقد رشدك ـ أبوك، رفاقك في الغرفة، اضطرارك إلى حضور الكنيسة أربعين مرة كي تتوقّف عن التفكير بالانتقال إلى جامعة أخرى، وأن تتخرج بتفوق!

وعندما أصبحت جاهزاً لمغادرة الحمّام لحضور درس الحكومة الأمريكية، انتابتني نوبة أخرى من القيء، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت الذرات الصغيرة عالقة بحواف نعل حذائي. خلعت حذائي ووقفت بجوربي على حافة المغسلة، ورحت أنظّف بقايا القيء وآثار الرائحة بالصابون والماء والمناشف الورقية. حتى إني خلعت جوربي ورفعته إلى أنفي. في هذه الأثناء دخل طالبان ليستخدما المباول. لم أفه بكلمة، لم أوضّح لهما شيئاً، بل عدت وارتديت جوربي، وحشرت قدميَّ في حذائي، وعقدت رباط الحذاء، وغادرت. *بهذه الطريقة تعالج جميع صعوباتك، يا ماركوس - إنك تغادر. ألم يخطر لك ذلك من قبل؟*

خرجت ووجدت نفسي في الحرم الجامعي الجميل في يوم مشمس رائع، يوم عظيم آخر من أيام الخريف، كلّ شيء حولي يعلن بمنتهى السعادة، «استمتعوا بدفء الحياة! إنكم شباب مفعمون بالنشوة!». وبشيء من الحسد رحت أرمق الطلاب الآخرين وهم يمشون في الدروب المبلطة بالآجر مجتازين المرج الأخضر المربع الشكل. لماذا لا أستطيع مشاركتهم المتعة التي يستمدونها من عظمة جامعة صغيرة تلبي جميع احتياجاتهم؟ ولماذا أدخل في نزاع مع الجميع؟ لقد بدأ ذلك في البيت مع أبي، ولحقني حتى هنا. في البداية كان فلوسير، ثم إلوين، ثم كودويل. في من يكمن العيب، فيهم أم فيّ؟ كيف أوقعت نفسي في مشاكل بهذه السرعة، أنا الذي لم أقع في أي مشكلة في حياتي؟ ولماذا أبحث عن مزيد من المشاكل

Twitter: @ketab_n

بكتابة رسائل مليئة بالتزلف إلى فتاة كانت قد حاولت الانتحار منذ سنة فقط بقطع شرايين رسغيها؟

جلست على مقعد في الحديقة وفتحت دفتري وبدأت أكتب على صفحة فارغة ثانية. «أرجوكِ أجيبيني عندما أكتب لك. فأنا لا أقوى على تحمل صمتك». كان الطقس رائعاً والجامعة جميلة إلى درجة أني لم أعد أستطيع أن أتحمّل صمت أوليفيا. كان كلّ شيء جميلاً للغاية، وأنا شاب صغير كل همه أن يكون طالباً متفوّقاً! ثم واصلت الكتابة: «أشعر بأنني على وشك أن أحزم أغراضي وأغادر هذا المكان بسبب حضور الكنيسة. أريد أن أكلمك عن هذا الأمر. هل أنا أحمق؟ إنك تتساءلين كيف جئت إلى هنا أصلاً؟ لماذا اخترت واينزبيرغ؟ أخجل من إخبارك السبب. فقد خرجت للتو من مقابلة فظيعة مع المشرف على قسم الطلاب الذكور، الذي يحشر أنفه في شؤوني بطريقة لا أظن أنه يحق له أن يفعل ذلك. لا، لم يكن الأمر يتعلق بك، أو بنا. إنه يتعلق بانتقالي إلى مبنى نيل هول». ثم استلّيت الصفحة من الدفتر بعنف كما لو كنت أنا أبي، ومزّقتها إلى قطع صغيرة، ووضعتها في جيب بنطالي. «بنا»، لم يكن ثمة شيء يتعلّق بنا نحن الاثنين!

كنت أرتدي بنطالاً رمادي اللون ذا ثنيات، وقميص رياضة ذا مربعات، وكنزة كستنائية اللون مفتوحة الرقبة، وحذاء جلدياً أبيض. كانت نفس الثياب التي كان يرتديها الفتى المصوّر على غلاف دليل واينزبيرغ الذي أرسلوه لي بالبريد، مع استمارات طلبات التقدم إلى الجامعة. في الصورة، كان الفتى يمشي إلى جانب فتاة ترتدي بلوزة من قطعتين، وتنورة طويلة غامقة، وجوارب قطنية بيضاء ملتفة إلى الأسفل، وحذاء يلمع. كانت تبتسم له وهما يسيران جنباً إلى جنب، وكأنه يقول لها شيئاً ذكياً. لماذا اخترت واينزبيرغ؟ أبسبب تلك

Twitter: @ketab_n

الصورة! كانت هناك أشجار كبيرة مورقة على جانبي الطالبين السعيدين اللذين كانا يسيران فوق تلّ يكسوه العشب، وعلى مسافة بعيدة منهما كانت تنتصب مبان مشيدة من الآجر يغطيها نبات اللبلاب، وكانت الفتاة تبتسم للفتى ابتسامة تنم عن التقدير، وكان الفتى يبدو واثقاً من نفسه وسعيداً وهو يسير إلى جانبها، إلى درجة أنني ملأت الاستمارة على الفور وأرسلتها، وقبلوني خلال أسابيع قليلة. ودون أن أخبر أحداً، سحبت من حساب التوفير خاصتي مائة دولار كنت قد وفرتها من الأجر الذي كان يدفعه لي أبي لقاء عملي معه، وبعد أن بدأت دروسي، ذهبت ذات يوم إلى شارع السوق ودخلت إلى أكبر مخزن في المدينة واشتريت من المحل التابع للجامعة نفس البنطال والقميص والحذاء والكنزة التي كان يرتديها الفتى في الصورة. وجلبت معي دليل الجامعة إلى المخزن؛ كان مبلغ المائة دولار ثروة جيدة، ولم أكن أريد أن أرتكب أي خطأ. واشتريت أيضاً سترة من قماش التويد. وفي النهاية لم يبق معي سوى مبلغ صغير يكفيني لأن أستقل الحافلة للعودة إلى البيت.

حرصت على أن أجلب علب الثياب التي اشتريتها إلى البيت عندما عرفت أن والديَّ كانا يعملان في الدكان. لم أشأ أن يعرفا أني اشتريت هذه الثياب. لم أكن أريد أن يعرف أحد ذلك. فلم تكن هذه الثياب شيئاً بالمقارنة مع الثياب التي يرتديها الرجال في روبرت تريت. إذ كنا نرتدي ذات الثياب التي كنا نرتديها في المدرسة الثانوية. فلم يكن من الممكن الحصول على زيّ جديد للذهاب إلى روبرت تريت. وعندما كنت وحدي في البيت، فتحت العلب، وفردت الثياب على السرير لأرى كيف تبدو. رتبتها في الأماكن التي سأرتديها فيها - القميص، الكنزة، السترة في الأعلى، البنطال في الأسفل، والحذاء بالقرب من قدم السرير. ثم خلعت كل ما كنت أرتديه وكومته عند

Twitter: @ketab_n

قدمي مثل كومة من الخرق، وارتديت الثياب الجديدة وتوجهت إلى الحمّام حيث وقفت فوق مقعد المرحاض بعد أن أنزلت غطاءه، وهكذا أصبح بإمكاني أن أرى جزءاً من نفسي في مرآة صندوق الأدوية أكثر مما سأتمكن من رؤيته لو وقفت على الأرضية المكسوة بالبلاط وأنا أنتعل حذائي الجلدي الجديد المائل إلى اللون الرمادي بكعبيه ونعليه المصنوعين من المطاط الوردي اللون. وكان للسترة شقّان قصيران، شق على كل جانب من الخلف. لم تكن عندي سترة كهذه من قبل. في الماضي كانت توجد لديّ سترتان رياضيتان، كان والداي قد اشتريا لي واحدة منهما بمناسبة عيد بلوغي في عام ١٩٤٥، والأخرى بمناسبة تخرّجي من الثانوية في سنة ١٩٥٠. وبحرص شديد استدرت فوق غطاء مقعد المرحاض محاولاً أن ألقي نظرة إلى ظهري لرؤية السترة ذات الشقين. وضعت يديّ في جيبيّ بنطالي لأبدو شخصاً لا مبالياً. ثم نزلت وعدت إلى غرفة النوم، وخلعت الثياب وأعدتها إلى صناديقها وخبأتها خلف الخزانة في غرفة نومي وراء مضرب البيسبول والقفازات، وكرة البيسبول القديمة المهترئة. ولم أكن أنوي أن أخبر والديّ بأني اشتريت هذه الثياب الجديدة، وبالتأكيد، لم أكن أنوي أن أرتديها أمام أصدقائي في روبرت تريت. كنت سأكتم هذا السرّ إلى أن أصل إلى واينزبيرغ. الثياب التي اشتريتها لكي أغادر البيت بها. الثياب التي اشتريتها لأبدأ بها حياة جديدة. الثياب التي اشتريتها لأصبح رجلاً جديداً فيها، ولكي أنهي حياتي كابن الجزّار.

حسناً، كانت تلك الثياب هي نفس الثياب التي تقيّأت عليها في مكتب كودويل. كانت تلك الثياب نفسها التي كنت أرتديها عندما كنت أجلس في الكنيسة لأتعلم كيف أعيش حياة جيدة وفق التعاليم الإنجيلية، وحيث كنت أردد في داخلي النشيد الوطني الصيني. كانت

Twitter: @ketab_n

هي الثياب نفسها التي كنت أرتديها عندما لكمني رفيقي في الغرفة إلوين تلك اللكمة التي كادت تحطم فكّي. كانت هي الثياب نفسها التي كنت أرتديها عندما ألقت أوليفيا نفسها عليّ في سيارة إلوين «لا سال». نعم، هناك صورة الفتى والفتاة التي يجب أن تزيّن غلاف دليل واينزبيرغ: أنا في تلك الثياب التي كنت أرتديها عندما مصت أوليفيا قضيبي ولم أكن أعرف ماذا أفعل.

«إنك لا تبدو على ما يرام يا ماركوس. هل كل شيء على ما يرام؟ هل لي أن أجلس؟»

كان سوني كوتلر يقف فوقي، مرتدياً نفس الثياب التي أرتديها، إلا أن كنزته لم تكن كنزة كستنائية عادية، بل كستنائية ورمادية اللون مطبوع عليها كلمة واينزبيرغ، كان قد فاز بها في إحدى مباريات كرة السلة في الجامعة. هذا أيضاً. فقد بدا لي أن السهولة التي كان يرتدي بها ثيابه امتداد بطريقة ما للصوت العميق المفعم بالسلطة والثقة. نوع هادئ من القوة الخالية من الهموم، قوة منيعة تنضح منه، نفرتني وجذبتني في آن معاً، ربما لأنها صعقتني، على نحو عقلاني أم لا، لأنها كانت متأصلة في التواضع. إن مظهره الذي كان يبدو كاملاً ولّد فيّ الانطباع بأنه شخص ضعيف في كل شيء. لكن قد تكون هذه الانطباعات ناجمة عن مشاعر الحسد والرهبة التي تتملك طالباً في السنة الثانية في الجامعة.

أجبت «طبعاً. بالتأكيد. اجلس».

قال: «تبدو وكأنك خارج من الحلبة».

بالطبع، كان يبدو وكأنه قد أنهى تصوير مشهد في استوديوات مترو غولدوين ماير أمام آفا غاردنر. «لقد استدعاني المشرف. شجر بيننا خلاف في الرأي. حدثت مشادة كلامية بيننا». أغلق فمك، قلت

Twitter: @ketab_n

لنفسي. لماذا أخبره؟ لكن عليّ أن أخبر أحداً، أليس كذلك؟ يجب أن أكلّم أحداً في هذا المكان، ولم يكن كوتلر بالضرورة شخصاً سيئاً، لأن أبي رتّب معه أن يأتي لزيارتي في غرفتي. في جميع الأحوال، كنت أشعر بأن الجميع يسيئون فهمي إلى درجة أنني أردت أن أرفع رأسي نحو السماء وأعوي مثل كلب.

بقدر ما أمكنني من التماسك والهدوء، حدثته عن الجدال الذي دار بيني وبين المشرف بشأن حضور الكنيسة.

سألني كوتلر، «لكن من يذهب إلى الكنيسة؟ يمكنك أن تدفع لأحد ما مبلغاً من المال ولا تضطر إلى الاقتراب من الكنيسة».

«هل هذا ما تفعله؟».

ضحك بهدوء، وقال: «وماذا أفعل غير ذلك؟ كنت أذهب عندما كنت في السنة الأولى. كان ذلك عندما كانوا يحضرون حاخاماً. كانوا يأتون بكاهن كاثوليكي مرة في كلّ فصل دراسي، ويأتون بحاخام من كليفلاند مرة في كلّ سنة. وفي الأوقات الأخرى، كان يأتي الدكتور دونيهاوير ومفكّرون آخرون كبار من أوهايو. إن تكريس الحاخام الشديد لمفهوم الشفقة كان كافياً لشفائي من الذهاب إلى الكنيسة إلى الأبد».

«وكم تدفع؟».

«إلى شخص ينوب عنك؟ دولاران عن كل مرّة. إنه مبلغ ضئيل».

«أربعون مرّة بدولارين تساوي ثمانين دولاراً. أهذا لا شيء؟».

فقال: «انظر. تصوّر نفسك أنك تمضي خمس عشرة دقيقة وأنت تهبط التلّ، ثم تعود وتصعدها متوجهاً إلى الكنيسة. وإن كنت جاداً، فلا تستهن بذهابك إلى هناك. لا تستهن بأي شيء. بدلاً من أن تمضي ساعة وأنت تستشيط غضباً في الكنيسة، ثم تمضي خمس

Twitter: @ketab_n

عشرة دقيقة أخرى وأنت تتميز غضباً وأنت عائد إلى غرفتك، تصبح تسعين دقيقة. تسعون مرة ضرب أربعين يساوي ستين ساعة من الغضب. هذا لا شيء أيضاً».

«كيف يمكنك أن تجد الشخص الذي تدفع له؟ اشرح لي كيف تسير الأمور».

«يأخذ الشخص الذي سينوب عنك البطاقة التي يعطيها له الدليل الذي يقف عند الباب عندما يدخل، ثم يعيدها موقّعة باسمك عندما يخرج. هذا كل ما في الأمر. هل تظن أنه يوجد خبير في الخطوط يدقق في كلّ بطاقة في المكتب الصغير الذي يحتفظون فيه بالسجلات؟ إنهم يضعون إشارة على اسمك في السجل، وهذا كل شيء. في السابق كانوا يخصّصون لك مقعداً، وكان هناك مراقب يعرف وجه كلّ شخص، يتمشّى جيئة وذهاباً في الممرات ليتفقد الطلاب الغائبين. آنذاك كان الأمر مستحيلاً. لكنهم غيّروا النظام بعد الحرب، لذلك كل ما عليك أن تفعله الآن هو أن تدفع لشخص ما كي يحلّ مكانك».

«لكن من هو ذاك الشخص؟».

«أي شخص. أي شخص أنهى الأربعين حصة في الكنيسة. إنك تعمل نادلاً في الحانة، وشخص آخر يأخذ مكانك في الكنيسة الميثودية. سأجد لك أحداً إذا أردت. بل يمكنني أن أحاول أن أجد لك شخصاً يتقاضى أقل من دولارين».

«وإذا تكلّم هذا الشخص؟ فهم يطردونك».

«لم أسمع قط أحداً تفوه بذلك. إنه عمل تجاري يا ماركوس. إنه ترتيب بسيط».

«لكن من المؤكد أن كودويل يعرف هذا الأمر».

«إن كودويل أكثر الأشخاص تديناً في هذا المكان. إنه لا يستطيع

Twitter: @ketab_n

أن يتخيّل لماذا لا يحب الطلاب الاستماع إلى الدكتور دونيهاوير بدلاً من قضاء ساعة كلّ يوم أربعاء من وقتهم وهم يستمنون في غرفهم. أوه، لقد ارتكبت خطأ كبيراً عندما أثرت مع كودويل موضوع الكنيسة. إن هاويس د. كودويل يعبد هذا المكان. إنه أعظم ظهير مساعد في كرة القدم، أعظم لاعب في البيسبول، أعظم لاعب في الوسط في كرة السلة، أعظم داعية على وجه الأرض لتقاليد وعادات واينزبيرغ. انتقد التقاليد السائدة في واينزبيرغ أمام هذا الرجل وسيجعل منك كتلة لا شكل لها. أتذكر ركلة كرة البيسبول، تلك الركلة الرائعة القديمة؟ إن لدى كودويل أكبر سجلّ في عدد الركلات في سجل واينزبيرغ في موسم واحد. أتعرف ماذا كان يسمي تلك الركلات؟ 'ركلة كرمى للسيد المسيح'. ما إن تقترب من هؤلاء الأشخاص التافهين يا ماركوس، حتى يحدث شيء في واينزبيرغ. أغلق فمك، واحم مؤخرتك، ابتسم، ثم أفعل ما تشاء. لا تأخذ الأمور بشكل شخصي، لا تأخذ كلّ شيء بجدية، ويمكن أن تجد أن هذا ليس أسوأ مكان في العالم تمضي فيه أفضل سنوات حياتك. لقد جعلت ملكة عام ١٩٥١ تمص قضيبك. هذه بداية جيدة».

«لا أعرف عما تتكلم».

«هل تعني أنها لم تمصك؟ إنك شخص متميز».

قلت غاضباً: «لا أزال لا أعرف إلام تشير».

«إلى أوليفيا هوتون».

اعتمل الغضب في نفسي بسرعة، ذات الغضب الذي تملكني تجاه إلوين عندما أطلق على أوليفيا اسم «كس». «الآن لماذا تقول ذلك عن أوليفيا هوتون؟».

«لأن المصّ شيء رائع في شمال وسط أوهايو. لقد انتشر خبر أوليفيا بسرعة. لا تبدو مضطرباً هكذا».

Twitter: @ketab_n

«لا أصدق هذا».

«يجب أن تصدق. إن الآنسة هوتون مخبولة بعض الشيء».

«الآن، لماذا تقول هذا؟ لقد ذهبنا معاً».

«وأنا أيضاً».

صعقني ذلك. وَثَبْتُ واقفاً من فوق المقعد. حالة من الدوار والتشويش بما كان يدور هناك (أو لم يكن) في داخلي الذي جعل علاقاتي مع الآخرين محبطة إلى درجة كبيرة، جعلتني أهرب من سوني كوتلر وأهرع إلى درس الحكومة الأمريكية. كانت الكلمات الأخيرة لا تزال تطن في أذني: «انسحب يا أحمق. حسناً؟ لنقل إنها فتاة غريبة الأطوار، وتجيد ممارسة الجنس بطريقة استثنائية، حسناً؟ ماركوس؟ مارك؟».

عاودني التقيؤ في تلك الليلة، مصحوباً بألم في المعدة وبإسهال، وعندما أدركت أخيراً أنني مريض بشيء آخر غير لقائي مع المشرف كودويل، شققت طريقي عندما طلع الفجر إلى المستوصف الصحي للطلاب. وقبل أن تتمكن الممرضة المناوبة من سؤالي عن حالتي، هرعت إلى دورة المياه. ثم خصصوا لي سريراً. وفي الساعة السابعة فحصني طبيب الجامعة، وفي الساعة الثامنة كنت في سيارة إسعاف متجهة إلى مستشفى المدينة الذي يبعد خمسة وعشرين ميلاً، وعند الظهر كانوا قد استأصلوا لي الزائدة الدودية.

كانت أوليفيا أول شخص يزورني. فقد جاءت في اليوم التالي، بعد أن عرفت من طلاب آخرين في فصل التاريخ بعد ظهر البارحة بأني أجريت عملية. دلفت إلى غرفتي من الباب الذي كان مفتوحاً قليلاً، بعد ثوان عديدة من إنهائي حديثي بالهاتف مع أبي وأمي اللذين كان قد اتصل بهما المشرف كودويل، بعد أن تقرر أنهم سيجرون لي

Twitter: @ketab_n

عميلة جراحية بسرعة في المستشفى. «نشكر الله أنه خطر لك أن تذهب إلى الطبيب»، قال أبي، «وأنهم أجروها في الوقت المناسب. نشكر الله أنه لم يحدث شيء فظيع»؛ «أبي، إنها مجرد الزائدة الدودية. لقد استأصلوها. هذا كلّ ما حدث»؛ «لكن لنفترض أنهم لم يتمكنوا من تشخيصها جيداً»؛ «لكنهم شخّصوها جيداً. كان كلّ شيء على ما يرام. سأخرج من المستشفى بعد أربعة أو خمسة أيام»؛ «لقد أجريت لك عملية عاجلة لاستئصال الزائدة الدودية. هل تفهم ماذا تعني عملية عاجلة؟»؛ «لكنها انتهت. ولا داعي لمزيد من القلق»؛ «يجب أن نقلق كثيراً عندما يتعلق الأمر بك».

هنا كان على أبي أن يتوقّف عن الكلام بسبب سعاله المتقطّع. بدا لي سعاله هذه المرة أسوأ من أي وقت مضى. وعندما أصبح قادراً على متابعة حديثه، سألني: «لماذا سيخرجونك بهذه السرعة؟»؛ «إن أربعة أو خمسة أيام تكفي وهذا أمر طبيعي. لا داعي لبقائي في المستشفى أكثر من ذلك»؛ «سآتي بالقطار لأزورك بعد أن تخرج من المستشفى. سأغلق المحل وسآتي إليك»؛ «لا، يا أبي. لا تتكلم بهذه الطريقة. إني أقدّر لك مجيئك، لكنني سأكون على ما يرام في مساكن الطلاب»؛ «ومن سيعتني بك هناك؟ يجب أن تتعافى في بيتك، مكانك الطبيعي. لا أفهم لماذا لا تصرّ الجامعة على ذلك. كيف يمكنك أن تتعافى وأنت بعيد عن بيتك ولا يوجد أحد يرعاك ويعتني بك؟»؛ «لكنني أتمتع بصحة جيدة وأصبحت قادراً على المشي. أنا بخير»؛ «كم يبعد المستشفى عن الجامعة؟»؛ شعرت بالرغبة في القول: «سبعة عشر ألف ميل»، لكنه أخذ يسعل أيضاً وشعرت بالألم من أن أسخر منه، فقلت: «أقل من نصف ساعة بسيارة الإسعاف، إنه مستشفى ممتاز»؛ «ألا يوجد مستشفى في واينزبيرغ نفسها؟ هل أفهمك جيداً؟»؛ «أبي، أعطني ماما لأكلّمها. إن هذا ليس جيداً من أجل

Twitter: @ketab_n

صحتي. ولا من أجل صحتك أيضاً. إنك تبدو في حالة مزرية»؛ «هل أبدو أنا في حالة مزرية؟ أنت الذي يرقد في المستشفى على بعد أميال عن البيت»؛ «أرجوك دعني أكلّم ماما». عندما جاءت أمّي، طلبت منها أن تهدئ من روعه، وإلا فإني سأتحول إلى جامعة في القطب الشمالي حيث لا توجد هواتف، ولا مستشفيات، ولا أطباء، بل توجد دببة قطبية فقط تمشي على الجليد الذي يطوف فوق سطح الماء، وحيث يكون الطلاب عراة في درجات حرارة تحت الصفر»؛ «ماركوس، كفى. سآتي لأراك»؛ «لكن لا توجد ضرورة للمجيء، لا حاجة لأن يأتي أحد منكما. كانت عملية سهلة، وانتهى كل شيء، وأنا بخير». فقالت هامسة: «أعرف ذلك. لكن أباك مصرّ على المجيء. سأغادر هنا في قطار ليلة السبت. وإلا لن يغمض جفن لأحد في هذا البيت مرة أخرى».

أوليفيا. ما إن وضعت السماعة بعد أن أنهيت حديثي مع أمّي حتى كانت أمامي. كانت تحمل بيديها باقة ورد. حملتها إلى حيث كنت أسند رأسي على السرير.

قالت: «ليس من الجيد أن يكون المرء وحيداً في المستشفى، لذلك أحضرت لك هذه لتكون برفقتك».

أجبت، «إذاً كان من الجيد أن أصاب بالتهاب الزائدة الدودية».

«أشكّ في ذلك»، قالت، «هل كنت مريضاً جداً؟».

«في أقل من يوم. وقع أسوأ جزء منه في مكتب المشرف كودويل. إذ استدعاني لاستجوابي لأنني غيّرت غرفتي في مساكن الطلاب، وتقيّأت فوق الجوائز التي فاز بها. كانت حالة شديدة من التهاب الزائدة الدودية».

«دعني أحضر مزهرية لأضع هذه».

Twitter: @ketab_n

«ما هي؟».

«ألا تعرف؟» قالت، وقرّبت الباقة من أنفي.

«أعرف الخرسانة. أعرف الإسفلت. لكني لا أعرف الأزهار».

«إنها تدعى ورود يا عزيزي».

عندما عادت إلى الغرفة، أخرجت الورود من غلافها الورقي، ورتّبتها في مزهرية زجاجية ممتلئ نصفها بالماء.

«في أي مكان يمكنك أن تراها بشكل أفضل؟»، سألتني، وهي تتطلع في أرجاء الغرفة، التي كانت بالرغم من صغرها، أكبر وأكثر إضاءة من الغرفة التي كنت أقيم فيها في مبنى نيل هول. ففي نيل هول لم تكن هناك سوى نافذة صغيرة في الأعلى في الإفريز، بينما توجد هنا نافذتان واسعتان، تطلان على مرج معتنى به جيداً، حيث كان هناك شخص يجر آلة لجزّ العشب ويجمع الأوراق المتساقطة في كومة ليحرقها. كان ذلك يوم الجمعة، ٢٦ تشرين الأول ١٩٥١. وكان قد مضى على الحرب الكورية سنة وأربعة أشهر ويوم واحد.

قلت: «إن أجمل مكان أراها فيه هو في يديك. أراها أجمل عندما تقفين هناك. البثي واقفة هناك ودعيني أنظر إليك وإلى ورداتك. لهذا السبب أتيت إلى هنا»، لكني عندما قلت «يديك» تذكّرت ما قاله لي سوني كوتلر عنها، ومرة أخرى اشتعل الغضب في داخلي، موجهاً نحو كوتلر وأوليفيا معاً. لكن، ومع ذلك، فقد انتصب قضيبي.

سألتني: «ماذا يقدمون لك من طعام؟».

«هلام وشراب الزنجبيل. غداً سيبدأون تقديم القواقع».

«تبدو منتعشاً وسعيداً».

كانت في غاية الجمال! كيف يمكنها أن تمص قضيب سوني كوتلر؟ لكن كيف يمكنها أن تمصني أنا أيضاً؟ فإذا كان قد رافقها مرة

Twitter: @ketab_n

واحدة فقط، فإنها ستمصه في اللقاء الأول أيضاً. أيضاً، عذاب تلك الـ «أيضاً»!

«انظري» قلت، وسحبت الشراشف. باحتشام، خفضت رموشها، «وماذا يحدث يا سيدي، إذا دخل أحدهم؟».

لم أستطع أن أصدق أن هذا ما قالته، لكني لم أستطع أن أصدق ما فعلته. هل هي التي جعلتني جريئاً هكذا، أم أنا الذي شجّعها، أم أن أحدنا شجّع الآخر؟

«هل الجرح ينزف؟» سألت، «هل ذلك الأنبوب المعلّق هناك أنبوب تصريف؟».

«لا أعرف. أظن ذلك».

«وماذا عن القُطَب؟»

«هذه مستشفى، وما هو أفضل مكان غير هذا يمكن للمرء أن يكون فيه عندما يزيلون القُطَب؟».

كان ثمة إثارة جنسية خفيفة في طريقة مشيتها عندما اقتربت من السرير ببطء مشيرة بإصبعها إلى انتصابي، وما أن اقتربت مني وأصبحت بجانبي، حتى قالت: «إنك غريب الأطوار، كما تعرف. غريب جداً. أغرب مما أظن أنك تدرك».

«لقد أصبحت غريب الأطوار بعد أن استأصلوا لي الزائدة الدودية».

«أتصبح دائماً ضخماً هكذا عندما يستأصلون لك الزائدة الدودية؟».

«إنه لا يخيبني أبداً». ضخم. لقد قالت ضخم. هل هو كذلك؟

«طبعاً يجب ألا نفعل ذلك»، همست بمكر وهي تلفّ أصابعها حول قضيبي، «قد نُطرد كلانا من الجامعة إذا عرفوا بأمرنا».

«إذاً توقّفي!» همست، مدركاً أنها، بالطبع، كانت محقّة - هذا

Twitter: @ketab_n

تماماً ما سيحدث: إذ إنهم سيكتشفون أمرنا، وسيطردوننا من الجامعة، وعندها ستعود هي إلى بلدتها في هانتينغ فالي يغمرها شعور بالخزي، وأذهب أنا إلى الجندية وأُقتل.

لكن لم يتح لها الوقت لكي تتوقف، بل حتى لم يتح لها الوقت لكي تبدأ حقاً، لأنني كنت قد قذفت للتو عالياً في الهواء، وانهمر السائل المنوي على ملاءات السرير، بينما راحت أوليفيا تردد بصوت جميل، «لقد رميت سهماً في الهواء/ وسقط على الأرض، لا أعرف أين»، في اللحظة التي دخلت فيها الممرضة من الباب لتأخذ درجة حرارتي.

كانت الممرضة امرأة عانساً في متوسط العمر، ذات شعر أشيب، مربوعة الشكل، تدعى الآنسة كليمنت. كانت تجسيداً للممرضة الرزينة، ذات الكلام المعسول من الطراز القديم - حتى أنها كانت تضع قلنسوة بيضاء منشّاة، بخلاف معظم الممرضات اللواتي يصغرنها في المستشفى. وعندما تعيّن عليّ أن أستعمل نونية السرير للمرة الأولى بعد العملية الجراحية، كانت تطمئنني بهدوء وتقول: «أنا هنا لكي أساعدك عندما تحتاج إلى مساعدة، وهذه هي المساعدة التي تحتاج إليها الآن، ولا داعي للشعور بالحرج»، وكانت طوال الوقت تجلسني على النونية برفق، ثم تنظّفني بورقة تواليت رطبة، ثم ترفع النونية، وتعيدني لأستلقي على السرير تحت الملاءات.

وهل كانت هذه هي مكافأتها لقيامها بتنظيف مؤخرتي برفق. ومكافأتي؟ فمن أجل تلك الحركة السريعة من يد أوليفيا، ستكون مكافأتي كوريا. ولا بد أن تكون الآنسة كليمنت الآن على الهاتف تكلّم المشرف كودويل، الذي سيتصل بأبي ليحدّثه عما حدث. وبسهولة تامة يمكنني أن أتخيّل أبي، فور سماعه هذا الخبر، وهو يهوي بساطور اللحم بقوة شديدة ويشقّ لوح تقطيع اللحم الذي تبلغ

Twitter: @ketab_n

سماكته أربعة أقدام والذي كان يقطع عليه بقرة كاملة.

«المعذرة»، دمدمت الآنسة كليمنت، وأغلقت الباب، واختفت. وبسرعة هرعت أوليفيا إلى الحمّام وعادت تحمل مناشف لتجفيف الأيدي، واحدة لملاءات السرير، وأخرى لي.

بصعوبة حاولت أن أتظاهر بهدوء رجولي، وسألت أوليفيا، «ماذا ستفعل الآن؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟».

«لا شيء»، أجابت أوليفيا.

«إنك تبدين رابطة الجأش على نحو كريه. أهذا كلّ ما لديك؟»

كان في صوتها بحة عندما أجابت، «ليس من الضروري أن تقول ذلك».

«أعتذر. أنا آسف. لكن هذا الأمر جديد عليّ».

«ألا تظن أنه جديد عليّ أنا أيضاً؟».

«وماذا عن سوني كوتلر؟».

«لا أظن أن هذا من شأنك»، ردّت.

«أليس من شأني؟».

«لا».

«إنك مستعدة لكلّ شيء»، قلت، «كيف عرفت أن الممرضة لن تفعل شيئاً؟».

«ستكون محرجة للغاية إذا فعلت أي شيء».

«انظري، كيف أصبحت هكذا؟».

«مثل ماذا؟» سألت أوليفيا، غاضبة الآن.

«خبيرة جداً».

«أوه، نعم، أوليفيا، الخبيرة»، قالت بحدّة، «هكذا كانوا يطلقون عليّ في عيادة مينينغير».

«لكنك كذلك. إنك تتمالكين نفسك».

Twitter: @ketab_n

«أتظن حقاً ذلك؟ أنا التي أمتلك ثمانية آلاف مزاج في الدقيقة الواحدة، وكل مزاج هو إعصار، من يمكنه أن يُرمى بكلمة، بلفظ بأنني 'تحت السيطرة'؟ يا إلهي إنك أعمى»، قالت وعادت إلى الحمّام حاملة المناشف.

جاءت أوليفيا بالحافلة إلى المستشفى في اليوم التالي - رحلة تستغرق خمسين دقيقة بالحافلة في كلّ اتجاه ـ وفي غرفتي كان يجري الشيء ذاته، كانت تنظف كل شيء بعد ذلك، وعندما تدخل إلى الحمّام لكي تتخلّص من المناشف، كانت تغيّر الماء في المزهرية لكي تظل الورود نضرة.

وبدأت الآنسة كليمنت ترعاني من دون أن تتكلم. وبالرغم من طمأنة أوليفيا لي، لم أصدق أنها لن تخبر أحداً، وأنني سأرى نتيجة ذلك عندما أغادر المستشفى وأعود إلى الكلية. كنت واثقاً من أن كارثة كبيرة ستقع لأنه لا بد أن أبي أصبح يعرف بأنني على اتصال جنسي مع أوليفيا في غرفتي في المستشفى.

كانت أوليفيا مشدوهة لأني ابن جزّار. وكان يبدو لها أن كوني ابن جزّار أهم بكثير من عدم اهتمامي بها لكونها ابنة طبيب. فلم يسبق لي أن واعدت ابنة طبيب. وفي معظم الأحيان، كان آباء الفتيات اللواتي كنت أعرفهن يملكون محلات في الحيّ، كما هو حال أبي، أو كانوا باعة يبيعون ربطات عنق أو ألواح ألمنيوم أو بوالص تأمين على الحياة، أو كانوا حرفيين، كهربائيين، سبّاكين، وما إلى ذلك. وفي المستشفى، وما إن قذفت واعترتني رعشة قوية، حتى سألتني عن الدكان، وبسرعة أتتني الفكرة: فقد كنت بالنسبة لها شيئاً يشبه ابن ساحر أفاعٍ أو لاعباً في سيرك يسير على الحبال. قالت: «زدني حديثاً. أريد أن أسمع المزيد»؛ فسألتها: «لماذا؟» فأجابت: «لأني لا

Twitter: @ketab_n

أعرف شيئاً عن هذه الأشياء، ولأني أحبّك كثيراً. أريد أن أعرف كلّ شيء عنك. أريد أن أعرف ما الأشياء التي صنعتك يا ماركوس».

«حسناً، إن الدكان هو الذي صنعني، إذا كان هناك أي شيء قد صنعني، مع أني لا أعرف ما هي تلك الأشياء بالتحديد. لقد أصبحت مشوشاً وفي حالة عقلية مضطربة منذ أن جئت إلى هذا المكان».

«إن الدكان هي التي جعلتك إنساناً مجتهداً. جعلتك إنساناً صادقاً، ومنحتك الاستقامة».

فقلت: «صحيح؟ دكان الجزّار؟».

«بالتأكيد».

فقلت: «حسناً، إذاً دعيني أحدثّك عن الرجل البدين. دعيني أحدثّك ما الذي منحني إياه في طريق الاستقامة. سنبدأ به».

«رائع. وقت الحكاية. الرجل البدين وكيف منح ماركوس الاستقامة»، ضحكت. كانت ضحكة طفل يُدغدغ. لم يكن فيها شيء غير عادي، ومع ذلك سحرتني كما لم يسحرني شيء آخر.

«حسناً، كان هناك رجل بدين يأتي كلّ يوم جمعة ويأخذ كمية الدهن كلها. ربما كان له اسم، وربما لم يكن له اسم أيضاً. كان يدعى الرجل البدين فقط. كان يأتي مرة في الأسبوع ويقول: 'الرجل البدين هنا'، وأبدأ بوزن كل ما لدينا من الدهن، ويدفع ثمنها لأبي ويأخذها. كنا نضع الدهن في دلو للقمامة، دلو عادي يتسع لخمسة وخمسين غالوناً، بهذا الارتفاع، وكنا نلقي بالدهن في الدلو بعد تقطيع اللحم. وقبل العطل اليهودية، عندما يشتري الناس كميات كبيرة من اللحم، كان من الممكن أن يتكوم دلوان ممتلئان. لم يكن الرجل البدين يدفع نقوداً كثيرة. دولاران في الأسبوع فقط. حسناً، كان محلنا يقع بالقرب من الزاوية حيث تتوقّف الحافلة المتجهة إلى وسط المدينة، الحافلة رقم ثمانية ليونز أفنيو. وفي أيام الجمعة، وبعد أن

Twitter: @ketab_n

يأخذ الرجل البدين الدهن، كان يترك وراءه علب القمامة، وكان عليّ أن أنظّفها. ذات مرة، قالت لي إحدى الفتيات الجميلات من صفي في المدرسة: 'عندما كنت واقفة أنتظر الحافلة أمام محل أبيك، رأيتك وأنت تنظّف علب القمامة'، عندها هرعت إلى أبي وقلت له: 'إن هذا العمل يهدّم حياتي الاجتماعية. لا أستطيع أن أنظف علب القمامة بعد الآن'».

«هل كنت تنظّفها أمام المحل؟» سألت أوليفيا، «في الشارع؟»

فقلت: «وأين يمكنني أن أنظفها؟ كنت أحمل فرشاة تنظيف، ومنظف أجاكس، وألقي قليلاً من الماء مع منظف أجاكس، وأفركه من الداخل. وإذا لم أنظّفه جيداً، كانت تنبعث منه رائحة كريهة. تصبح رائحته زنخة. لكنك لا تريدين أن تسمعي هذه القصة».

«أريد. أريد».

«كنت أحسبك امرأة واسعة الاطلاع، لكنك في أشكال عديدة لا تزالين طفلة، أليس كذلك؟»

«طبعاً. ألا يعتبر ذلك انتصاراً في عمري؟ هل كنت تتوقع غير ذلك؟ هيا تابع. تغسل علب القمامة بعد أن يغادر الرجل البدين».

«حسناً، كنت أحضر دلواً من الماء، وأصبّه فيه، وأفركه، ثم أفرغه في البالوعة، ويتدفّق الماء فوق أحجار الشارع المستديرة، ويجرف معه كلّ أوساخ الشارع على الجانب، ثم يغيب في البالوعة عند ناصية الشارع. ثم أقوم بالعمل كله للمرة الثانية، لتصبح نظيفة».

«إذاً»، قالت أوليفيا، ضاحكة - لا، لم تكن تضحك، بل كانت تقضم إغواء ضحكة، «كنت تظن أنك لن تتمكن من التقاط الكثير من الفتيات بهذه الطريقة».

«لا. لذلك قلت للمعلّم - كنت أنادي أبي دائماً في الدكان بالمعلّم - قلت: 'يا معلمي، لا أستطيع أن أنظف علب القمامة هذه

Twitter: @ketab_n

بعد الآن. إذ تأتي الفتيات من مدرستي، ويتوقّفن أمام المحل ينتظرن الحافلة، ويشاهدنني أنظّف علب القمامة، وفي اليوم التالي يفترض بي أن أرافقهن إلى السينما ليلة السبت؟ يا معلمي، لا أستطيع أن أقوم بذلك' فقال لي: 'أأنت خجول؟ لماذا؟ مم تخجل؟ الشيء الوحيد الذي يجب أن تخجل منه هو السرقة. لا شيء آخر. نظّف علب القمامة'».

«يا له من شيء رائع»، قالت، وأسرتني الآن بضحكة مختلفة تماماً، ضحكة مفعمة بحبّ الحياة بجميع مباهجها غير المتوقّعة. في تلك اللحظة كان سيخيل لك أن أوليفيا كلها كانت تقبع في ضحكتها، بينما كانت في الواقع تكمن في ندبتها.

كم كان «رائعاً». فقد وجدت متعة كبيرة عندما حدثتها عن بيغ مينديلسون أيضاً، الذي كان يعمل مساعداً لأبي عندما كنت طفلاً صغيراً. «كان كلام بيغ مينديلسون بذيئاً»، قلت، «كان يعمل في الجزء الخلفي، في الثلاجة، لا في مقدمة المحل لخدمة الزبائن. كنت آنذاك في السابعة أو الثامنة من عمري، ولأنه كان يتمتع بهذا النوع البذيء من الدعابة، ولأنهم كانوا يدعونه باسم بيغ مينديلسون، كنت أظن أنه أكثر الرجال هزلاً على وجه الأرض. وأخيراً طرده أبي».

«ماذا فعل بيغ مينديلسون لكي يطرده أبوك؟».

قلت: «حسناً، في صباح أيام الخميس، عندما كان أبي يعود من سوق الدجاج، وكان يضع جميع الدجاجات في كومة، ليختار الناس منها الدجاجة التي يريدونها لطهوها أثناء عطلة نهاية الأسبوع. وكانت هناك امرأة تدعى السيدة سكلون، تلتقط دجاجة وتشمّها من منقارها ثم تشمّها من مؤخرتها. ثم تلتقط دجاجة أخرى، ومرة أخرى تشمّها من منقارها ثم تشمّها من مؤخرتها. كانت تكرر ذلك كلّ أسبوع،

Twitter: @ketab_n

وكانت تفعل ذلك مرات عديدة كلّ أسبوع إلى درجة أنه لم يعد بإمكان بيغ ميندیلسون أن يتمالك نفسه، فقال لها ذات يوم: 'سيدة سكلون، ما نتيجة هذه المعاينة؟' فاستشاطت غضباً منه، والتقطت سكيناً من فوق الطاولة وقالت: 'إذا تكلّمت معي بهذه الطريقة مرة أخرى، فإني سأطعنك'».

«ألهذا السبب طرده أبوك؟»

«كان عليه أن يفعل ذلك. كان آنذاك قد قال أشياء كثيرة من هذا القبيل. أما بالنسبة للسيدة سكلون، فقد كان بيغ ميندیلسون محقّاً. إذ لم تكن السيدة سكلون لطيفة حتى معي، أنا الذي كنت ألطف فتى في العالم».

«لا أشكّ في ذلك»، قالت أوليفيا.

«حسناً، سواء كان ذلك جيداً أم سيئاً، هكذا كنت».

«حسناً».

قلت: «كانت السيدة سكلون المرأة الوحيدة من بين جميع زبائننا التي لم تكن تريد أن أخرج مع بناتها. لم يكن بإمكاني أن أخدع السيدة سكلون. لم يكن بإمكان أحد. كنت أوصل طلباتها إلى بيتها. وفي كلّ مرّة أوصل لها طلبيتها، كانت تفتحها. وكانت دائماً طلبية كبيرة. كانت تُخرجها من الكيس وتنزع عنها الورق الشمعي، وتُخرج كلّ شيء، وتزن كلّ شيء لتتأكد من صحة الوزن. كنت أقف هناك وأراقب هذا العرض. كنت دائماً مستعجلاً لأنني كنت أريد أن أسلّم الطلبات الأخرى بأسرع ما بوسعي لأعود بعدها إلى ملعب المدرسة لألعب الكرة مع أصدقائي. لذلك كنت أحضر لها أحياناً الطلب إلى الباب الخلفي، وأضعه على الدرجة العليا، وأقرع الباب مرة، وأجري كالسهم. كانت تمسكني في كلّ مرّة. كانت تنادي: 'ميسنير! ماركوس ميسنير! ابن الجزّار! ارجع إلى هنا!' كنت أشعر دائماً،

Twitter: @ketab_n

عندما أكون مع السيدة سكلون، بأنني في قلب الأشياء. كنت أشعر بذلك مع بيغ مينديلسون. إني أعني ما أقوله يا أوليفيا. كنت أشعر بذلك مع الناس في دكان الجزّار. كنت أجد متعة بوجودي في دكان الجزّار». لكن ذلك، قلت في نفسي، قبل أن تجعلني أفكار أبي عاجزاً عن الدفاع عن نفسي.

«وهل كان لدى السيدة سكلون ميزان في المطبخ؟» سألتني أوليفيا.

«في المطبخ، نعم. لكنه لم يكن ميزاناً دقيقاً. كان ميزاناً للأطفال. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن تعتبر نفسها أنها ترتكب خطأ. لكنها كانت دائماً تزن اللحم، وكانت دائماً تمسك بي عندما أحاول أن أهرب. لم أتمكن من الهروب من هذه المرأة. كانت تنفحني إكرامية ربع دولار. كان ربع الدولار مبلغاً جيداً. معظم الزبائن كانوا يعطونني خمسة سنتات أو عشرة سنتات».

«لديك أصول متواضعة. مثل آبي لينكولن. ماركوس الصادق».

«أوليفيا الشبقة».

«ماذا عن الحرب، عندما أصبح اللحم مقنناً؟ ماذا عن السوق السوداء؟ هل كان أبوك يعمل في السوق السوداء؟».

«هل كان يعطي صاحب المسلخ رشوة؟ نعم كان يفعل ذلك. لكن لم يكن لدى زبائنه أحياناً قسائم إعاشة، وعندما يقيمون حفلة، أو عندما سيلتقي جميع أفراد الأسرة على الطعام، ويريد أن يبيعهم اللحم، كان يقدم لصاحب المسلخ مبلغاً من المال كلّ أسبوع، ويحصل على كمية أكبر من اللحم. لم تكن تلك مشكلة. كان الأمر في غاية السهولة. لكن ما عدا ذلك، لم يكن أبي رجلاً يخرق القانون. أظن أن هذا هو القانون الوحيد الذي خرقه في حياته، وفي تلك الأيام، كان الجميع تقريباً يخرقون هذا القانون. وكما تعرفين فإنه

Twitter: @ketab_n

يجب غسل اللحم الكوشر كلّ ثلاثة أيام. لذلك كان أبي يأخذ مكنسة ودلواً من الماء ويغسل اللحم كلّه. لكن في بعض الأحيان، كانت تأتي عطلة يهودية، ومع أننا كنا أناساً ملتزمين، فقد كنا يهوداً ونعيش في حيّ يهودي، والأكثر من ذلك، كنا جزّاري كوشر، لذلك كنا نغلق المحل. وفي أحد أعياد اليهود، قال لي أبي إنه نسي. فقد كان عيد الفصح اليهودي سيصادف يومي الاثنين والثلاثاء، وكان قد غسل اللحم يوم الجمعة السابق. وكان عليه أن يعود يوم الاثنين أو الثلاثاء لغسله ثانية، لكنه نسي هذه المرة. حسناً، لم يكن أحد يعرف أنه قد نسي، لكنه كان يعرف، ورفض أن يبيع ذلك اللحم لأحد. أخذه كلّه وباعه بخسارة إلى موليير الذي كان عنده دكان جزّار غير كوشر في شارع بيرغين. سيد موليير. لكنه رفض أن يبيعه إلى زبائنه. لذلك فضّل الخسارة على أن يفعل ذلك».

«إذاً تعلّمت أن تكون صادقاً منه في المحل».

«ربما. من المؤكد أنني لا أستطيع أن أقول إنني لم أتعلم منه أيّ شيء سيّئ. كان ذلك شيئاً مستحيلاً».

«ماركوس المحظوظ».

«أتظنين ذلك؟».

«أعرف أن الأمر كذلك»، قالت أوليفيا.

«حدثيني عن كونك ابنة طبيب».

امتقع لون وجهها عندما أجابت، «لا يوجد شيء يمكنني أن أحدثك عنه».

«إنك...».

لم تدعني أواصل الحديث في هذا الموضوع. قالت ببرود: «مارس اللباقة»، وبذلك، كما لو أنه ألقي بمفتاح أو سُحبت سدادة - وكأن شعوراً بالحزن قد غمرها مثل عاصفة - أطفئ وجهها. لأول مرة

Twitter: @ketab_n

في حضوري، تلاشى جمالها. ذهب. المرح واللمعان تلاشيا فجأة، متعة قصص دكان الجزّار تلاشت، وحل محلها شحوب فظيع وكأنها أصبحت مريضة في اللحظة التي أردت أن أعرف فيها المزيد عنها.

تظاهرت بعدم المبالاة لكنني صُدمت، صُدمت إلى درجة أنني محوت اللحظة على الفور تقريباً.

كنت وكأنني بدأت أدور وأدور حتى شعرت بالدوار، وكنت بحاجة أولاً لأن أستعيد توازني، قبل أن أتمكن من الإجابة، «اللباقة إذاً، واللباقة ستكون». لكني لست سعيداً، بينما كنت في غاية السعادة قبل قليل، لا لأنني أثرت ضحك أوليفيا، بل لأنني تذكرت أبي كيف كان ذات يوم - كيف كان دائماً - في تلك الأيام الآمنة الهادئة عندما كان الجميع يشعرون بالأمان وبالاستقرار. أفكر بأبي وأتمنى لو أنه ظل كما هو، وأنه لم يطرأ على حياتنا هذا المنعطف الفظيع. بدأت أتذكّره عندما كان قوياً وليس عاجزاً - عندما كان معلّمي بدون جدال، بدون استبداد؛ رجلاً واقعياً، عملياً، وكنت أنا، ابنه، أشعر بحرية على نحو مدهش.

لماذا لم تجبني عندما سألتها كيف كنت لكونك ابنة طبيب؟ في البداية، محوت تلك اللحظة من ذاكرتي، لكنها عادت إليّ بعد حين ولم تخرج. هل كان الطلاق هو الشيء الذي لم تكن ترغب في أن تتحدث عنه؟ أم هل كان شيئاً أسوأ؟ «مارس اللباقة». لماذا؟ ماذا يعني ذلك؟

في وقت متأخر من صباح يوم الأحد وصلت أمّي. ذهبنا إلى إحدى الغرف في نهاية الممر لنتحدث على انفراد. أردت أن أريها أنني أقف بثبات على قدميّ، وأنني أستطيع أن أمشي، وأنني تماثلت للشفاء. كنت مبتهجاً لرؤيتها هنا، بعيداً عن نيو جيرسي، في هذا

Twitter: @ketab_n

الجزء من البلد الذي لا تعرفه - فلم يحدث شيء كهذا من قبل - لكنني كنت أعرف أنه عندما تأتي أوليفيا، يتعين عليّ أن أعرّف إحداهما على الأخرى، وأن أمّي، التي لم تكن تفوتها أدنى ملاحظة، سترى الندبة على رسغ أوليفيا وستسألني ماذا أفعل مع فتاة حاولت الانتحار، وهو سؤال لم أكن أعرف كيف أجيب عليه، لأنني لم أطرحه على نفسي من قبل.

في البداية خطر لي أن أطلب من أوليفيا ألا تزورني في اليوم الذي ستصل فيه أمّي. لكنني كنت قد جرحت مشاعرها بما فيه الكفاية، عندما ألمحت بغباء إلى أنها مصت قضيب كوتلر، ثم عندما سألتها بكلّ براءة أن تحدثني عن شعورها بصفتها ابنة طبيب. لم أشأ أن أجرح مشاعرها مرة أخرى، لذلك لم أفعل شيئاً لإبقاء الندبة في رسغها بعيدة عن عيني أمّي الحادتين. لم أفعل شيئاً - أي أنني ارتكبت الخطأ ذاته مرة أخرى.

كانت أمّي مرهقة بسبب رحلتها الليلية بالقطار - تلتها رحلة بالحافلة لمدة ساعة - ومع أنه لم يمض سوى شهرين على رؤيتي لها في البيت، صُعقت عندما رأيتها تبدو أكبر سنّاً، ومتعبة أكثر مما كانت عندما تركتها. لم أتعود على رؤية شكلها المتعب، وتلك التجاعيد التي ازدادت عمقاً وكست قسمات وجهها وتخلّلت بشرتها. ومع أني ظللت أطمئنها عني - وأحاول أن أطمئن نفسي عنها - ومع أنني كذبت عليها بأنني كنت سعيداً بكلّ شيء في واينزبيرغ، بدا عليها حزن لم أعهده فيها من قبل مما جعلني أسألها «أمي، هل هناك شيء لا أعرفه؟»

«ثمة شيء ليس على ما يرام وأنت تعرفه. أبوك»، قالت، وأثارت فزعي أكثر عندما أخذت تجهش بالبكاء وقالت: «هناك شيء على غير ما يرام مع أبيك، لا أعرف ما هو».

Twitter: @ketab_n

«هل هو مريض؟ هل هو مصاب بشيء؟»

«ماركي، أظن أنه بدأ يفقد رشده. لا أعرف أي وصف آخر يمكنني أن أطلقه عليه. إنك تعرف كيف كان يحدثك على الهاتف عن العملية؟ هكذا أصبح يتحدث الآن عن كلّ شيء. أبوك الذي كان يستطيع مواجهة كل الصعوبات التي تعترض الأسرة، ويتغلب على جميع المحن التي كانت تعترضه في المحل، الرجل الذي كان لطيفاً دائماً مع أسوأ الزبائن - حتى بعد أن سُرقنا في ذلك اليوم وحبسه اللصوص في الثلاجة، وأفرغوا الصندوق من النقود، فإني أتذكّر ما قال: 'نستطيع أن نكسب نقوداً أخرى. نشكر الله أنه لم يحدث لأيّ منّا مكروه'. الرجل نفسه الذي كان يقول ذلك، ويؤمن بذلك، لم يعد يستطيع الآن أن يفعل شيئاً وأصبح يحمل مليون هم. هذا هو الرجل الذي جمع العمّ مازي والعمّة هيلدا معاً عندما قُتل آبي في الحرب، وهو الذي جمع العمّ شيكي والعمّة جيرتي عندما قُتل دايف في الحرب، هو الرجل الذي يجمع عائلة ميسنير كلها حتى الآن، بكلّ مآسيها - والآن يجب أن تراه وهو لا يفعل شيئاً سوى أن يقود الشاحنة. إنه يقود في منطقة إسكس طوال حياته، لكنه فجأة بدأ يوصل الطلبات، وكأن جميع من يقود على الطريق معتوه سواه. 'انظري إلى هذا الرجل ماذا يفعل. هل رأيتِ تلك المرأة - هل هي مجنونة؟ لماذا يعبر الناس والضوء لا يزال أصفر؟ هل يريدون أن تدهسهم السيارات، ألا يريدون أن يعيشوا ليروا أحفادهم يكبرون ويذهبون إلى المدرسة ويتزوّجون؟'، وعندما أقدّم له طعام العشاء يشمّ الطعام وكأني أحاول أن أدّس له السم. هذا صحيح. إنه يقول: 'هل هذا طازج؟ شميّ هذا'. أنا الذي أعددت الطعام في مطبخي النظيف، يرفض أن يأكله خشية أن يكون فاسداً ويتسمم منه. نجلس إلى المائدة، نحن الاثنان فقط، أنا آكل وهو لا يأكل. إنه شيء فظيع.

Twitter: @ketab_n

يجلس هناك ويرفض أن يتناول لقمة واحدة، لا يتناول شيئاً وينتظر حتى يراني أقع وقد قضي عليّ».

«وهل هو كذلك في الدكان؟»

«نعم. أصبح خائفاً على الدوام. 'بدأنا نفقد زبائننا. إن السوبر ماركت يهدم عملنا. إنهم يبيعون نوعية أدنى، لا تظني أني لا أعرف ذلك. إنهم لا يعطون الزبائن وزناً صحيحاً، إنهم يطلبون سبعة عشر سنتاً لقاء الباوند الواحد للدجاج، وعندما يستديرون يرفعون السعر إلى عشرين سنتاً على الميزان. أعرف كيف يفعلون ذلك، أعرف يقيناً أنهم يغشّون الزبائن...'، وهكذا، يا حبيبي، ليلاً ونهاراً. صحيح أن عملنا قد توقف، لكن عمل الجميع قد توقف في نيوآرك. فقد بدأ الناس ينتقلون إلى الضواحي، وبدأت المحال التجارية تتبعهم. إن الحيّ يمرّ في مرحلة ثورة. لم تعد نيوآرك كما كانت أثناء الحرب. وقد أحسّ الكثيرون في المدينة بالضرر فجأة، لكننا مع ذلك، لم نمت من الجوع. لدينا نفقات يجب أن نسددها، لكن من لا توجد لديه نفقات؟ هل إني أتذمر من العمل ثانية؟ لا. أبداً. مع ذلك، فهو يتصرّف هكذا. إني أجهّز الطلبات وألفّها كما كنت أفعل منذ خمس وعشرين سنة، لكنه يقول لي: 'ليس هكذا، فالزبائن لا يحبّونها بهذه الطريقة! إنك مستعجلة لتعودي إلى البيت، انظري كيف تلفّينها!' حتى أنه بدأ يتذمر من طريقة أخذ الطلبات على الهاتف. وبدأ الزبائن يحبون أن يتحدثوا معي لتسجيل طلباتهم، لأني أبدي لهم شيئاً من الاهتمام. الآن بدأت أتكلّم كثيراً مع الزبائن. لم يعد يتحمل تعاملي بلطف مع الزبائن! أتكلم على الهاتف لأستلم طلباً، وأقول: 'أوه، إذاً سيأتي أحفادك. هذا جميل. هل تعجبهم المدرسة؟' فيرفع أبوك سماعة الهاتف من الطرف الآخر ويقول للزبون: 'هل تريد أن تتكلم مع زوجتي، اتصل بها في المساء، لا أثناء ساعات عمل'، ويغلق

Twitter: @ketab_n

السماعة. إذا استمرّ هكذا، إذا واصل عمل ذلك، إذا تعين عليّ أن أستمر في رؤيته وهو يزيح حبات البازلاء إلى طرف الصحن بشوكته، ويبدو مثل رجل مجنون يتناول حبة السيانيد... حبيبي، هل هذا ما يسمّونه التغيير في الشخصية، أم أن شيئاً فظيعاً قد حدث؟ هل هذا شيء جديد؟ هل هذا محتمل؟ فجأة؟ في الخمسين؟ أم أنه شيء دفين منذ فترة طويلة وقد طفا على السطح أخيراً؟ هل كنت أعيش طوال هذه السنوات مع قنبلة موقوتة؟ كلّ ما أعرفه أن ثمة شيئاً جعل زوجي شخصاً مختلفاً. زوجي العزيز، وقد أصبحت أشعر بالاضطراب تماماً الآن وأصبحت أشك إن كان رجلاً واحداً أم رجلين!».

أنهت كلامها وأجهشت في البكاء ثانية، الأمّ التي لم تبك في حياتها، لم تتلعثم، وهي الفتاة الأمريكية المولد، التي تتكلم جيداً، والتي تعلمت لغة الإيدش لتكلّم الزبائن العجائز بها، المرأة التي درست التجارة وتخرجت من ثانوية ساوث سايد، التي كان بوسعها أن تعمل بكل سهولة محاسبة في أحد المكاتب، لكنها تعلّمت بدلاً من ذلك تقطيع اللحم وتحضيره لكي تساعده في المحل؛ المرأة التي كانت كلماتها الحساسة وأفكارها المتماسكة وإخلاصها تملأني بالثقة طوال فترة طفولتي. وفي جميع الأحوال، أصبحت محاسبة في النهاية - محاسبة أيضاً، يجب أن أقول، فبعد أن كانت تعود إلى البيت من العمل طوال النهار في الدكان، كانت تجري الحسابات في الليل وتمضي آخر يوم من كلّ شهر في إرسال الفواتير التي طبعت عليها عبارة «لحوم ميسنير الكوشر»، وعليها رسم بقرة، على الجانب الأيسر الأعلى، ورسم دجاجة صغيرة على الطرف الأيمن الأعلى. عندما كنت طفلاً، ما الذي كان يثير حماستي أكثر من رؤية هذين الرسمين في الجزء العلوي من أوراق المحاسبة وثباتهما في مخيلتي؟ كانت ذات يوم عائلة تعمل بجد، منظّمة إلى حد يثير الإعجاب، تلهم

Twitter: @ketab_n

مشاعر الوحدة، لكنه أصبح الآن يخاف من كلّ شيء، وفقدت رشدها حزناً على ما لم تكن متأكّدة تماماً إن كانت ستطلق عليه «تغيير في الشخصية» - ولأنني هربت من البيت.

«ربما كان عليك أن تخبريني»، قلت، «لماذا لم تخبريني بأن الأمور آلت إلى هذه الدرجة من الخطورة؟».

«لم أشأ أن أضايقك في الجامعة. لديك دراستك».

«لكن متى بدأ يحدث ذلك برأيك؟».

«في الليلة التي أوصد فيها الباب في وجهك ولم يسمح لك أن تدخل إلى البيت، لقد بدأ كل شيء في تلك الليلة. لقد غيّرت تلك الليلة كلّ شيء. لا تعرف كيف تشاجرت معه قبل أن تصل إلى البيت في تلك الليلة. لم أخبرك بذلك أبداً. لم أشأ أن أحرجه أكثر من ذلك. 'ماذا تستفيد من إيصاد الباب؟' سألته، 'هل تريد حقاً أن لا يأتي ابنك إلى البيت، ألهذا السبب أوصدت الباب؟ أتظن أنك تلقّنه درساً' قلت له، 'ماذا ستفعل لو لقّنك هو درساً وذهب لينام في مكان آخر؟ لأن هذا ما يفعله أي شخص لديه إحساس عندما يجد نفسه حبيساً خارج البيت - فهو لن يقف في البرد، ينتظر أن يصاب بذات الرئة. سينهض ويذهب إلى مكان دافئ حيث يكون مُرحباً به. سيذهب إلى بيت أحد أصدقائه، سترى. سيذهب إلى بيت ستانلي. سيذهب إلى بيت آلان، وسيسمح له أبواهما بالدخول. لن يمكث جالساً هنا، هذا ليس من طبع ماركي'. لكن أباك رفض أن يتزحزح عن موقفه. 'كيف يمكنني أن أعرف أين هو في هذه الساعة؟ كيف لي أن أعرف أنه ليس الآن في أحد المواخير؟' نستلقي في السرير ويصرخ - إذا كان ابني في أحد المواخير. ثم يسألني: 'كيف لي أن أعرف بأنه ليس في مكان يهدّم فيه حياته في هذه الساعة'؟ لا أستطيع أن أسيطر عليه، وهذه هي النتيجة».

Twitter: @ketab_n

«أي نتيجة؟».

«إنك تعيش الآن في وسط أوهايو بينما يجري هو في أرجاء المنزل ويصيح: 'لماذا يُجري عملية استئصال الزائدة الدودية في مستشفى على بعد خمسمائة ميل عن البيت؟ ألا توجد مستشفيات في نيو جيرسي لاستئصال الزائدة الدودية؟ إن أفضل المستشفيات في العالم موجودة في هذه الولاية! ماذا يفعل هناك في المقام الأول؟' الخوف، يا ماركوس، كان الخوف ينضح من كلّ مسامّ فيه، الغضب يتسرب من كلّ عرق فيه، ولا أعرف كيف يمكنني أن أوقف أياً منهما».

«خذيه إلى طبيب يا أمّي. خذيه إلى أحد تلك المستشفيات الرائعة في نيو جيرسي ليعرفوا ما هي مشكلته. لعلهم يستطيعون أن يقدموا شيئاً له يعيده إلى استقراره».

«لا تسخر من ذلك يا ماركي. لا تسخر من أبيك. هذه جميعها مظاهر مأساة».

«لكني أعني ما أقول. يبدو أنه يجب أن يرى طبيباً. اذهبي واستشيري طبيباً. لا يمكن أن يقع كل ذلك على عاتقك».

«لكنّ أباك هو أبوك. يرفض أن يتناول حبة أسبرين ليعالج نفسه من الصداع. إنه لن يستسلم. حتى أنه يرفض أن يذهب إلى الطبيب عندما يصاب بالسعال. في رأيه أن الناس يدلّلون أنفسهم. ويقول إنه يدخّن، وبذلك يحلّ المسألة. 'كان أبي يدخّن طوال حياته. كنت أدخّن طوال حياتي. شيكي، مازي، وآرتي كانوا يدخنون طوال حياتهم. أفراد عائلة ميسنير يدخنون. لست بحاجة إلى طبيب ليعلّمني كيف أقطع شريحة من الكتف، ولست بحاجة إلى طبيب ليحدثني عن التدخين. 'لا يستطيع حالياً أن يقود سيارته دون أن يطلق زموره على كلّ من يقترب منه، وعندما أقول له إنه لا توجد حاجة لإطلاق

Twitter: @ketab_n

الزمور، فإنه يصيح: 'ألا توجد حاجة مع المجانين الذين يقودون سياراتهم على الطرق؟' لكنه هو - هو المجنون على الطرق. لم أعد أحتمل أكثر من ذلك».

قلقاً على حالة أمّي، منزعجاً من رؤيتها مهزوزة - المرأة التي كانت ركيزة بيتنا الأساسية ودعامته، التي كانت في دكان الجزارة، الفنانة التي كانت تقف إلى جانبه - تذكّرت من الاستماع إليها سبب وجودي في واينزبيرغ. إنس الكنيسة، انس كودويل، انس مواعظ الدكتور دونيهاوير وساعات دخول مساكن الفتيات وكلّ شيء آخر خاطئ في هذا المكان - تحمّل كل ذلك واستفد منه. لأنك بخروجك من البيت أنقذت حياتك. أنقذت حياته. لأنني كنت سأقتله لكي أسكته. كان بإمكاني أن أقتله بسبب ما يفعله لها. وما كان يفعل لنفسه أسوأ. كيف تقتل شخصاً كان قد بدأ يفقد رشده وهو في الخمسين من عمره، ولم يكن يدمّر حياة زوجته، ويغيّر حياة ابنه على نحو لا يمكن إصلاحه فحسب، بل كان يدمّر حياته هو أيضاً؟

«أمي، يجب أن تطلبي منه أن يرى الدكتور شيلدكريت. إنه يثق بالدكتور شيلدكريت. إنه يقسم بحياة الدكتور شيلدكريت. لنسمع ما يراه الدكتور شيلدكريت». لم أكن أنا نفسي أكنّ احتراماً كبيراً لشيلدكريت، بسبب طريقة تفكيره على أقل تقدير؛ كان طبيبنا لمجرد أنه كان يذهب إلى المدرسة الابتدائية مع أبي، ولأنه نشأ مفلساً في نفس الشارع الفقير في مدينة نيوآرك. لأن والد شيلدكريت كان «كسولاً حقيراً»، وكانت أمّه امرأة عانت الأمرّين، وكانت تستحق، بحسب تقدير أبي، أن تكون «قديسة»، كان ابنهما المغفل طبيب عائلتنا. الويل لنا، لكنني لم أكن أعرف أي شخص آخر يمكنني أن أوصي به غير شيلدكريت.

«لن يذهب» قالت أمّي، «لقد اقترحت عليه ذلك لكنه رفض أن

Twitter: @ketab_n

يذهب. إنه يظن أنه لا يعاني من أي مشكلة - بل المشكلة تكمن في الآخرين».

«إذاً اذهبي وكلمي شيلدكريت. أخبريه بما يجري. اسمعي ماذا يقول. لعله يستطيع أن يرسله إلى اختصاصي».

«اختصاصي في قيادة السيارات في منطقة نيوآرك من دون أن يطلق الزمور لكلّ سيارة تقترب منه؟ لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك لأبيك».

«تفعلين ماذا؟».

«أن أحرجه هكذا أمام الدكتور شيلدكريت. إذا عرف أنني ذهبت إليه وحدّثته عن هذا الأمر من وراء ظهره، فإن ذلك سيحطّمه».

«إذاً فهو يحطّمك بدلاً من ذلك؟ انظري إلى نفسك. إنك امرأة مدمرة. كنت قوية كما ينبغي أن يكون أي شخص، أما الآن فقد أصبحتِ امرأة محطّمة. ولو بقيت أنا في البيت يوماً آخر لتحطمت أنا أيضاً».

«عزيزي» - هنا أمسكت بيدي - «عزيزي، يجب عليّ أن أفعل ذلك؟ هل يمكنني أن أفعل ذلك؟ لقد قطعت كلّ هذا الطريق لكي أسألك. إنك الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أحدّثه عن هذا الأمر».

«هل بإمكانك ماذا؟ ماذا تسألين؟».

«لا أستطيع أن أقول الكلمة».

«أي كلمة؟» سألتها.

«الطلاق». كانت يدي لا تزال في يدها، رفعت يديها كلتاهما لتغطي فمها. فالطلاق غير معروف في منطقتنا التي يقطنها اليهود. لقد جعلوني أؤمن بأن الطلاق غير معروف في العالم اليهودي فقط. إن الطلاق شيء مخز. الطلاق شيء شائن. وإن تحطيم أسرة بالطلاق عمل إجرامي. عندما كبرت، لم أعرف ولا عائلة واحدة بين أصدقائي

Twitter: @ketab_n

أو زملائي في المدرسة أو أصدقاء أسرتنا قد طُلّق فيها أحدهم، أو أنهم كانوا يسكرون، أو أنهم يملكون كلباً. وقد رُبِّيت على الفكرة بأن هذه الأشياء الثلاثة كريهة. كان من الممكن أن تفاجئني أمّي أكثر لو أنها قالت لي إنها ستخرج وتشتري كلباً.

«أماه، إنك ترتعشين. إنك في حالة من الذهول». هل ستفعلين ذلك؟ لم لا؟ فقد هربت أنا إلى واينزبيرغ - لماذا لا تطلّقه؟ «إنكما متزوجان منذ خمس وعشرين سنة. إنك تحبّينه».

هزّت رأسها بقوة، وقالت: «لا! إني أكرهه! أجلس معه في السيارة وهو يقود ويصرخ بأن جميع البشر مخطئون وهو الوحيد المصيب. إني أكرهه وأمقته من أعماق قلبي!».

بهذه الشدة والحماسة، كنا مذهولين. قلت: «هذا غير صحيح. وحتى لو بدا ذلك صحيحاً الآن، فهي ليست حالة دائمة. هل سبب كل ذلك لأني ذهبت وتركتك وحدك معه، ولا تعرفين ماذا تتصرفين معه. أرجوك اذهبي لزيارة الدكتور شيلدكريت. كبداية على الأقل. اطلبي مشورته». وفي الوقت نفسه، كنت خائفاً مما سيقوله شيلدكريت، «إنه على حق. فلم يعد الناس يعرفون كيف يقودون سياراتهم. لقد لاحظت ذلك بنفسي. فعندما تركب سيارتك هذه الأيام، فإنك تغامر بحياتك».

كان شيلدكريت طبيباً غبياً وسيئاً، وكان من حسن حظّي أنني أصبت بالتهاب الزائدة الدودية وأنا بعيد عنه. كان سيصف لي حقنة شرجية ويقتلني.

يقتلني. تعلمتها من أبي. كلّ ما يمكنني أن أفكّر به هي الوسائل التي يمكنني أن أُقتل بها. إنك غريب الأطوار، كما تعرف. غريب جداً. أكثر مما كنت أظن أنك تدرك. ويجب على أوليفيا أن تعرف كيف تكتشف الغرابة، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

«لقد رأيت محامياً»، قالت لي أمّي بعد ذلك.

«لا».

«نعم. لقد رأيته للتو. لديّ محام»، قالتها بطريقة يائسة وكأن أحداً يقول: «لقد أفلست» أو «سأجري عملية في الدماغ». قالت: «لقد ذهبت من تلقاء نفسي. لم أعد أستطيع أن أعيش مع أبيك في ذلك البيت أكثر من ذلك. لم أعد أستطيع أن أعمل معه في الدكان. لم أعد أستطيع أن أركب معه في السيارة. لم أعد أستطيع أن أنام إلى جانبه في السرير. لا أريده أن يكون بقربي هكذا. إنه شخص شديد الغضب، ولم أعد أستطيع أن أستلقي إلى جانبه. إنه يثير خوفي. لهذا السبب جئت لأخبرك». توقفت الآن عن البكاء. وتمالكت نفسها فجأة، وأصبحت مستعدّة وقادرة على أن تقاتل، وكنت أنا على وشك أن أبكي، وأنا أعرف أن شيئاً من هذا لن يحدث حتى لو بقيت في البيت.

يجب أن تكون لديك عضلات لكي تكون جزّاراً، وكان لدى أمّي عضلات، وأحسست بها عندما ضمتني إليها عندما بدأت أبكي.

عندما خرجنا من الحجرة وعدنا إلى الغرفة - مررنا بالآنسة كليمنت، التي أشاحت بنظرها مثل قديسة - كانت أوليفيا هناك ترتّب باقة ثانية من الورد أحضرتها معها عندما وصلت قبل بضع دقائق. وكانت قد رفعت أكمام بلوزتها لكي لا تتبلل بالماء الذي وضعته في مزهرية ثانية أحضرتها معها، لذلك كانت ندبتها بارزة، الندبة في رسغ اليد ذاتها التي جعلت الآنسة كليمنت تلوذ بالصمت، اليد نفسها التي كانت تمارس بها عملاً غير محتشم في إحدى غرف المستشفى، بينما كان المرضى الآخرون في غرفهم يتصرفون وفق القواعد السارية التي لم تكن تسمح حتى بالتكلم بصوت مرتفع. وبدت لي ندبة أوليفيا الآن بارزة وكأنها لم تجرح نفسها إلا منذ بضعة أيام.

Twitter: @ketab_n

عندما كنت طفلاً، كان أبي يأخذني معه أحياناً إلى المسلخ في شارع أستور في منطقة إرونبوند في نيوآرك. وكان يأخذني إلى سوق الدجاج في الطرف الآخر من شارع بيرغين. وفي سوق الدجاج كنت أراهم يذبحون الدجاج. رأيتهم يذبحون مئات الدجاجات بحسب قانون الكوشر. كان أبي يختار أولاً الدجاجات التي يريدها. كانت الدجاجات توضع في قفص مؤلف من خمس أو ست طبقات، وكان يمدّ يده ليسحب واحدة منها، ويمسكها من رأسها لكي لا تنقره، ويتحسس عظام صدرها. فإذا تلوّت بيده، تكون الدجاجة صغيرة وغير صلبة؛ وإذا كانت متصلّبة، فقد تكون الدجاجة كبيرة ولحمها قاس. وكان ينفش ريشها أيضاً ليرى جلدها - فقد كان يريد أن يكون لون لحمها أصفر، وأن تكون ممتلئة قليلاً. وكان يضع الدجاجات التي يختارها في صندوق، ثم يأتي الشوشيت، وهو الجزّار الذي يُسمح له بالذبح الكوشر، ويذبحها بحسب الطقوس المعمول بها. إذ كان يلوي رقبة الدجاجة إلى الخلف - لا يكسرها، بل يقوسها فقط إلى الخلف، وربما يبعد بعض الريش لتظهر الرقبة ليرى ماذا يفعل، وبسكينه الحادّة جداً، يقطع الحنجرة. ولكي تكون الدجاجة كوشر يجب أن تُقطع الحنجرة بضربة ناعمة قاتلة واحدة. وكان أحد المشاهد الغريبة التي أتذكّرها منذ شبابي المبكر هو ذبح الدجاج غير الكوشر، حيث كانوا يقطعون الرأس على الفور، وبضربة واحدة، ثم يضعون الدجاجة المقطوعة الرأس في قمع. وكان لديهم ستة أو سبعة أقماع في دائرة، يصفى الدم منها إلى برميل كبير. وفي بعض الأحيان، كنت ترى أرجل الدجاج لا تزال تتحرّك، وقد تقع دجاجة خارج القمع وتبدأ تجري حول المكان وهي مقطوعة الرأس. ومع أنها قد ترتطم بحائط، فإنها تظل تجري. وكانوا يضعون الدجاج الكوشر في أقماع أيضاً. إراقة دماء، قتل - كان أبي يتحمل رؤية هذه المشاهد، وبالطبع، كنت

Twitter: @ketab_n

أشعر بالاضطراب وأبذل ما بوسعي ألا يبدو عليّ ذلك. كنت صغيراً، في السادسة أو السابعة من عمري، لكن كان هذا هو عملي، وسرعان ما تقبلت بأن العمل يتكوّن من هذه الفوضى. وكان الشيء نفسه يجري في المسلخ، حيث تذبح الحيوانات بطريقة الكوشر، حيث يجب تصفية دمها. أما في المسلخ الذي لا يذبح وفق قانون الكوشر، فكانوا يطلقون النار على الحيوان، وقد يضربونه حتى يفقد وعيه، وقد يقتلونه بأي طريقة يريدون. ولكي يكون الذبح بحسب قانون الكوشر، يجب أن يتركوا الحيوان ينزف حتى يموت. وعندما كنت ابن جزّار، أتعلّم كل شيء يتعلق بالذبح، كانوا يعلّقون الذبيحة من قدميها حتى يصفى دمها. وفي البداية، كانوا يلفون سلسلة حول الساق الخلفية - ويحصرونها بهذه الطريقة. وتكون تلك السلسلة رافعة أيضاً، فيرفعونها بسرعة، وتتدلى من كعبيها حتى يجري الدم كله إلى الرأس والجزء العلوي من الجسد.

وعندها تصبح جاهزة للذبح. إذ يدخل الشوشيت معتمراً طاقية، ويجلس في مكان يشبه كوة صغيرة، على الأقل كان يفعل ذلك في المسلخ في شارع أستور، ويمسك برأس الدجاجة، ويضعها على ركبته، ويمسك سكيناً كبيراً ويقول «براخا» أي مباركة، ويقطع الرقبة. وإذا فعل ذلك بضربة واحدة، وقطع القصبة الهوائية والمريء والشريان، ولم يلمس العمود الفقري، تموت الدجاجة على الفور وتصبح كوشر؛ أما إذا تلقت ضربتين، أو إذا كانت مريضة، أو لم تكن تستطيع أن تتحرك، أو إذا لم تكن السكين حادّة جداً، أو إذا ثُلم العمود الفقري فقط، فإنها لا تصبح كوشر. ويحزّ الشوشيت الرقبة من الوريد إلى الوريد، ثم يتركها معلقة هناك حتى يصفى دمها كلّه، وكأنه أخذ دلواً مليئاً بالدم، أو عدّة دلاء، ودلقها في وقت واحد، لأن الدم يتدفق من الشرايين بسرعة على الأرضية الخرسانية التي فيها بالوعة.

Twitter: @ketab_n

ويقف الشوشيت هناك بحذائه الطويل، والدم يصل حتى كاحليه على الرغم من وجود البالوعة - لقد رأيت كلّ ذلك عندما كنت صبياً صغيراً. لقد شهدت ذلك مرات كثيرة. وكان أبي يظن أنه من المهم أن أرى ذلك - الرجل ذاته الذي أصبح الآن يخاف عليّ من أي شيء، ويخاف عليّ من أي سبب.

إن ما أريد أن أقوله هو أن ما حاولت أوليفيا أن تفعله هو أن تقتل نفسها وفقاً لتعاليم الكوشر بأن تصفي الدم من جسمها. ولو نجحت، لو أنهت عملها بضربة خبيرة واحدة بالسكين، لتمكّنت من قتل نفسها وفق القانون الرباني الكوشر. لقد جاءت ندبة أوليفيا الواضحة نتيجة محاولة قيامها بعملية الذبح الطقسي الخاص بها.

كنت طويلاً لأمّي. فقد كانت امرأة ضخمة، أقرب إلى الامتلاء، طولها ست أقدام تقريباً، ولم تكن أطول من أبي فقط، بل كانت أطول من جميع الأمهات في الحيّ. بحاجبيها الكثيفين الداكنين، وشعرها الأشيب الخشن (وفي المحل، بثيابها الرمادية الخشنة تحت مئزرها الأبيض الملطخ بالدم)، كانت تجسّد دور المرأة العاملة بذات الدرجة من الإقناع التي كانت تظهر على المرأة السوفييتية في ملصقات الدعاية عن حلفاء أمريكا ما وراء البحار، المعلّقة في قاعات مدرستنا الابتدائية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية. أما أوليفيا، فكانت رشيقة وشقراء، ومع أن طولها لم يكن يتجاوز خمس أقدام وسبعاً أو ثماني إنشات، فقد كانت تبدو ضئيلة مقارنة بأمّي، لذلك عندما مدّت المرأة التي تعمل وهي ترتدي مئزراً أبيض ملطخاً بالدم، وتستخدم سكاكين طويلة حادّة كالسيوف، وتفتح وتغلق باب الثلاجة الثقيل، يدها إلى أوليفيا لمصافحتها، لم أر أن أوليفيا تشبه طفلة صغيرة فحسب، بل رأيت كذلك ذلك القدر الضئيل من الاضطراب عندما

Twitter: @ketab_n

أصبحت وجهاً لوجه مع قوتها الكاملة. وغاصت يدها الناعمة مثل قطعة لحم حمل صغير في قبضة كفّ أمي الكبيرة التي تشبه كفّ الدبّ؛ كانت هي نفسها في قبضة الشخص الذي دفعها بعد سنوات الطفولة القليلة، إلى الشراب أولاً، ثم دفع بها إلى حافة الدمار. كانت مسايرة وهشّة حتى النخاع، طفلة صغيرة جريحة، وقد أدركت ذلك أخيراً لأن أمّي، حتى بعد أن تعرضت للهجوم من أبي، وأصبحت مستعدة لأن تطلقه، الأمر الذي سيكون بمثابة قتله - نعم، لقد رأيته ميتاً الآن أيضاً - كان يمكن أن تكون أي شيء، لكنها لم تكن امرأة هشّة ومذعنة. إن التفكير بالذهاب لرؤية محام للطلاق لم يكن عملاً ينم عن ضعف أميّ، بل عن قوّة التغير الساحقة التي طرأت عليه والتي لا يمكن تفسيرها، وتغيره المفاجئ الذي ينذر بحدوث كارثة.

راحت أمّي تدعو أوليفيا «الآنسة هوتون» خلال العشرين دقيقة التي أمضتاها معاً برفقتي في غرفتي في المستشفى. كان تصرفها يخلو من أي عيب، كما كان تصرف أوليفيا. فلم تطرح على أوليفيا أسئلة محرجة، ولم تبحث في خلفيتها، أو ماذا يعني أن تقوم بترتيب الورود لأن أحدنا يعرف الآخر - لقد مارست اللباقة. وقد عرّفتها على أن أوليفيا زميلتي في الكلية وتحضر لي واجباتي الدراسية، ثم تأخذها بعد أن أكتبها لأظل مواكباً دراستي. ولم أرها تنظر إلى رسغيّ أوليفيا، ولم تبد أي شكّ في سلوكها، أو تظهر أي اعتراض عليه. فلو لم تتزوج أمّي أبي، لأمكنها أن تعمل بسهولة في أعمال تتطلب مهارات دبلوماسية، وأن تُشغّل ذكاءها على نحو أكبر مما تحتاجه في دكان الجزّار. فقد كان مظهرها المهيب يخفي وراءه البراعة التي تظهرها عندما تستدعي الظروف نباهة وذكاء في أسلوب الحياة الذي كان أبي يجهله.

كما قلت، لم تخذلني أوليفيا أيضاً. فلم تجفل عندما خاطبتها

Twitter: @ketab_n

أمي عدة مرات باسم الآنسة هوتون، مع أنني كنت أجفل في كل مرة أسمعها تقول ذلك. ما ذلك الشيء الذي استوجب هذه الرسميات؟ لا يمكن أن يكون ذلك لأنها لم تكن يهودية. وعلى الرغم من أن أمّي كانت امرأة يهودية ريفية من نيوآرك وتنتمي إلى طبقتها وزمنها وخلفيتها، فإنها لم تكن قروية غبية، وكانت تعرف جيداً أن ابنها الذي يعيش في قلب وسط الغرب الأمريكي في منتصف القرن العشرين، يمكن أن يصاحب فتيات ينتمين إلى الديانة السائدة، المنتشرة، التي تكاد تكون الديانة الرسمية في أمريكا. هل كان مظهر أوليفيا هو الذي ثبّطها، هيئتها التي تجعلها تبدو كأنها تنتمي إلى طبقة متميّزة، وكأنها لم تتعرض في حياتها إلى مشكلة واحدة؟ هل كان السبب هو ذلك الجسد الأنثوي الممشوق الشاب؟ هل كانت أمّي غير مستعدة لتقبّل هذه الرقة الجسدية اللدنة التي يتوّجها ذلك الشعر الكستنائي الغزير؟ لماذا كانت تعيد وتكرر عبارة «الآنسة هوتون» على فتاة مهذّبة لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، لم تفعل شيئاً منذ أن تعرفت عليها سوى أنها تساعد ابنها المتماثل للشفاء، ابنها المريض الذي أجرى عملية جراحية في المستشفى؟ ما الذي جعلها تشعر بالإهانة؟ ما الذي أثار فزعها؟ لا يمكن أن تكون الأزهار هي السبب. ربما كانت مجرد نظرة سريعة إلى الندبة هي التي جعلتها لا تستطيع أن تلفظ اسم أوليفيا. إنها الندبة والأزهار معاً.

لقد استحوذت الندبة على تفكير أمّي، وقد عرفت أوليفيا ذلك، وعرفت أنا كذلك. عرفنا جميعنا ذلك، مما جعل الاستماع إلى أي كلمة عن أي شيء آخر أمراً لا يطاق. كان بقاء أوليفيا في الغرفة مع أمّي مدة عشرين دقيقة عملاً بطولياً فاجعاً من الكياسة والقوّة.

ما إن غادرت أوليفيا لتعود بالحافلة إلى واينزبيرغ، حتى دخلت

Twitter: @ketab_n

أمّي إلى الحمّام، لا لتغسل يديها، بل لتنظف المغسلة، وحوض الحمّام، والمرحاض بالصابون والمناشف الورقية.

«أمي لا تفعلي ذلك»، قلت لها، «لقد وصلتِ للتو، وكلّ شيء نظيف».

فقالت: «أنا هنا، وهي بحاجة إلى التنظيف».

«إنها ليست بحاجة إلى تنظيف. كان ذلك أول شيء فعلوه في الصباح».

لكن أمّي كانت بحاجة إلى ذلك أكثر مما كان الحمّام بحاجة إليه. العمل. بعض الناس يتوقون إلى العمل، أيّ عمل، مهما كان قاسياً أو سيئاً، ليفرغوا شحناتهم من القسوة التي يتعرضون لها في حياتهم وليزيلوا من عقولهم الأفكار القاتلة. عندما خرجت، كانت أمّي ثانية، فقد أعادت عملية التنظيف تلك الدفء الأنثوي الذي كانت تضفيه باستمرار. تذكّرت ذلك عندما كنت طفلاً في المدرسة، «*ماما تعمل*» كانت تخطر لي دائماً عندما أتذكر عمل أمي، لكن ليس لأن العمل كان عبئاً عليها. بالنسبة لي، كانت عظمتها الأمومية تنبع من أنها امرأة قوية تعمل في الجزارة، لا تقل قوّة عن أبي.

«إذاً حدّثني عن دراستك»، قالت، بعد أن جلست في الكرسي في زاوية الغرفة، بينما أسندت رأسي على الوسادات في سريري، «حدثني عما تتعلّمه هنا».

«إننا ندرس التاريخ الأمريكي حتى عام ١٨٦٥. منذ بناء أولى المستوطنات في جيمس تاون وخليج ماساشوستس، وحتى نهاية الحرب الأهلية».

«وهل تحبّ ذلك؟».

«نعم أحبّه يا أمّي».

«وما الأشياء الأخرى التي تدرسها؟».

Twitter: @ketab_n

«مبادئ الحكومة الأمريكية».

«عن أي شيء تدور؟».

«عن أعمال الحكومة. مؤسساتها. قوانينها. الدستور. فصل السلطات. الفروع الثلاثة. كنت أدرس علم حقوق المواطنين في الثانوية، لكننا لم نكن ندرس هذه الأشياء عن الحكومة بهذا التفصيل. إنها مادة جيدة للدراسة. لقد درسنا الوثائق. درسنا بعض حالات المحكمة العليا المشهورة».

«هذا أمر رائع بالنسبة لك. هذا ما تطمح إليه. وماذا عن المعلمين؟»

«إنهم جيدون. إنهم ليسوا عباقرة، لكنهم جيدون إلى حد ما. إنهم ليسوا خارقين. لديّ الكتب التي أدرس فيها، واستخدم المكتبة. لديّ كلّ شيء يحتاج العقل أن يتعلمه».

«وهل تشعر بسعادة أكبر عندما تكون بعيداً عن البيت؟».

«إني أفضل حالاً يا أمي»، قلت، ولست أفضل حالاً، قلت في نفسي، لأنك لست كذلك.

«اقرأ لي شيئاً يا عزيزي. اقرأ لي شيئاً من أحد كتبك الدراسية. أريد أن أسمع ما تتعلّمه».

تناولت المجلد الأول من كتاب «ظهور الجمهورية الأمريكية وتطورها» الذي كانت أوليفيا قد أحضرته لي من غرفتي، وفتحت صفحة لا على التعيين، ورحت أقرأ من بداية فصل كنت قد درسته، «إدارة جيفرسن»، وبعنوان فرعي« ١- ثورة عام ١٨٠٠»؛ بدأت أقرأ «توماس جيفرسن، بعد سنوات من عمر حافل بالأحداث، ظنّ أن انتخابه للرئاسة يؤذن بثورة حقيقية كما كان قد حدث في سنة ١٧٧٦. فقد أنقذ البلد من حكم ملكي وعسكري، وأعاده إلى بساطة

Twitter: @ketab_n

الجمهورية. لكن لم يكن هناك أيّ خطر من احتمال قيام حكم ملكي؛ وكان جون أدامز هو الذي أنقذ البلاد من الحكم العسكري؛ ولا يمكن اعتبار بساطة صغيرة بأنها ثورة».

وتابعت القراءة: «وتوقّع فيشر أميس بأنه إذا ظهر رئيس متطرف، فإن أمريكا ستشهد عهداً حقيقياً من الإرهاب. ومع ذلك، كانت السنوات الأربع التي أعقبت ذلك من أكثر فترات حكم الجمهوريين هدوءاً، ولم تحدث خلالها إصلاحات جذرية ولم تقم اضطرابات شعبية...» وعندما رفعت عينيّ قليلاً، في منتصف الجملة، رأيت أمّي نصف نائمة في كرسيها، وابتسامة ترتسم على وجهها. فقد كان ابنها يقرأ لها بصوت عال ما يدرسه في الجامعة. كان كل ذلك يستحق عناء الرحلة التي قامت بها بالقطار ثم بالحافلة، إلى أن رأت الندبة على يد الآنسة هوتون. للمرة الأولى منذ أشهر، شعرت بالسعادة.

ولكي أبقيها في هذه الحالة، تابعت القراءة «... لكن مع حيازة أراضٍ بحجم الولايات المتحدة بطرق سلمية، جلبت الانتخابات التي أُجريت في العامين ١٨٠٠-١٨٠١ تغييراً في الأشخاص أكثر مما جلبت تغييراً في الإجراءات، ونقلت السلطة الاتحادية من ماساشوستس إلى فرجينيا...». كانت الآن تغط في نوم عميق، لكنني لم أتوقّف، ماديون. مونرو. ج. ك. أدامز. وواصلت القراءة حتى هاري ترومان إن كان ذلك سيخفف عنها المحن التي سببتها لها بتركها وحدها مع زوج لم يعد بالإمكان السيطرة عليه.

أمضت الليلة في فندق ليس بعيداً عن المستشفى، وعادت لزيارتي في صباح اليوم التالي، الاثنين، قبل أن تغادر بالحافلة ثم بالقطار عائدة إلى البيت. كان من المقرر أن أغادر المستشفى بعد الغداء في ذلك اليوم. وكان سوني كوتلر قد خابرني في الليلة

Twitter: @ketab_n

السابقة، بعد أن سمع أنني أجريت عملية جراحية. وعلى الرغم من لقائنا البغيض في الساحة - الذي لم يلمح إليه أحد منا - فقد أصرّ على أن يأتي ويأخذني بسيارته من المستشفى إلى الجامعة، بعد أن اتخذ مكتب المشرف كودويل ترتيبات بأن أمكث الأسبوع التالي في المستوصف الصحي للطلاب. وكان بإمكاني أن أستريح هناك عندما أكون بحاجة إلى ذلك أثناء النهار، وأعود لحضور جميع دروسي ما عدا دروس الرياضة. وكان عليّ أن أهيئ نفسي بعد ذلك لصعود درجات الطوابق الثلاثة إلى غرفتي في أعلى مبنى نيل هول. وأن أعود بعد أسبوعين إلى عملي في الحانة.

في صباح يوم الاثنين ذاك، عادت أمّي إلى طبيعتها مرة أخرى، قوية لا تُكسر. وبعد أن انتهيت من طمأنتها عن الترتيبات المفيدة التي اتخذتها الجامعة من أجل عودتي، كان أول شيء قالته: «لن أطلّقه يا ماركوس. لقد حزمت أمري. سأتحمله. سأبذل كلّ ما بوسعي لمساعدته، إذا كان هذا ما تريده مني، وهذا ما أريده أنا أيضاً. إنك لا تريد أن ترى أبوين مطلّقين، ولا أريد أن يكون لديك أبوان مطلقان. إني آسفة الآن لأني سمحت لنفسي بأن تخطر لي مثل هذه الأفكار. إني آسفة لأنني قلتها لك بالطريقة التي قلتها لك، هنا في المستشفى، معك عندما غادرت سريرك لتبدأ تتحرك وتمشي من تلقاء نفسك - لم يكن ذلك شيئاً صحيحاً. لم يكن منصفاً. إني أعتذر منك. سأبقى معه يا ماركوس، مهما حدث».

اغرورقت عيناي بالدموع، وعلى الفور وضعت يديَّ على عينيَّ لأخفي دموعي أو لأتمكن من حبسها بأصابعي.

«يمكنك أن تبكي يا ماركي. لقد رأيتك تبكي من قبل».

«أعرف أنك كنت تبكين. أعرف أنه يمكنني أن أبكي. لكنني لا أريد. إني سعيد جداً. . .». كان عليّ أن أتوقّف لوهلة حتى أستعيد

Twitter: @ketab_n

صوتي وأسترد أنفاسي بعد أن جعلتني كلماتها ذلك المخلوق الصغير الذي لا يحتاج إلا إلى رعاية دائمة. «أنا سعيد جداً لسماع ما قلتيه. كما تعلمين، قد يكون سلوكه هذا شيئاً مؤقتاً. فمثل هذه الأشياء تحدث، أليس كذلك، عندما يبلغ الناس سناً معينة؟».

«إني واثقة من ذلك»، قالت تطمئنني.

«شكراً يا أمي. لقد أراحني ذلك كثيراً. لا أستطيع أن أتخيّله يعيش وحيداً. يذهب إلى المحل فقط ولا يوجد لديه شيء سوى عمله، ثم يعود إلى البيت ليلاً، ويمكث وحيداً في عطلة نهاية الأسبوع... هذا أمر لا يمكن تصوّره».

فقالت: «إنه أمر أسوأ مما لا يمكن تخيّله، لذلك لا تتخيّله. لكني أريد أن أطلب منك شيئاً الآن في المقابل. لأنه شيء لا يمكنني أن أتخيّله. فأنا لم أطلب منك شيئاً من قبل. لم أطلب منك شيئاً من قبل لأنني لم أكن بحاجة إلى ذلك. لأنك ابن مثالي. فكلّ ما كنت تريده هو أن تكون ابناً صالحاً. إنك أفضل ابن يمكن لأيّ أمّ أن تنجبه. لكني سأطلب منك أن تقطع علاقتك بالآنسة هوتون. لأنني لا أستطيع أن أتصورك معها. ماركي، إنك هنا لكي تكون طالباً، ولكي تدرس قضايا المحكمة العليا، وتدرس توماس جيفرسن، وأن تستعد للدخول إلى كلية الحقوق. إنك هنا لتصبح ذات يوم شخصاً مهماً يتطلع إليه الآخرون ويأتون إليه ويطلبون مساعدته. إنك هنا لكي لا تكون من عائلة ميسنير مثل جدّك وأبيك وأبناء أعمامك ولكي لا تعمل في دكان جزّار طوال حياتك. إنك لست هنا لتبحث عن المشاكل مع فتاة أمسكت سكيناً وقطعت رسغيها بها».

فقلت مصححاً: «رسغ. لقد قطعت رسغاً واحداً».

«رسغ واحد يكفي. لدينا اثنان فقط، وواحد كثير جداً. ماركي، سأبقى مع أبيك، ومقابل ذلك سأطلب منك أن تتخلى عنها قبل أن

Twitter: @ketab_n

تتورط معها حتى أذنيك ولا تعود تعرف كيف تخرج من ورطتك هذه. أريد أن أعقد صفقة معك. هل ستعقد معي هذه الصفقة؟».

أجبت، «نعم».

«هذا هو ابني! هذا هو ابني الطويل الرائع! إن العالم مليء بشابات لم يقطعن أرسغهن -لم يقطعن أي شيء. هناك الملايين منهن. ابحث عن واحدة منهن. قد تكون غير يهودية، قد تكون أيّ شيء. إننا في عام ١٩٥١. إنك لا تعيش في عالم أبويّ القديم وآبائهم وآباء آبائهم. لماذا يتعين عليك أن تفعل ذلك؟ فقد أصبح ذلك العالم قديماً جداً، وقد ولّى كلّ شيء فيه. إن كلّ ما تبقى منه هو اللحم الكوشر. هذا يكفي. يجب أن يكون الأمر كذلك. ربما يجب أن يكون كذلك. يمكن أن تذهب جميع الأشياء الأخرى. ولم نعش نحن الثلاثة قط مثل أولئك الناس الذين يعيشون في حي اليهود منعزلين، ولن نبدأ ذلك الآن. إننا أمريكيون. اخرج مع أي فتاة تريد، تزوّج أي واحدة ترغب، افعل ما شئت مع من تختار - ما دامت لم تمسك سكيناً لتنهي حياتها. إن الفتاة المجروحة التي تقدم على مثل هذا الأمر ليست لك. فتاة ترغب في أن تطهّر حياتها قبل أن تبدأ أنت حياتك - بالتأكيد لا! لا تهمك فتاة كهذه، إنك لست بحاجة إلى فتاة مثلها، مهما بلغت من جمال، ومهما أحضرت لك من الأزهار الجميلة. إنها صبية جميلة، لا شكّ في ذلك. من الواضح أنها من منبت جيد. بل ربما كانت هناك أمور في تربيتها لا يمكن للعين أن تراها. لا يمكنك أن تعرف هذه الأشياء. لا يمكنك أن تعرف حقيقة ما يجري في بيوت الناس. عندما يشذّ الطفل، انظر أولاً إلى أسرته. وبالرغم من ذلك، فقد هفا لها قلبي. لا يوجد لدي شيء ضدّها. أتمنّى لها حظاً سعيداً. إني أصلّي من أجلها، بأن لا تكون حياتها فاشلة وفارغة. لكنك ابني الوحيد وطفلي الوحيد، ولا أتحمل

Twitter: @ketab_n

مسؤولية تجاهها هي، بل تجاهك أنت. يجب أن تقطع كل علاقة لك بها. يجب أن تبحث في مكان آخر عن صديقة لك».

قلت: «فهمت».

«صحيح؟ أم أنك تقول لي ذلك لكي تتحاشى الجدال معي؟».

«إني لا أخشى الشجار يا أمي، وأنت تعرفين ذلك».

«أعرف أنّك فتى قوي. لقد وقفت في وجه أبيك وهو ليس ضعيفاً. وكنت محقّاً عندما واجهته؛ بيننا نحن الاثنين، كنت فخورة بك عندما واجهته. لكني أتمنّى أن هذا لا يعني أنني عندما أتركك، أن تغيّر رأيك. لن تفعل ذلك يا ماركي؟ عندما تعود إلى الجامعة، عندما تأتي لتراك، عندما تبدأ بالبكاء وترى دموعها، فإنك لن تغيّر رأيك؟ هذه الفتاة مليئة بالدموع. تستطيع أن ترى ذلك في اللحظة التي تنظر فيها إليها. إنها مليئة بالدموع في داخلها. هل تستطيع أن تقاوم دموعها يا ماركوس؟».

«نعم».

«هل يمكنك أن تقاوم الصراخ الهستيري، إذا وصلت إلى ذلك؟ هل تستطيع أن تقاوم توسلاتها المستميتة؟ هل يمكنك أن تنظر إلى الناحية الأخرى عندما تتوسل إليك، وتتوسل بألم تطلب منك ما تريده وأنت لا تريد أن تعطيه لها؟ نعم، يمكنك أن تقول لأبيك: 'هذا ليس من شأنك. دعني وشأني!'. لكن هل تملك هذه القوة لتقاوم ذلك؟ لأنه لديك ضمير كذلك. ضمير أفتخر بأنك تتمتع به، لكن يمكن أن يكون الضمير عدواً لك. لديك ضمير وتتمتع بالشفقة وتتمتع باللطف والحلاوة أيضاً - لذلك قل لي، هل تعرف كيف تفعل هذه الأشياء كما يجب في وجه هذه الفتاة؟ لأن ضعف الآخرين قد يحطّمك بالقدر الذي تستطيع قوتهم أن تفعل ذلك. إن الناس الضعفاء ليسوا غير

Twitter: @ketab_n

مؤذين. فقد يكون ضعفهم هو قوتهم. قد يكون الشخص غير المستقر خطراً عليك يا ماركي، وفخّاً».

«أمّاه، ليس من الضروري أن تكملي. توقّفي هنا. لقد اتفقنا».

هنا ضمتني بين ذراعيها، ذراعيها القويتين بقوة ذراعي، إن لم تكونا أقوى، وقالت: «إنك فتى عاطفي. عاطفي مثل أبيك وجميع إخوته. إنك ميسنير مثل جميع أفراد عائلة ميسنير. ذات يوم كان أبوك الرجل العاقل، الوحيد الذي يحمل رأساً على كتفيه. الآن، لسبب لا أعرفه، أصبح مجنوناً كالآخرين. إن عائلة ميسنير ليست عائلة جزّارين فقط، إنها عائلة من الصارخين، عائلة من الزاعقين، عائلة تضع أقدامها على الأرض، وتدق رؤوسها بالحائط، والآن، فجأة، أصبح أبوك سيئاً مثل الآخرين. لا تكن هكذا. كن أكبر من مشاعرك. لست أنا الذي يطلب منك ذلك - بل الحياة تطلب منك ذلك، وإلا جرفتك مشاعرك. ستجرفك إلى البحر وستتلاشى هناك. قد تكون المشاعر أكبر مشكلة في الحياة. يمكن أن تلعب المشاعر أكثر الخدع فظاعة. لقد لعبتها عليّ عندما جئت إليك وقلت إنني سأطلّق أباك. الآن استطعت أن أتغلب على هذه المشاعر. عدني بأنك ستفعل الشيء ذاته بمشاعرك».

«أعدك بذلك».

قبّل أحدنا الآخر، وعندما فكّرنا بأبي، التحمنا معاً بواسطة عواطفنا ورغبتنا الشديدة في أن تقع معجزة.

في المستوصف، أروني سريراً من بين ثلاثة أسرّة مستشفى ضيّقة في غرفة صغيرة مضيئة تطل على غابة الحرم الجامعي - سيخصص لي خلال الأسبوع القادم. وأرتني الممرضة كيف أسحب الستارة لكي تحجب سريري عن الأسرّة الأخرى بغرض الخصوصية، مع أنها

Twitter: @ketab_n

أخبرتني بأن السريرين الآخرين كانا فارغين، لذلك سيكون المكان في الوقت الحالي مخصصاً لي تماماً. وأرتني الحمّام عبر القاعة، حيث كانت هناك مغسلة ومرحاض ودش. وذكّرني منظر كلّ واحدة منها بأمّي وهي تنظّف الحمّام في المستشفى - بعد أن غادرتنا أوليفيا عائدة إلى الجامعة - بعد أن تركتنا أوليفيا، التي لن أستدعيها إلى حياتي ثانية، إذا كان عليّ أن أمضي وأفي بالوعد الذي قطعته على أمّي.

رافقني سوني كوتلر إلى المستوصف وساعدني في نقل أمتعتي وكتبي وبضع مواد للحمّام - وفقاً لتعليمات الطبيب عندما غادرت المستشفى بأن لا أحمل أو أرفع شيئاً. وعندما عدت من المستشفى في السيارة، قال لي سوني إنني أستطيع أن أتصل به كلما احتجت إلى شيء، ودعاني إلى دار رابطة الأخوّة لتناول طعام العشاء في تلك الليلة. كان في غاية الرقة واللطف، وتساءلت إن كانت أمّي قد حدثته عن أوليفيا وطلبت إليه أن يحيطني بالرعاية بهذا الشكل لكي لا أشتاق إليها، لأفي بالوعد الذي قطعته لها، أم أنه كان يخطّط سرّاً لزيارتها وعاد يخرج معها بعد أن أقسمت بأنني سأهجرها. ورغم مساعدته لي، لم أتمكن من التغلّب على وساوسي وشكوكي.

كان كلّ شيء أراه أو أسمعه يجعل أفكاري تتجه نحو أوليفيا. رفضت الدعوة للذهاب إلى دار رابطة الأخوّة مع سوني، وبدلاً من ذلك تناولت طعامي وحدي في كافتيريا الجامعة، متمنياً أن أجد أوليفيا تتناول طعامها وحدها على إحدى الطاولات الصغيرة. وعندما عدت إلى المستوصف، أخذت الطريق الطويل، ومررت بمطعم «البومة»، وألقيت نظرة لأرى إن كانت تتناول هناك طعامها وحدها، مع أنني كنت أعرف أنها لم تكن تحب هذا المكان مثلي. وطوال الوقت، رحت أبحث عن فرصة لأراها، وكنت اكتشف طوال الوقت أن كلّ شيء، بدءاً من الحمّام في المستشفى، يذكّرني بها، وكنت أخاطبها

Twitter: @ketab_n

في داخل رأسي: «لقد اشتقت إليك. سأشتاق إليك دائماً. لن يكون هناك أحد مثلك!». وعلى نحو متقطّع، كان يأتيني ردّها، بصوتها الشجي الرقيق، «لقد رميت سهماً في الهواء/ وسقط على الأرض لا أعرف أين». «أوه، يا أوليفيا»، قلت في نفسي، وبدأت أكتب لها رسالة أخرى، هذه أيضاً في رأسي، «إنك في غاية الروعة، إنك فتاة فائقة الجمال، بالغة الذكاء، مليئة بالوقار، مشرقة وشفافة، جذابة ومثيرة، لا مثيل لك. وماذا لو جرحت رسغك؟ ألم يلتئم جرحك؟ وكذلك أنتِ! وما الضير في أنك مصصت قضيبي - وأين الجريمة في ذلك؟ وما الضير في أنك مصصت قضيب سوني كوتلر - أين...». لكن تلك الفكرة، واللقطة التي رافقتها، لم يكن من السهل احتمالهما، وبذلت أكثر من جهد لكي أمحوهما، «أريد أن أكون معك. أريد أن أكون بقربك. إنك إلهة - كانت أمّي محقّة. ومن يهجر إلهة لأن أمّه طلبت منه ذلك؟ إن أمّي لن تطلّق أبي مهما فعلت. لا يمكن أن ترسله ليعيش مع القطط وراء الدكان. إن قولها بأنها كانت تنوي أن تطلّقه، وأنها رأت محامياً لم يكونا إلا حيلة لخداعي. لكن لا يمكن أن تكون حيلة، لأنها أخبرتني بنيتها بالطلاق منه قبل أن تعرفكِ. إلا إذا كانت قد عرفتك عن طريق أقارب كوتلر في نيوآرك. لكن أمّي لن تخدعني بهذه الطريقة. ولا يمكنني أن أخدعها أيضاً. إني في ورطة - فقد قطعت وعداً لا يمكنني أن أنكث به، سيؤدي التزامي به إلى تحطيمي!».

أو ربما، قلت في نفسي، من الممكن ألا أتمكن من أن أفي بالوعد من دون أن تكتشف ذلك... لكني عندما وصلت إلى فصل التاريخ يوم الثلاثاء، تلاشت أي إمكانية بأن أخون ثقة أمّي بي، لأن أوليفيا لم تكن هناك. وتغيبت يوم الخميس أيضاً. ولم أرها جالسة في أي مكان في الكنيسة عندما حضرت صلاة يوم الأربعاء. دقّقت في كلّ

Twitter: @ketab_n

مقعد، في كلّ صفّ، ولم تكن هناك. كنت قد قررت أن أجلس بجانبها في الكنيسة، وأن كلّ شيء سيدفعني إلى الجنون، سيصبح مصدر تسلية، وستضحك أوليفيا ضحكتها الساحرة إلى جانبي.

لكنّها تركت الجامعة تماماً. وقد عرفت ذلك عندما رأيت أنها تغيبت عن درس التاريخ، ثم تأكد لي ذلك عندما اتصلت بها في سكنها وطلبت أن أحدثها. من هو الشخص الذي رفع السماعة وقال: «لقد عادت إلى بيتها»، بتهذيب شديد، لكن بطريقة تريد أن تفهمني أن شيئاً ما قد حدث يتجاوز أن أوليفيا «عادت إلى البيت» فقط - شيئاً ليس من المفترض بأحد أن يتحدث عنه. فعندما لم أزرها، أو أتصل بها، حاولت أن تقتل نفسها مرة أخرى - لا بد أن هذا ما حدث. وبعد أن خاطبتها أمي «بالآنسة هوتون» أكثر من عشر مرات خلال عشرين دقيقة، وبعد أن انتظرت دون جدوى أن أخابرها مرة واحدة عندما عدت إلى المستوصف، أقدمت على عمل ذلك النوع الذي حذّرتني منه أمّي. لذلك كنت محظوظاً، أليس كذلك؟ أنقذت صديقة تحب الانتحار، أليس كذلك؟ نعم، ولم أشعر بأنها كانت محطمة تماماً.

وماذا لو أنها لم تكن قد حاولت أن تقتل نفسها فقط - لنفترض أنها نجحت في ذلك؟ ماذا لو أنها قطعت رسغيها كلاهما هذه المرة، ونزفت حتى الموت في مساكن الطالبات - ماذا لو أنها فعلت ذلك في المقبرة حيث توقفنا بالسيارة في تلك الليلة؟ لم تكن الجامعة هي التي ستكتم الأمر فقط، بل أسرتها أيضاً. وبهذه الطريقة لن يعرف أحد في واينزبيرغ شيئاً عما حدث، ولن يعرف أحد السبب إلا أنا. إلا إذا تركت رسالة، وعندها سينحو الجميع باللائمة عليّ بأنني السبب في انتحارها.

عدت إلى مبنى جينكنز ونزلت الدرجات إلى القبو، عبر مكتب

Twitter: @ketab_n

البريد، لأجد هاتفاً عمومياً ذا باب أغلقه على نفسي بإحكام وأجري اتصالاً هاتفياً من دون أن يسمعني أحد. لم تكن هناك رسالة منها في مكتب البريد - هذا ما تبينته أولاً بعد أن رافقني سوني إلى المستوصف. وقبل أن أجري اتصالي، دقّقت ثانية، ووجدت هذه المرة مغلفاً من الجامعة فيه رسالة خطية من المشرف كودويل:

عزيزي ماركوس:

لقد سررنا جميعنا بعودتك إلى الجامعة، وقد طمأننا الطبيب بأنك تتمتع بصحة ممتازة. أرجو الآن أن تعيد النظر في قرارك بعدم لعب البيسبول عندما يحلّ الربيع. إذ إن فريق السنة القادمة بحاجة إلى لاعب وسط ممشوق الساقين، مثل مارتي ماريون، وتبدو لي أنك مناسب جداً لذلك. أظن أنك سريع على قدميك، وكما تعرف، هناك سبل عديدة لتعلم قواعد اللعبة الأساسية التي تساعد على إحراز نقاط لا تستوجب ضرب الكرة خارج السياج. إن ضربة جميلة قد تكون من أجمل الضربات التي يراها المرء في الملعب. لقد تكلمت مع المدرّب بورتزلين. إنه يتوق لرؤيتك أثناء الاختبارات عندما ستجري في ١ آذار (مارس). أهلاً بك مرة أخرى إلى واينزبيرغ. أحبّ أن أعتبر هذه اللحظة بأنك عدت إلى أهلك. أرجو أنك تفكّر بالطريقة نفسها أيضاً. إذا كنت بحاجة إلى أيّ مساعدة، أرجو ألا تتردد بزيارتي في مكتبي.

المخلص، هاويس د. كودويل،
مشرف قسم الطلاب الذكور

صرفت ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات إلى أرباع عند كوّة مكتب البريد، وبعد أن أغلقت الباب الزجاجي الثقيل، وقفت داخل كشك الهاتف، ورتّبت الأرباع في أربع مجموعات على الرفّ

Twitter: @ketab_n

المنحني تحت الهاتف الذي تجرأ «ج. ل.» على حفر الأحرف الأولى من اسمه عليه. تساءلت على الفور كيف سُيعاقب ج. ل. عندما يمسكون به.

كنت مهيأً لشيء لا أعرف ما هو، وكان العرق يبللني كما كنت في مكتب كودويل. اتصلت برقم الاستعلامات الخارجية وطلبت الدكتور هوتون في هانتينغ فالي. كان هناك شخص بهذا الاسم، الدكتور تايلر هوتون. سجّلت رقمين، رقم لمكتب الدكتور هوتون والرقم الآخر لبيته. كان الوقت لا يزال نهاراً، وبما أنني كنت قد أقنعت نفسي بأن أوليفيا قد ماتت، فقد قرّرت أن أتصل بالمكتب، معتقداً أن أباها لن يكون في المكتب بسبب الوفاة التي حدثت في عائلته، وأنني إذا تكلمت مع موظفة الاستقبال أو الممرضة، يمكنني أن أحصل على فكرة عما حدث. لم أشأ أن أكلّم أحداً من أبويها خشية أن أسمع أحدهما يقول: «إذاً أنت هو ذلك الشخص، أنت هو ذلك الفتى - أنت هو ماركوس الذي كتبت اسمه في رسالة الانتحار». بعد أن أوصلني عامل الهاتف برقم العيادة، ووضعت الأرباع في الشقّ المخصص لها، قلت، «هالو، أنا صديق أوليفيا»، لكني لم أعرف ماذا سأقول بعد ذلك. «هذه عيادة الدكتور هوتون»، قالت لي المرأة على الطرف الآخر من الهاتف. قلت: «نعم، أريد أن أسأل عن أوليفيا». «هذه هي العيادة»، قالت، وأقفلت الخط.

توجهت مباشرة أسفل التلّ من المبنى الرئيسي المربع الأضلاع باتجاه مسكن الطالبات وصعدت الدرجات إلى قاعة دولاند هول، حيث كانت تقيم أوليفيا، وحيث كانت تنتظرني عندما أتيت وأخذتها بسيارة إلوين، ليلة ذلك الموعد الذي ختم موتها. دخلت. كانت تجلس الطالبة المناوبة وراء الطاولة التي تسد الطريق إلى الطابق الأول وصحن الدرج. أريتها بطاقة هويتي، وطلبت منها أن تتصل بالطابق

Twitter: @ketab_n

الذي تقيم فيه أوليفيا لأخبرها أنني أنتظرها في الطابق الأرضي. كنت قد اتصلت بدولاند يوم الخميس، عندما لم تحضر أوليفيا للمرّة الثانية مادة التاريخ، وطلبت أن أكلّمها. كان ذلك عندما قيل لي إنها «عادت إلى البيت». «متى ستعود؟». «لقد عادت إلى البيت». وهكذا سألت عنها ثانية، هذه المرة شخصياً، ومرة أخرى سمعت الجواب نفسه. سألتها، «هل ذهبت ولن تعود؟» هزت الفتاة المناوبة كتفها. «هل هي بخير، هل تعرفين؟». فكرت بالسؤال طويلاً، وأخيراً قررت ألاّ ترد.

كان يوم الجمعة، ٢ تشرين الثاني (نوفمبر). كان قد مضى على خروجي من المستشفى خمسة أيام، وأصبح عليّ أن أصعد درجات الطوابق الثلاثة إلى غرفتي في قاعة نيل هول يوم الاثنين، مع أنني كنت أشعر بأنني أضعف مما كنت عندما أخرجوني من السرير لأمشي الخطوات الأولى بعد العملية. بمن يمكنني أن أتصل لأتأكد من أن أوليفيا قد ماتت دون أن يتهمني أحد بأنني أنا الذي قتلها؟ هل نشر نبأ موتها في الصحف؟ ألا يجب عليّ أن أذهب إلى المكتبة وأبحث في صحف كليفلاند اليومية؟ من المؤكد أن صحيفة البلدة لن تنقل الخبر، «واينزبيرغ إيغل»، أو صحيفة الطلاب «عين البومة». من الممكن أن تنتحر عشرين مرة في تلك الجامعة، ولا يظهر خبر واحد في تلك الصحيفة التي لا طعم لها. ماذا أفعل في مكان مثل وايسنبرغ؟ لماذا لم أعد لأتناول طعام غدائي من الكيس الورقي مع السكارى في حديقة المدينة مع سبينيلي، وألعب في فريق روبرت تريت، وآخذ كلّ هذه الدروس العظيمة من أساتذتي في نيويورك؟ لولا أبي، لولا فلوسير، لولا إلوين، لولا أوليفيا!».

ثم انطلقت عائداً من دولاند إلى مبنى جينكنز، ورحت أغذّ الخطى في بهو الطابق الأول متجهاً نحو مكتب المشرف كودويل، وسألت سكرتيرته إن كان بإمكاني أن أراه. جعلتني أنتظر جالساً في

Twitter: @ketab_n

الكرسي أمام طاولتها في المكتب الخارجي حتى أنهى المشرف اجتماعاً مع طالب آخر. وتبين لي أن هذا الطالب هو بيرت فلوسير، الذي لم أره منذ أن انتقلت من غرفتي. ما سبب وجوده مع المشرف؟ بل لماذا لم يكن مع المشرف كلّ يوم؟ لا بد أنه يأتي لرؤيته دائماً. لا بد أنه في خلاف مع الجميع على الدوام. الاستفزاز والتمرّد والاستهجان. كيف يمكنك أن تبقي على هذه الدراما بين يوم وآخر؟ ومن غير فلوسير يريد أن يكون دائماً على خطأ، وأن يوجه له اللوم والتوبيخ، الوحيد الذي كان محتقراً، يمقته الجميع؟ أي مكان أفضل من واينزبيرغ بالنسبة لبيرترام فلوسير لكي يسترسل في غيه دون أن يلقى توبيخاً شديداً؟ هنا في عالم الصالحين، كان الملعون في مكانه الطبيعي - أكثر مما يمكن أن يقال عني.

ودون أن يولي أي اعتبار لوجود السكرتيرة، قال لي فلوسير: «التقيؤ، عمل جيد»، ثم مضى نحو الباب باتجاه المدخل، ثم التفت وقال: «سأنتقم منك شر انتقام». وتظاهرت السكرتيرة بأنها لم تسمع شيئاً، وكان كل ما فعلته أنها نهضت لترافقني إلى باب غرفة المشرف، حيث قرعت على الباب وقالت: «السيد ميسنير».

تقدم من وراء طاولة مكتبه ليصافحني. لقد زالت السمعة السيئة التي خلّفتها ورائي منذ فترة طويلة. إذاً كيف عرف فلوسير بها؟ هل كان الجميع يعرفون الأمر؟ ألأن سكرتيرة مشرف قسم الطلاب الذكور جعلت ذلك دأبها لتخبرهم؟ هذه الجامعة المنافقة التي تتظاهر بالتقوى، الجامعة التي تشبه المبولة، كم كنت أكرهها.

«إنك تبدو في صحة جيدة يا ماركوس»، قال المشرف، «لقد خسرت من وزنك بضعة كيلوغرامات، لكن ما عدا ذلك، فإنك تبدو على ما يرام».

«المشرف كودويل، لا أعرف شخصاً آخر يمكنني أن أتوجه إليه

Twitter: @ketab_n

لأكلمه عن شيء في غاية الأهمية بالنسبة لي. لم أكن أقصد أن أتقيأ هنا، كما تعرف».

«كنت مريضاً وهذا كل ما في الأمر. والآن فإنك تتماثل للشفاء وستستعيد كامل صحتك قريباً. بماذا يمكنني أن أساعدك؟».

قلت: «جئت لأسأل عن طالبة. كانت معي في فصل التاريخ. وقد ذهبت الآن. وعندما أخبرتك بأنني كنت قد تواعدت مع فتاة، كانت هي تلك الفتاة. إنها أوليفيا هوتون. لقد اختفت الآن، ولا أحد يريد أن يخبرني أين هي ولماذا اختفت. أريد أن أعرف ماذا حدث لها»، وأضفت، «أخشى أن يكون قد حدث لها مكروه. أخشى أن يكون لي علاقة بذلك».

ما كان ينبغي لك أن تقول ذلك، قلت لنفسي. إنهم سيطردونك لأنك ساهمت في انتحارها، بل قد يسلمونك إلى الشرطة. لعلهم سلموا ج. ل. إلى الشرطة.

كانت رسالة المشرف التي يرحّب فيها بعودتي «مستعيداً نشاطي» إلى الجامعة لا تزال في جيبي.

كنت قد استلمتها للتو. وهذا ما شدّني إلى مكتبه - بهذه الحماقة تصرفت.

سألني: «ما الذي فعلته لكي تظن ذلك؟».

«لقد أخذتها في موعد غرامي».

«هل حدث شيء في ذلك الموعد تريد أن تخبرني به؟»

«لا يا سيدي»، لقد جذبني للمجيء إلى هنا مجرد رسالة لطيفة. *إن ضربة سديدة قد تكون أجمل شيء يمكن رؤيته في جميع الألعاب الرياضية*. لقد تكلمت مع المدرّب بورتزلين عنك. إنه يتوق ليراك في الاختبارات... لا، كان كودويل هو الذي يتوق لرؤيتي ليتحدث عن أوليفيا. لقد وقعت في الفخّ الذي نصبه لي.

Twitter: @ketab_n

قال بلطف: «أنا المشرف بالنسبة لك، أرجوك».

«الجواب لا، أيها المشرف»، كرّرت. «لم يحدث شيء أريد أن أخبرك عنه».

«هل أنت متأكّد؟»

«تماماً»، وأستطيع أن أتخيّل الآن رسالة الانتحار، وفهمت كيف أنني ارتبكت وخُدعت لكي أقسم كذباً: «كان بيني وبين ماركوس ميسنير اتصالاً جنسياً ثم تركني كما لو كنت قحبة. أفضّل أن أموت على أن أعيش بهذا العار».

«هل جعلت هذه الشابّة تحمل يا ماركوس؟».

« لماذا؟ لا».

«هل أنت متأكّد؟».

«متأكّد جداً».

«لم تكن حاملاً حسب علمك».

«لا».

«إنك تقول الحقيقة».

«نعم!»

«وألم ترغم نفسك عليها. ألم ترغم نفسك على أوليفيا هوتون».

«لا يا سيدي. مطلقاً».

«لقد زارتك في غرفتك في المستشفى، ألم تفعل ذلك؟».

«نعم، أيها المشرف».

«بحسب ما قاله أحد العاملين في المستشفى، ثمة شيء حدث بينكما في المستشفى. لوحظ أن شيئاً دنيئاً قد حدث وسُجّل وفق الأصول المتبعة. ومع ذلك تقول إنك لم ترغم نفسك عليها في غرفتك».

«لقد تم استئصال زائدتي الدودية فقط، أيها المشرف».

Twitter: @ketab_n

«هذا لا يجيب عن سؤالي».

«لم أستخدم القوة في حياتي، أيها المشرف كودويل، على أي شخص. لم يكن يتعين عليّ أن أفعل ذلك».

«لم يكن يتعين عليك ذلك. هل لي أن أسأل ماذا يعني ذلك؟».

«لا، لا يا سيدي، لا تستطيع. أيها المشرف كودويل، هذا أمر يصعب جداً أن أخوض فيه. أعتقد أني أمتلك الحقّ بأنه مهما حدث سراً في غرفتي في المستشفى فإنه أمر بيني وبين أوليفيا فقط».

«ربما نعم وربما لا. أعتقد أن الجميع يوافقون على أنه إذا كان الأمر بينكما فقط، ففي ضوء الظروف الحالية، لم يعد الأمر كذلك. وأظن أننا نتفق على أن هذا ما جعلك تأتي لرؤيتي».

«لماذا؟»

«لأن أوليفيا لم تعد هنا».

«أين هي؟».

«أوليفيا أصيبت بانهيار عصبي يا ماركوس. وتعيّن نقلها بسيارة الإسعاف».

هل حقاً هي تلك الفتاة هي التي نُقلت في سيارة الإسعاف؟ تلك الفتاة التي أُنعم عليها بذلك العقل وبذلك الجمال وبذلك الاتزان وبذلك السحر وبذلك الذكاء؟ يكاد يكون ذلك أسوأ من كونها قد ماتت. أجمل وأذكى فتاة تُنقل بسيارة إسعاف بسبب إصابتها بانهيار عصبي بينما الآخرون هنا في هذه الجامعة يقدّرون أنفسهم وفق التعاليم الإنجيلية، ويشعرون بأنهم على أحسن ما يرام!

«لا أعرف حقاً ماذا يعني الانهيار العصبي»، قلت لكودويل.

«هو أن تفقد السيطرة على نفسك. أن يصبح كلّ شيء ثقيلاً عليك، ولا تعود تحتمله فتنهار بأي طريقة يمكنك تصورها. لا يعود

Twitter: @ketab_n

بإمكانك أن تتحكم بعواطفك مثل طفل رضيع، وعندها يتعيّن عليك أن تدخل المستشفى وتحصل على الرعاية مثل أي طفل إلى أن تتماثل للشفاء. هذا إذا تماثلت للشفاء في حياتك. لقد غامرت الجامعة بقبول أوليفيا هوتون. كنا نعرف تاريخها العقلي. كنا نعرف قصة معالجتها بالصدمات الكهربائية، وكنا نعرف تاريخ انتكاستها الحزينة المرّة تلو المرّة. لكن أباها جرّاح من كليفلاند، وأحد الخريجين البارزين من جامعة وايتزبيرغ، لذلك قبلناها بناء على طلب من الدكتور هوتون. لم تجر الأمور لا لصالح الدكتور هوتون ولا لصالح الجامعة، ولم يكن ذلك لصالح أوليفيا أيضاً».

«لكن هل هي على ما يرام؟»؛ عندما سألته هذا السؤال شعرت وكأنني أصبحت أنا نفسي على حافة الانهيار. أرجوك، قلت لنفسي، أرجوك، يا سيد كودويل، لنتكلّم بعقلانية عن أوليفيا، وليس عن «الانتكاسة المرة تلو المرة»، وعن « الصدمات الكهربائية»! ثم أدركت أن هذا ما كان يفعله.

قال: «لقد قلت لك إن الفتاة أصيبت بانهيار عصبي. لا، إنها ليست على ما يرام. إن أوليفيا حبلى. على الرغم من تاريخها، هناك شخص جعلها حبلى».

قلت: «لا. وأين هي؟».

«في مستشفى متخصّص بالرعاية النفسية».

«لكن من الممكن ألا تكون حبلى أيضاً».

«من الممكن، وهي كذلك. شابّة لا حول لها ولا قوة، فتاة حزينة تعاني من مشاكل عقلية وعاطفية قديمة، غير قادرة على حماية نفسها جيداً من مخاطر الحياة التي تتعرض لها صبية شابّة، وقد استغلها أحدهم».

«لست أنا»، قلت.

Twitter: @ketab_n

«ما بلغنا عن تصرّفك عندما كنت مريضاً في المستشفى يوحي بعكس ذلك يا ماركوس».

«لا يهمني بماذا يوحي. لا يمكن اتهامي من دون وجود دليل. سيدي، إني أشعر بالامتعاض مرة أخرى من تصويرك لي. إنك تزيّف دوافعي وتزيّف تصرفاتي. إني لم أمارس الجنس مع أوليفيا». ومتدفقاً بعنف قلت: «لم أمارس الجنس مع أي فتاة. لا يمكن أن تحمل أي فتاة في هذا العالم بسببي. إنه شيء مستحيل!».

فقال المشرف: «بحسب ما نعرفه الآن، يصعب أن نصدق ما تقول أيضاً».

«أوه، اللعنة عليك!»؛ نعم، بعنف، وبغضب، وباندفاع، وللمرّة الثانية في واينزبيرغ. لكن لا يمكنهم أن يتهموني بدون دليل. لقد سئمت من الجميع.

استوى واقفاً، لا ليرجع إلى الوراء مثل إلوين ويوجه إليّ طلقة، بل ليُظهر نفسه بكلّ فخامة مكتبه. لم يتحرك فيه شيء سوى عينيه اللتين مسحتا وجهي وكأنه في حد ذاته فضيحة أخلاقية.

غادرت، وبدأ الانتظار الذي لن يدوم. لم أصدق أنه من الممكن أن تكون أوليفيا حاملاً، كما لم أصدق أنها يمكن أن تكون قد مصّت قضيب كوتلر أو قضيب أي شخص آخر في واينزبيرغ سواي. لكن سواء كانت حبلى أم لا - من دون أن تخبرني؛ أصبحت حبلى بين عشية وضحاها. ربما كانت حبلى قبل أن تأتي إلى واينزبيرغ؛ حبلى، هذا مستحيل، مثل مريم العذراء التي يؤمنون بها - لقد انجرفت إلى هذا الابتذال ليس بسبب جامعة واينزبيرغ فقط، بل بسبب الاستقامة التي تطغى على حياتي، الاستقامة التي تعتصرك، كنت مستعداً لأن أستنتج أنه هو الذي دفع أوليفيا إلى الجنون. لا تنظري إلى العائلة لمعرفة السبب، يا أماه، انظري إلى ما يحرّمه العالم التقليدي! انظري

Twitter: @ketab_n

إليّ، أنا الذي كنت شخصاً تقليدياً إلى درجة تثير الشفقة عندما وصلت إلى هنا إلى حد أني لم أكن أثق بفتاة لأنها مصتّه!

غرفتي. غرفتي، بيتي، صومعتي، ملاذي الصغير في واينزبيرغ، عندما وصلت إليه يوم الجمعة ذاك مرهقاً أكثر مما كنت أتوقع بعد أن صعدت الدرجات، وجدت أن الملاءات والبطانيات ووسادات السرير متناثرة في كلّ اتجاه، والفراش ملقى على الأرض، ومحتويات دروج خزانتي متناثرة ومفتوحة. وكانت قمصاني الداخلية وسروالي الداخلية وجواربي ومناديلي مبعثرة فوق الأرضية الخشب المهترئة، بالإضافة إلى قمصاني وبناطيلي التي سُحبت مع مشاجبها من الخزانة الصغيرة وألقي بها في كل مكان. ثم رأيت - في الزاوية تحت نافذة الغرفة الصغيرة العالية - القمامة: بذور تفاح، قشر موز، علب كوكا كولا، علب بسكويت، أغلفة سكاكر، مرطبانات جيلي، وقطع من سندويشات مأكولة، وقطع ممزقة من الخبز ملطخة بشيء ظننته في البداية خراء، لكن الحمد لله تبين لي أنه مسحوق الفول السوداني. وخرج فأر من وسط الكومة وراح يجري تحت السرير وغاب عن نظري. ثم فأر ثان. ثم ثالث.

أوليفيا. الغاضبة مني ومن أمّي، جاءت لتبعثر الأشياء في غرفتي وتلوثها ثم ذهبت لتنتحر. لقد أثار ذعري التفكير بأنها من شدة غضبها، ربما وضعت حداً لهذا الفشل الذريع المجنون بأن قطعت رسغيها فوق سريري.

وكانت تنبعث من الغرفة رائحة طعام عفن، ورائحة أخرى، بالشدّة نفسها، لكنني لم أستطع أن أميّزها على الفور، وكنت مذهولاً جداً بما رأيته وحدسته. فقد رأيت تحت قدميّ مباشرة فردة جورب مقلوبة من الداخل إلى الخارج. أمسكت الجورب ورفعته إلى أنفي.

Twitter: @ketab_n

لم تكن رائحة الجورب الذي كان كتلة متصلبة رائحة أقدام، بل رائحة سائل منوي جاف. ولم تسلم من ذلك إلا الثياب التي كنت قد اشتريتها بمائة دولار من مخزن الجامعة لأنني كنت أرتديها عندما ذَهبت إلى المستوصف بسبب التهاب الزائدة الدودية.

خلال فترة إقامتي في المستشفى، لا بد أن شخصاً يأتي إلى غرفتي ويستمني ليلاً ونهاراً فوق أغراضي. بالطبع، إنها ليست أوليفيا. إنه فلوسير. لا بد أنه فلوسير. *سأنتقم منك شر انتقام*. وكان هذا هو انتقامه مني.

وفجأة بدأت أتقيأ - بسبب الصدمة ومن الروائح المنبعثة - وخرجت من الباب لأسأل بصوت عال في البهو الخاوي ماذا فعلت لبيرترام فلوسير حتى يتلف جميع أغراضي ويعبث بها. عبثاً حاولت أن أفهم المتعة التي تملكته في إتلاف وتدنيس كلّ شيء أملكه. كودويل من ناحية، وفلوسير من الناحية الأخرى؛ أمّي من ناحية، وأبي من الناحية الأخرى؛ أوليفيا الجميلة العابثة من ناحية، وأوليفيا المنهارة من ناحية أخرى. وبينهم جميعهم، أدافع عن نفسي بإلحاح بعبارة «إلى الجحيم» الغبية.

أوضح لي سوني كوتلر كلّ شيء عندما جاء بسيارته ورافقته إلى الطابق العلوي لأريه الغرفة. قال سوني وهو واقف عند الباب معي: «إنه يحبّك يا ماركوس. هذا عربون محبته». «القمامة أيضاً؟». فقال سوني: «القمامة خاصة»؛ «لقد انزلقت قدما جون باريمور من واينزبيرغ»؛ «هل هذا صحيح؟ فلوسير شاذ جنسياً؟»؛ «مجنون مثل صانع قبعات منيك، شاذ مثل ورقة ثلاثة دولارات. كان ينبغي لك أن تراه وهو يرتدي سرواله الحريري الذي يصل إلى الركبة في مسرحية «مدرسة الفضائح». إن فلوسير مهرّج رائع على المسرح، أما خارج المسرح فهو مجنون. خارج المسرح يكون فلوسير شخصاً قبيحاً.

Twitter: @ketab_n

هناك مثل هؤلاء الناس البشعين يا ماركوس، وقد وقعت في يد أحدهم الآن»؛ «لكن هذا ليس حباً، هذا عبث»؛ «كثير من الأشياء المتعلقة بالحبّ سخيفة وعبثية»، قال كوتلر: «إنه يثبت لك كم هو قوي»؛ فقلت: «لا، إن كان ذلك يعني شيئاً، فهو يعني الكراهية. إنه عداء. لقد حوّل فلوسير غرفتي إلى نفاية قمامة لأنه يكرهني. وماذا فعلت أنا؟ لقد كسرت الأسطوانة التي لم يكن يجعلني أنام بسببها طوال الليل! كان ذلك قبل عدة أسابيع، كان ذلك عندما جئت إلى هنا. وقد اشتريت له أسطوانة جديدة. ذهبت في اليوم التالي وأعطيته إياها! لكن لكي يفعل شيئاً هائلاً ومدمراً ومقرفاً كهذا، وأنني يجب أن ألتصق به لفترة طويلة - لا معنى لذلك. تظن أنه كان يهتم بأي شخص مثلي - وبدلاً من هذا الاصطدام، هذا الشجار، هذا البغض! ماذا الآن؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ كيف يمكنني أن أعيش هنا بعد الآن؟».

«لا يمكنك أن تقيم هنا الآن. سنعدّ لك الليلة سريراً صغيراً في البيت، ويمكنني أن أستعير لك بعض الملابس»؛ «لكن انظر إلى هذا المكان، شم هذه الرائحة! إنه يريدني أن أتمرّغ في هذا الخراء! يا إلهي، يجب أن أكلّم المشرف، أليس كذلك؟ يجب أن أبلّغه عن هذا الانتقام، أليس كذلك؟»؛ «المشرف؟ كودويل؟ لا أنصحك بذلك. فلن يسكت فلوسير يا ماركوس، إذا كنت أنت من سيعبث به. إذا كلّمت المشرف كودويل، فإنه سيخبره بأنك أنت الرجل الذي في حياته. إذا كلّمته فإنه سيخبر كودويل بأنكما قد تشاجرتما بعد أن كنتما عاشقين. إن فلوسير هو البوهيمي الممقوت. نعم، حتى في واينزبيرغ هناك واحد منهم. لا يستطيع أحد أن يكبح جماح بيرترام فلوسير. إذا طردوا فلوسير لهذا السبب، فإنه سيجرك وراءه. إني متأكد من ذلك. إن آخر شيء يجب أن تفعله هو أن تبلغ المشرف. انظر، لقد أجريت

Twitter: @ketab_n

عملية استئصال الزائدة الدودية، ثم حطمّ فلوسير جميع أغراضك. بالطبع لا يمكنك أن تفكر بصورة صحيحة»؛ «سوني لا يمكنهم أن يطردوني من الجامعة»؛ «لكنك لم تفعل شيئاً»، قال، وأغلق باب غرفتي التي كانت تنبعث منها رائحة نتنة، ثم أضاف: «لقد عمل أحدهم شيئاً ضدك».

لكني أنا وحقدي فعلنا الكثير عندما اتهمني كودويل بأنني جعلت أوليفيا حبلى.

لم أكن أحبّ كوتلر، ولم أكن أثق به. وما إن صعدت إلى السيارة بعد أن قبلت عرضه بأن يقدم لي سريراً وبعض الثياب، حتى عرفت أنني ارتكبت خطأ آخر. فقد كان زلق اللسان، مغروراً، لا يعتبر نفسه أفضل من كودويل فقط، بل لعله كان يعتبر نفسه متفوقاً عليّ أيضاً. كان طفلاً من إحدى أرقى الضواحي اليهودية في كليفلاند، ذا رموش داكنة طويلة، وله شق صغير في ذقنه. وعلى الرغم من كونه يهودياً، فقد كان رئيس مجلس رابطة الأخوة للسنة الثانية على التوالي. ابن أب لم يكن جزّاراً بل صاحب شركة تأمين، ولم تكن أمّه تعمل في الجزارة أيضاً، بل كانت وريثة صاحب مخزن كليفلاند الكبير. كان سوني كوتلر يعاملني بلطف شديد. وكان شديد الثقة بنفسه، سريعاً وذكياً، لكنه كان بشكل عام شاباً نموذجياً. إن أفضل شيء أفعله قبل أن يقضى عليّ هو أن أبتعد عن جحيم واينزبيرغ وأعود إلى نيو جيرسي، وأحاول العودة إلى جامعة روبرت تريت مع أنني كنت في ثلث الفصل الدراسي. اترك عائلة فلوسير وكوتلر وكودويل وراءك، اترك أوليفيا وراءك، وعد إلى البيت بالقطار غداً، البيت الذي يوجد فيه جزّار مضطرب يتعين عليك أن تتعامل معه، وتتعامل مع مدينة نيوآرك التي يوجد فيها الزنوج واليهود والسلاف

Twitter: @ketab_n

والألمان والإيطاليون والايرلنديون، المجدون، الخشنون، الذين هدتهم الرشوة.

وأنا في هذه الحالة، ذهبت إلى بيت رابطة الأخوّة حيث عرّفني سوني على مارتي زيغلير، أحد أعضاء الأخوّة، كان فتى لطيفاً، ذرب اللسان، وكان يبدو أنه لم يكن بحاجة لحلاقة ذقنه بعد، طالب في السنة الأولى من دايتون يعتبر سوني مثاله الأعلى، ويفعل أيّ شيء يطلبه منه سوني، تابع بالفطرة لقائد بالفطرة، وافق في الحال، في غرفة سوني، على أن يتقاضى دولاراً ونصف الدولار لقاء كل جلسة يحضرها عني في الكنيسة. يوقّع اسمي على بطاقة الحضور، ويسلّمها عند باب الكنيسة وهو خارج، ووعد بأن لا يخبر أحداً بهذا الأمر، عندما يفعل ذلك، أو بعد أن ينهي عمله. كانت ترتسم على وجهه تلك الابتسامة الوديعة التي تظهر على شخص يرغب في أن يعرف الجميع بأنه شخص ودود، وبدا متحمساً لإرضائي ولإرضاء سوني.

كان زيغلير هو الخطأ، كنت واثقاً - الخطأ الأخير - ولم يكن فلوسير الحقود الذي يبغض الجميع في الجامعة. كان زيغلير اللطيف هو القدر الذي خيّم عليّ. كنت مندهشاً بما كنت أفعله، فلم أكن شخصاً تابعاً، لا بالفطرة ولا بالاكتساب، ومع ذلك، استسلمت أنا أيضاً لهذا القائد بالفطرة، بعد يوم منهك كهذا.

بعد أن غادر الغرفة وكيلي الذي سيحضر ويوقع عني في الكنيسة، قال سوني: «لقد سويّنا أمر الكنيسة الآن. إنه أمر بسيط، أليس كذلك؟».

قال ذلك بثقة شديدة بنفسه، مع أني كنت أعرف دون أدنى شكّ، حتى في تلك اللحظة، مثل ابن أب يتملكه الخوف، بأن هذا الفتى اليهودي الشديد الأناقة، الذي يتمتع بصفات أمير، ويفرض احترامه

Twitter: @ketab_n

على الجميع، ويطيعه الآخرون ويتملقونه، والذي لم يكن يتشاجر مع أحد، ويجذب الاهتمام الذي يشي بإعجاب الجميع، الذي كان يجد متعة في اعتبار نفسه أهم شخص في عالم رابطة الأخوّة الصغير، بأنه سيكون ملاك الموت.

كان الثلج يتساقط بغزارة عندما وصلنا أنا وسوني إلى غرفتي في نيل هول، وعندما وصلنا إلى بيت رابطة الأخوّة، كانت سرعة الريح تبلغ أربعين ميلاً في الساعة تقريباً. وكانت العاصفة الثلجية التي هبت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١، قبل عيد الشكر بأسابيع، قد بدأت تغطي المقاطعات الشمالية من الولاية، بالإضافة إلى ولايتي ميشيغان وإنديانا المجاورتين، ثم انتقلت إلى غرب بينسلفانيا وشمال نيويورك، وأخيراً شملت معظم نيو إنكلند، قبل أن تصل إلى البحر. وحتى التاسعة مساء، كانت قد تساقطت تسعة إنشات من الثلج. ثم بدأ الثلج يتساقط بطريقة سحرية، دون أن تصاحبه رياح تهبّ في شوارع واينزبيرغ، ودون أن تتمايل أشجار البلدة القديمة، وتصدر صريراً، ودون أن تلسع الرياح أطرافها الضعيفة، التي راحت تنهار وتسقط تحت ثقل الثلج، في الباحات وتسد الطرق والممرات. الآن، بعد أن توقف عويل الرياح أو الأشجار، بل مجرد كتل جرداء تسقط على الأرض وكأنها تريد أن تدفن كلّ شيء مضطرب ينغص الحياة في تلك المناطق المرتفعة من أوهايو.

بعد الساعة التاسعة تماماً تناهى إلينا صوت هدير سُمع في أرجاء الحرم الجامعي الذي يمتد مسافة نصف ميل تقريباً من شارع بوكي في بيت رابطة الأخوّة اليهودية حيث تناولت طعام عشائي، وقُدِّم لي سرير وخزانة - وبعضاً من ثياب سوني المغسولة حديثاً -لأصبح شريك سوني العظيم في الغرفة، في تلك الليلة وفي ليالٍ أخرى إن أردت.

Twitter: @ketab_n

كان الهدير الذي سمعناه أشبه بهدير منبعث من جمهور في ملعب كرة قدم بعد أن أحرز أحدهم هدفاً. لكنه لم يتوقف. كان مثل هدير جمهور يحتفل بالفوز في إحراز البطولة؛ كالهدير المنبعث من شعب انتصر بعد أن وضعت حرب طاحنة أوزارها.

بدأ الأمر ببراءة: فقد بدأ أربعة فتيان يلهون ويلعبون بكرات الثلج في الساحة المربعة الشكل الفارغة أمام قاعة جينكنز. كانوا طلاباً في السنة الأولى، أتوا من بلدات صغيرة من أوهايو؛ كانوا فتياناً غير ناضجين من الريف، خرجوا من غرفهم ليلعبوا ويمرحوا في أول عاصفة ثلجية في أول فصل دراسي لهم بعيدين عن بيوتهم. في البداية، هرع طلاب السنة الأولى من مبنى جينكنز وانضموا إلى الفتيان الأربعة. وعندما أشرف طلاب المسكنين الآخرين المطلَّين على مبنى جينكنز من نوافذهم لرؤية ماذا يجري في الساحة، بدأوا يتدفقون من مبنى نيل، ثم من مبنى واترفورد، وسرعان ما نشبت معركة حامية الوطيس بكرات الثلج بين عشرات الفتيان السعداء، المفعمين بالنشاط، وهم يرتدون سترات، وفانيلات، وبدلات رياضة، وبيجامات، وكان بعضهم يرتدون ثيابهم الداخلية. وبعد مضي ساعة، لم يقتصروا على أن يقذف أحدهم الآخر بكرات الثلج فقط، بل راحوا يرمون علب البيرة الفارغة التي ملأوها بالثلج. وكنت ترى على صفحة الثلج الناصع بقعاً من الدم الأحمر، بعد أن جُرح بعضهم بسبب تلك الأشياء الطائرة التي شملت كذلك كتباً دراسية، وسلال مهملات، وبرّايات أقلام رصاص، وأقلام رصاص، وقناني حبر مفتوحة الأغطية؛ ولطّخ الحبر الذي تناثر طولاً وعرضاً الثلج باللونين الأسود والأزرق تحت نور مصابيح الغاز القديمة التي كانت تحف الدروب والمسالك ببهاء وألق. لكن الدم الذي كان يسيل منهم لم يخفّف من حدّة حماستهم، بل ربما حولتهم رؤية دمائهم على الثلج الأبيض من

Twitter: @ketab_n

أطفال يلعبون ببهجة وبراءة مستمتعين بالثلج الذي بدأ يهطل فجأة وفي غير حينه، إلى جيش هادر من المتمردين، شجعتهم حفنة قليلة من طلاب السنة الأولى المشاغبين على تحويل أعمالهم الطائشة من ألعاب بريئة إلى أعمال مؤذية، ولتتفجر جميع أنواع العنف والجموح في داخلهم (على الرغم من حضورهم إلى الكنيسة بانتظام)، وراحوا يتدحرجون ويهبطون وينزلقون فوق الثلج السميك، وبدأوا ليلة صاخبة لن ينساها أحد من جيلهم من طلاب واينزبيرغ. وكتب أحدهم في مجلة «نسر واينزبيرغ» افتتاحية مشحونة بالعواطف تعبّر عن اشمئزاز أهل البلدة الغاضبين، بعنوان «الهجوم العظيم للعرق الأبيض في جامعة واينزبيرغ».

ثم هاجموا مباني مساكن الفتيات الثلاث - دولاند، وكونس، وفليمنغ - بعد أن خاضوا في الثلج الذي يغطي الدروب والمسالك، ثم صعدوا الدرجات، وكسروا زجاج الأبواب الموصدة بإحكام في الليل ليفتحوا الأقفال، وكان بعضهم يخبط على الأبواب بقبضاتهم وأقدامهم وأكتافهم، وراحوا يلقون قطع الثلج إلى داخل المساكن التي كان يحظر عليهم دخولها. وقلبوا المقاعد التي تسدّ الطريق إلى مدخل الدرج، ثم اندفعوا إلى الطوابق وانطلقوا إلى غرف النوم والأجنحة في مساكن الطالبات. وبينما راحت الفتيات يجرين في كلّ اتجاه بحثاً عن مكان يختبئن فيه، بدأ الغزاة يفتحون دروج الخزانات، الواحد تلو الآخر، واقتحموا جميع الغرف باحثين عن أي كيلوت أبيض قد تقع أيديهم عليه، وراحوا يرمونها من النوافذ فأخذت تتطاير في الهواء، ثم تسقط في الساحة المكسوة بالثلج الأبيض حيث تجمّع الآن مئات الفتيان الذين خرجوا من مساكنهم الجامعية، وشقوا طريقهم عبر أكوام الثلج العميقة على طول شارع بوكي باتجاه مساكن الطالبات، حيث تجمّعوا وراحوا يهللون ويبتهجون بهذا الاحتفال الوحشي الذي يقوده

Twitter: @ketab_n

طلاب وايتزبيرغ الذي لم تر الجامعة مثيلاً له من قبل.

«كيلوتات. كيلوتات. كيلوتات». كانت هذه هي الكلمة التي ألهبت مشاعرهم كطلبة جامعيين كما كانت تلهبها عندما كانوا مراهقين، الشعار الذي أخذوا يرددونه ببهجة شديدة من الأسفل، وفي الوقت نفسه، صعد إلى غرف الطالبات في الطوابق العليا أعداد كبيرة من الفتيان السكارى، الذين كانت ثيابهم وأيديهم وشعرهم القصير ووجوههم ملطخة بالحبر الأسود والأزرق وباللون القرمزي وتقطر منهم البيرة والثلج الذي بدأ يذوب، وراحوا يفعلون جميعهم ما كان قد فعله فلوسير الملهم وحده في غرفتي الصغيرة في قاعة نيل. لم يفعلوا ذلك جميعهم، بل أكثرهم حماقة - كان ثلاثة طلاب، اثنان من طلاب السنة الأولى، وطالب في السنة الثانية، من بين أوائل الطلاب الذين طُردوا. كانوا قد استمنوا على الكيلوتات المسروقة، استمنوا على الكيلوتات التي افتضوا بكارتها بسرعة، ثم ألقوا بها من النوافذ، مبللة تفوح منها رائحة المني، وتلقفتها أيدي الفتيان المرفوعة إلى أعلى الذين كانوا يهللون ويصرخون ببهجة شديدة، خدودهم حمر، من الطبقة العليا، يغطي الثلج رؤوسهم، والبخار ينبعث من أفواههم كالتنانين.

وبين الحين والآخر، كان ينطلق صوت ذكوري عميق، يتحدث باسم جميع الفتيان المتجمهرين في الساحة، الذين لم يعد بمقدورهم التمسك بالنظام الأخلاقي السائد، وهم يجأرون بوقاحة وجرأة حقيقية معبرين عن رغبتهم - «نريد الفتيات» - لكنهم كانوا بصورة رئيسية مجموعة من الرعاع الذين اكتفوا بالحصول على كيلوتات، الكيلوتات التي سرعان ما وضعها عدد منهم على رؤوسهم وارتدوها مثل قبعات أو لبسوها فوق بناطيلهم. ومن بين الأشياء التي لا تعد ولا تحصى التي كانت تتساقط من النوافذ المفتوحة في الأعلى في تلك الليلة:

Twitter: @ketab_n

حمالات صدر، ومشدات، ومناديل صحية، وأنابيب مراهم، وأحمر شفاه، وقمصان نسائية داخلية، وقمصان داخلية قصيرة، وثياب نوم، وعدد قليل من الحقائب اليدوية، وقليل من العملة الأمريكية، ومجموعة من القبعات المزيّنة الجميلة. وفي أثناء ذلك، نحتوا من الثلج في الساحة المربعّة امرأة ذات ثديين كبيرين وزيّنوها بملابس نسائية داخلية، ووضعوا حشية قطنية نسائية في فمها المطلي بأحمر الشفاه وكأنه سيجار أبيض، وتوّجوها بقبعة عيد فصح جميلة وضعوها فوق تصفيفة شعر صنعوها من حفنة من الدولارات المبللة.

لعل كل ذلك لم يكن ليحدث لو أن الشرطة تمكنت من الدخول إلى الحرم الجامعي قبل أن يصبح رمي كرات الثلج من أمام مبنى جينكنز أمراً خارجاً عن السيطرة. إلا أنهم لم يتمكنوا من إزالة الثلوج من شوارع واينزبيرغ ومن دروب الجامعة إلا بعد أن توقف الثلج عن الهطول، لذلك لم يتمكن رجال شرطة البلدة بسياراتهم الثلاث، ولا بسيارتي حرّاس أمن الجامعة من التقدّم إلا راجلين. وعندما وصلوا، كانت مساكن الطالبات قد حُطمت وأصبحت في فوضى شديدة لم يعد بالوسع احتواؤها.

وتمكن المشرف كودويل من أن يحول دون وقوع المزيد من الهجمات. فقد كان كودويل واقفاً بطوله البالغ ست أقدام وأربع بوصات أمام الشرفة الأمامية في مبنى دولاند هول بمعطفه وشاله حول رقبته منادياً بواسطة مكبّر صوت يحمله بيده بدون قفازات، «يا طلاب واينزبيرغ، يا طلاب واينزبيرغ، عودوا إلى غرفكم! عودوا على الفور وإلا تعرضتم للطرد». إن هذا التحذير الرهيب الذي أطلقه مشرف الجامعة الأكثر احتراماً وتوقيراً (في الواقع كان التجنيد بانتظار الشبان الذين كانوا يبلغون الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من العمر الذين لم يتمكنوا من الحصول على تأجيل من الجندية بسبب دراستهم في

Twitter: @ketab_n

الجامعة) جعل الغوغاء المبتهجين المتجمهرين معاً، الذين كانوا متجهين إلى مساكن الطالبات، يعودون من حيث أتوا بما تمكنوا من سرعة. أما الطلاب الذين كانوا داخل مساكن الطالبات، والذين كانوا لا يزالون يعبثون في دروج خزاناتهن، فلم يتوقفوا عن إلقاء آخر كيلوت من النوافذ - النوافذ التي كانت مشرعة جميعها على مصراعيها بالرغم من درجة الحرارة التي بلغت عشرين درجة فهرنهايت - إلا أنه عندما دخل رجال الشرطة الحرم الجامعي وبدأوا يفتشون عنهم من غرفة إلى غرفة، وبدأ الغزاة يتقافزون من نوافذ الطوابق الواطئة في دولاند وكونس وفليمنغ، ملقين بأنفسهم فوق طبقة الثلج العميقة المتراكمة في الأسفل، إذا لم يكسروا أحد أطرافهم وهم يحاولون الهرب - كما حدث لاثنين منهم - إلى مبنى هيل.

في وقت لاحق من تلك الليلة، قُتل إلوين أيرس. ولكونه إلوين فإنه لم يكن له علاقة بغزوة الكيلوتات. فبعد أن أنهى دراسته، أمضى ما تبقى من الأمسية (وفق الشهادة التي أدلى بها حوالى ستة من أعضاء رابطة الأخوّة التي ينتمي إليها) خلف بيت الرابطة، جاثماً داخل سيارته لا سال، حيث أدار المحرّك لتحميته، ثم خرج من السيارة ليزيل الثلج الذي تجمّع بسرعة فوق سقفها، وفوق غطاء المحرك والصندوق الخلفي، ثم أخذ يزيل الثلج بمجرفة من تحت العجلات الأربع ليثبّت مجموعة جديدة من السلاسل على العجلات. وليتأكد من قوّة السيارة ذات الأبواب الأربعة، موديل ١٩٤٠، ذات الـ ١٣٠ حصاناً، آخر موديل من السيارات الفخمة التي تصنعها شركة جنرال موتورز والتي سميّت على اسم المستكشف الفرنسي، وليرى قوة أدائها وسط الثلج الذي تكدس عالياً في شوارع واينزبيرغ، فقد قرّر أن يقودها في جولة لاختبارها.

Twitter: @ketab_n

وفي وسط المدينة، كان مسؤول محطة القطار ومساعده منهمكين في إبعاد الثلج عن مساري السكة الحديد طوال فترة العاصفة، عندما حاول إلوين، على ما يبدو، أن يزيد من سرعة السيارة قبل وصول قطار بضائع منتصف الليل عند نقطة العبور التي تفصل الشارع الرئيسي عن الشارع الواطئ، فانزلقت لا سال التي لم يتمكن إلوين من السيطرة عليها، ودارت دورتين فوق السكة، واصطدمت مباشرة بالقطار القادم من الشرق والمتجه إلى أكرون. السيارة التي رافقت فيها أوليفيا إلى العشاء، ثم إلى المقبرة - السيارة التاريخية، الفريدة في تاريخ وصول النشوة الفموية إلى حرم جامعة واينزبيرغ في النصف الثاني من القرن العشرين - انزلقت على جانبها، وانقلبت إلى الشارع الواطئ قبل أن تنفجر وتلتهمها النيران، وقُتل إلوين أيرس الابن، من شدة الاصطدام، وسرعان ما احترق حطام السيارة التي كان يرعاها ويفضّلها على أي شيء آخر، والتي كان يحبها أكثر من الرجال أو النساء.

كما تبين في ما بعد، لم يكن إلوين أول، بل ولا حتى ثاني طالب في واينزبيرغ، بل ثالث طالب لم يتمكن من التخرج على مرّ السنين، منذ أن دخلت السيارة إلى الحياة الأمريكية، لأنهم لم يتمكنوا من تجاوز نقطة عبور قطار بضائع منتصف الليل. أما هو فقد تحدى، هو وسيارته، تساقط الثلج الكثيف، وهكذا، مثلي، دخل رفيقي السابق في الغرفة، عالم التذكّر الأبدي بدلاً من أن يدخل عالم قوارب الجر، حيث سيفكّر إلى الأبد بمتعة قيادة تلك السيارة العظيمة. وفي مخيلتي لا أزال أتخيّل لحظة الاصطدام، عندما ارتطم رأس إلوين الذي يشبه شكله شكل يقطينة بالزجاج الأمامي، وتناثر مثل يقطينة إلى مائة قطعة كبيرة من اللحم والعظم والدماغ والدم. والذي كنا قد نمنا في الغرفة ذاتها ودرسنا معاً - وها قد لقي حتفه الآن وهو في الحادية والعشرين من عمره. إلوين الذي أطلق على أوليفيا اسم «كس» - لقي

Twitter: @ketab_n

مصرعه وهو لا يزال في الحادية والعشرين من عمره. كانت أول فكرة خطرت لي عندما سمعت عن حادث إلوين المفجع، أنني لم أكن لأنتقل من الغرفة لو أنني عرفت سلفاً بأنه سيموت. وحتى ذلك الحين، كان الميتون الوحيدون الذين كنت أعرفهم هم أبناء عمي الأكبر الذين قتلوا في الحرب. وكان إلوين الشخص الوحيد الذي مات والذي كنت أكرهه. هل يجب أن أتوقف الآن عن كراهيته لأبدأ الحزن عليه؟ هل يجب عليّ أن أتظاهر الآن بأنني حزنت عندما تناهى إليه خبر موته، وأصابني الذعر عندما عرفت كيف لقي حتفه؟ هل يجب أن أبدو حزيناً وأذهب إلى حفل التأبين في بيت رابطة الأخوّة التي ينتمي إليها، وأقدم تعازيّ إلى أخوته في الرابطة، الذين كنت أعرف العديد منهم الذين كانوا يصفّرون لي من بين أصابعهم وهم سكارى وينادونني بشيء يشبه عبارة «اليهودي» عندما كانوا يريدون أن آتي لخدمتهم في الحانة؟ أم هل يجب أن أحاول العودة إلى الغرفة في جينكنز هول قبل أن يشغلها شخص آخر؟

أصيح: «إلوين! إلوين، هل تسمعني؟ أنا ميسنير! أنا ميت الآن أيضاً».

لا أسمع رداً. لا، لا يوجد رفاق في الغرفة هنا. لكنه في جميع الأحوال، لم يكن سيجيب، ذلك الأير الصامت، المتجهّم، العنيف. إلوين أيرس، في الموت كما في الحياة، لا يزال الغبي، الغامض بالنسبة لي.

«أمي»، أصيح بعد ذلك، «أمي. هل أنت هنا؟ أبي، هل أنت هنا؟ أمي؟ أبي؟ أوليفيا؟ هل يوجد أحد منكم هنا؟ هل متِّ يا أوليفيا؟ أجيبيني! أنت الهدية الوحيدة التي منحتني إياها واينزبيرغ. من الذي جعلك تحملين يا أوليفيا؟ هل أنهيتِ حياتك بنفسك أخيراً، أيتها الفتاة الفاتنة التي لا تقاوم؟».

Twitter: @ketab_n

لكن لا يوجد ثمة أحد يمكنني أن أكلّمه؛ لا يوجد أحد سواي أستطيع أن أحدّثه عن براءتي، عن انفجاراتي، عن إخلاصي، وعن النعمة القصيرة الرائعة في السنة الأولى الحقيقية من مطلع رجولتي والسنة الأخيرة من حياتي. أريد أن يسمعني أحد، لكن لا يسمعني أحد! إني ميت. العبارات التي لا يمكن أن تلفظ، أصبحت تُلفظ.

«أمي! أبي! أوليفيا! إني أفكّر بكم!».

لا استجابة. لا يمكنني أن أستثير أي استجابة من أحد مهما بذلت من محاولات. لقد ذهبت العقول جميعها إلا عقلي. لا توجد ثمة استجابة. إني شديد الحزن.

في صباح اليوم التالي، خصصت صحيفة «نسر واينزبيرغ»، عددها الصادر يوم السبت كله لما أحدثته تلك العاصفة الثلجية في الجامعة، وقالت إن إلوين أيرس الابن، من الفصل الدراسي ٥٢، الطالب الوحيد الذي لقي مصرعه في تلك الليلة، كان في واقع الأمر المحرّض الرئيسي لغزوة الكيلوتات، وهو الذي قاد سيارته متجاوزاً الضوء الأحمر عند معبر القطار ليهرب من مطاردة الشرطة له. قصّة ملفقة تماماً، سُحبت من السوق في اليوم التالي، لكن ليس قبل أن تنقل عنها صحيفة سينسيناتي إنكوايرر التي تصدر في بلدته، وتطبع ما نقلته على صفحتها الأولى.

وفي تمام الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم أيضاً، بدأت تصفية الحسابات في الجامعة. فقد قُسِّم الطلاب الذين اعترفوا بمشاركتهم في غزوة الكيلوتات إلى مجموعات لإزالة الثلج الذي بلغت كثافته أربعة وثلاثين إنشاً من عن دروب ومسالك الجامعة، ووصل ارتفاعه في بعض الأماكن إلى أكثر من ست أقدام. وعُيِّن لكلّ مجموعة طالب من السنوات المتقدمة ينتمي إلى فريق رياضي في

Twitter: @ketab_n

الجامعة يشرف عليها، وعُيِّن أعضاء من الهيئة التدريسية في الجامعة من قسم التربية البدنية للإشراف على هذه المجموعات. وفي الوقت نفسه، تواصلت التحقيقات طوال اليوم في مكتب كودويل. وعندما هبط الليل، كان قد أدين أحد عشر طالباً من السنة الأولى، وتسعة طلاب من السنة الثانية، واعتُبروا زعماء العصابة؛ وبما أنه لم يُسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم بالانضمام إلى فرق إزالة الثلج (أو بمعاقبتهم بطردهم مؤقتاً خلال الفصل الدراسي، كما كانت أسر المدانين تأمل في أن يحصل ذلك أسوأ ما يحدث لأبنائها الشبان، إذ حاولت أن تجادل بأن ذلك لم يكن سوى عمل طائش قام به طلاب شبان طائشون)، فقد طُردوا من الجامعة بصورة دائمة، كان من بينهم الطالبان اللذان كُسرت أطرافهما عندما قفزا من نوافذ مساكن الطالبات، واللذان مثلا أمام المشرف وأطرافهما مجبّرة بالجص الأبيض، وكما قيل، لم تشفع بهما الدموع الغزيرة التي ذرفاها، وفيض الاعتذارات التي تدفقت من شفاههما. وراحا يتوسلان بأن يتم فهم أسباب قيامهما بعمل ذلك، وطلبهما الرحمة. لقد كانا بالنسبة لكودويل الجرذين الأخيرين اللذين هربا من السفينة، وهكذا خرجا من الجامعة بلا رجعة. كما طُرد جميع الطلاب الذين استجوبهم المشرف وأنكروا مشاركتهم في غزوة الكيلوتات، ثم تبين أنه كان يطرد الطلاب طرداً تعسفياً أيضاً، فارتفع عدد الطلاب المطرودين إلى ثمانية عشر طالباً قبل انتهاء عطلة نهاية الأسبوع. «لا يمكنكم أن تخدعوني»، قال كودويل للطلاب الذين دعاهم إلى مكتبه، «لا، لن تخدعوني». كان محقاً: فلم يخدعه أحد من أولئك، ولا حتى أنا في نهاية الأمر.

بعد العشاء من مساء يوم الأحد، جُمع طلاب واينزبيرغ جميعهم في مبنى قاعة محاضرات ويليامسون ليت، ليستمعا إلى الكلمة التي

Twitter: @ketab_n

سيلقيها عليهم رئيس الجامعة ألبين لينز. عندما تجمعنا في القاعة، عرفت من سوني- بأنه مُنعت جميع سيارات الطلاب من الدخول إلى الحرم الجامعي لأن الثلج كان لا يزال يكسو البلدة كلها - وأعلمني كل ما يتعلق بمهنة لينز السياسية، وتطلّعاته المحلية. كان لينز قد انُتخب مرتين لأنه كان يُعرف بأنه كان حاكماً شديداً في ويست فرجينيا المجاورة، قبل أن يُعيَّن وكيلاً في وزارة الحرب خلال الحرب العالمية الثانية. وعندما فشل بعد أن رشح نفسه للحصول على مقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي في عام ١٩٤٨، عرض عليه كبار رجال الأعمال في مجلس أمناء واينزبيرغ أن يترأس جامعة واينزبيرغ، وهكذا جاء إلى الجامعة عاقداً العزم على أن يجعل من هذه الجامعة الصغيرة الجميلة في شمال وسط أوهايو ما أطلق عليه في خطاب تنصيبه، «أرضاً لتربية الأخلاق الحسنة، وروح الوطنية، ومبادئ التصرّف الشخصي العالية المطلوبة من كلّ شاب في هذا البلد، إذا كان لنا أن ننتصر في المعركة العالمية على التفوق الأخلاقي مع الشيوعية السوفييتية الكافرة». وهناك من يرى أن لينز قبل منصب رئاسة جامعة واينزبيرغ، مع أن مؤهلاته لم تكن تتجاوز مؤهلات معلّم مدرسة، وذلك كخطوة للوصول إلى منصب حاكم أوهايو في عام ١٩٥٢. وإذا ما نجح في ذلك، فإنه سيصبح الشخص الثاني في تاريخ البلاد كلها الذي يكون قد حكم ولايتين اثنتين وهكذا يُعدّ نفسه لكي يترشح لرئاسة الجمهورية في عام ١٩٥٦، لكي يتمكن من كسر قبضة الديمقراطيين واحتكارهم للطبقة العاملة التقليدية. ولم يكن لينز يُعرف في صفوف الطلاب، بالطبع، بأنه سياسي، بل كان يُعرف بلكنته الريفية المتميّزة - فقد كان ابن عامل منجم عصامي من مقاطعة لوغان، في ويست فرجينيا - كانت الكلمات الطنانة التي يلقيها تخترق جسمك كما يخترقك مسمار. وكان يُعرف بكلماته المتكلفة، وتدخينه

Twitter: @ketab_n

المستمر للسيجار، مما جعل الطلاب يطلقون عليه اسم «السيجار الكلي القدرة».

لم يقف وراء المنصّة كأستاذ محاضر، بل وقف أمامه محتداً بساقيه القصيرتين المتباعدتين قليلاً، وبدأ كلامه بطريقة تسلطية تدعو إلى التشاؤم. ولم يكن ثمة شيء لطيف في هذا الرجل: كان على الجميع أن يستمعوا إليه، ولم يكن يطمح لأن يبرز شخصية عالية ومؤثرة كما كان المشرف كودويل، بل كان يطمح إلى بث الرعب في نفوس المستمعين بفظاظته غير المنضبطة. وكان غروره يختلف عن زهو المشرف كثيراً - لم يكن ينقصه الذكاء - وبالتأكيد، كان يتفق مع المشرف بأنه لا يوجد ثمة شيء في الحياة أكثر جديّة من التمسك بالقواعد، لكنه أعرب عن مشاعره الجوهرية بالإدانة بصراحة تامة، وبدون مواربة (بالرغم من أنه كان ينمق كلامه بزخارف بلاغية بين الحين والآخر). ولم يسبق أن رأيت في حياتي مثل هذه الصدمة والجدية - والتركيز الثابت - المنبثق من مجموع طلاب واينزبيرغ. ولم يكن أحد يتخيّل أن يجرؤ أحد من الحاضرين ويقول حتى لنفسه، «هذا شيء غير لائق! هذا ليس عدلاً!». كان بإمكان الرئيس أن يأتي إلى قاعة الاجتماعات، ويفسد تجمّع الطلاب بعصا دون أن يحرّض على الهرب، أو أن يثير المقاومة. كنا كما لو كنا قد هزمنا - ولجميع الجرائم المرتكبة، تقبّلنا الهزيمة راضين - حتى قبل أن يبدأ الهجوم.

ربما كان الطالب الوحيد الذي تجاهل حضور اجتماع الذكور الذي وصف بأنه إجباري، هو تلك الروح الشرّيرة الحرة، بيرت فلوسير، المليء بمشاعر الحقد.

بدأ الرئيس لينز يقول: «هل يعلم أي واحد منكم هنا ماذا حدث في كوريا في اليوم الذي قررتم فيه جميعكم، أنتم أيها الرجال أن تجلبوا الخزي وتلطخوا سمعة مؤسسة تعليمية مرموقة في مجال

Twitter: @ketab_n

التعليم العالي، تعود أصولها إلى الكنيسة المعمدانية؟ في ذلك اليوم، توصلت الأمم المتّحدة والمفاوضون الشيوعيون في كوريا إلى اتفاقية مؤقتة لوضع خطّ هدنة في الجبهة الشرقية في ذلك البلد الذي مزّقته الحرب. سأعتبر أنكم تعرفون ماذا تعني «مؤقتة». إنها تعني أنّ القتال الوحشي والبربري مثل القتال الذي شهدناه يجري في كوريا - القتال البربري الذي لم تعرف القوات الأمريكية مثيلاً له في أيّ حرب في أي زمن من تاريخنا - فقد تندلع المعارك في أيّ ساعة من النهار أو من الليل، وتودي بحياة آلاف أخرى من الشبان الأمريكيين. هل يعرف أيّ منكم هنا ماذا حدث في كوريا منذ أسابيع قليلة، وبالتحديد بين يوم السبت ١٣ تشرين الأول (أكتوبر)، ويوم الجمعة ١٩ تشرين الأول؟ أعرف أنكم تعرفون ما حدث هنا آنذاك. ففي يوم السبت المصادف الثالث عشر من تشرين الأول، هزم فريقنا في كرة القدم منافسنا التقليدي، بولينغ غرين، بـ ٤١ هدفاً إلى ١٤ هدفاً. وفي يوم السبت التالي، في العشرين من الشهر، جعلتنا المباراة المثيرة مع جامعة ويست فرجينيا، نحن الذين كنا نتوقع أن نخسر، نتربع على القمة بـ ٢١ هدفاً مقابل ٢٠ هدفاً. يا لها من مباراة بالنسبة لوايتزبيرغ! لكن هل تعرفون ماذا حدث في كوريا أيضاً في ذلك الأسبوع؟ لقد أحرزت فرقة سلاح الفرسان الأولى الأمريكية، وفرقة المشاة الثالثة، وكتيبتي في الحرب الأولى، وفرقة المشاة الخامسة والعشرون، مع قوات حلفائنا البريطانيين وحلفائنا في جمهورية كوريا، شيئاً من التقدم في منطقة أولد بالدي. تقدّم ضئيل كلف أربعة آلاف إصابة. أربعة آلاف شابّ مثلكم وقعوا بين قتيل وجريح أصبح معظمهم من المعوقين، وبين الفترة التي هزمنا فيها فريق بولينغ غرين، وفي الوقت الذي هزمنا فيه ويست فيرجينيا، هل تعرفون كم كنتم محظوظين لأنكم موجودون هنا تشاهدون مباريات ألعاب كرة القدم في أيام

Twitter: @ketab_n

السبت، ولستم هناك تتلقون الرصاص في أيام السبت والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأيام الجمعة، وأيام الأحد أيضاً؟ عندما يقاس ذلك بالتضحيات التي يقدّمها الشبان الأمريكيون الذين هم في عمركم، في هذه الحرب الوحشية ضد عدوان القوات الشيوعية الكورية الشمالية والصينية - عندما يقاس بذلك، هل تعرفون مدى غباء تصرفكم الصبياني أمام سكان بلدة واينزبيرغ، وأمام سكان أوهايو، وأمام الشعب الأمريكي الذين سيطلعون بواسطة الصحف والتلفزيون على الأحداث المخزية التي وقعت ليلة الجمعة؟ أخبروني، هل كنتم تعتقدون حقاً أنكم كنتم محاربين أشاوس عندما اقتحمتم مساكن زميلاتنا الطالبات، وبثثتم الرعب في نفوسهن حتى الموت؟ هل تعتقدون أنكم كنتم محاربين أبطال عندما اقتحمتم غرفهن ورحتم تعبثون بأغراضهن الشخصية والحميمة؟ هل تعتقدون أنكم كنتم محاربين ميامين عندما أخذتم وحطمتم ممتلكات ليست لكم؟ ومن بينكم، هناك من أخذ يهلل ويهتف، ولم يرفع إصبعاً ليوقف زملائه عن مواصلة هذه المهزلة، بل كانوا مبتهجين وأشادوا بشجاعتكم الرجولية، لكن ماذا عن شجاعتكم الرجولية؟ كيف ستخدمكم شجاعتكم تلك عندما يهاجمكم ألف جندي صيني وهم يصرخون بأعلى أصواتهم، بينما تقبعون أنتم في خنادقكم، إذا ما انهارت تلك المفاوضات في كوريا؟ كما سيحدث، يمكنني أن أؤكد لكم، بأبواقهم المدوية رافعين حرابهم! ماذا أفعل بكم أيها الصبية؟ أين هم الراشدون من بينكم؟ ألم يفكّر أحد منكم بأن *يدافع* عن الفتيات اللاتي يقمن في مباني دولاند وكونس وفليمنغ؟ كنت أتوقّع أن يقوم مائة منكم، مائتان، ثلاثمائة، بقمع هذا التمرد الذي لا يبدر إلا عن أطفال! لماذا لم تفعلوا ذلك؟ أجيبوني! أين هي شجاعتكم؟ أين هو شرفكم؟ *لم يظهر ولا واحد منكم ولا ذرة واحدة من الشرف! ولا واحد منكم!*

Twitter: @ketab_n

سأخبركم شيئاً الآن لم يخطر لي أن أقوله لكم في أثناء حياتي: إني أشعر بالخجل اليوم لأنني كنت طالباً في هذه الجامعة. يعتريني الخجل والقرف والغضب. لا يوجد أدنى شكّ في أنني شديد الغضب، ولن أتوقّف عن هذا الغضب لفترة طويلة، يمكنني أن أؤكد لكم ذلك. وقد بلغني أن ثمانياً وأربعين طالبة من زميلاتنا - أي حوالى عشرة في المائة من الطالبات - تركن الجامعة برفقة آبائهن المصدومين والمهزوزين، ولا أعرف إن كن سيعدن إليها. إن ما أدركه من الاتصالات التي أتلقاها من عائلات قلقة أخرى - والهواتف التي تصلني إلى مكتبي وبيتي والتي لم تتوقف عن الرنين منذ منتصف ليلة الجمعة - هو أن عدداً لا بأس به من طالباتنا الأخريات يفكّرن بترك الجامعة هذه السنة أو بالانتقال الدائم إلى خارج واينزبيرغ. لا يمكنني أن أقول إنني ألومهن. لا أستطيع أن أقول إنني أتوقّع أن تبقى أيّ ابنة من بناتي مخلصة للمؤسسة التربوية التي لم تتعرض للتحقير والإهانة والخوف فحسب، بل تعرضت كذلك إلى تهديد حقيقي بأن يصبن بالأذى الجسدي على يد جيش من الرعاع كانوا يتخيّلون، على ما يبدو، بأنّهم يحررون أنفسهم. لأنكم هكذا، في تقديري، يا من شاركتم ويا من لم تبذلوا جهداً لإيقاف زملائكم. إنكم لستم إلا عصابة غير مسؤولة من الأطفال الجاحدين، حفنة من الأشرار الجبناء الحقيرين. مجموعة من الأطفال العصاة الرعاع. أطفال منفلتون في حفاضاتهم. أوه، وثمة شيء أخير. هل يعرف أيّ منكم عدد القنابل الذرّية التي فجّرها السوفييت حتى الآن في عام ١٩٥١؟ الجواب قنبلتان. هذا يجعل المجموع ثلاث قنابل ذرّية اختبرها أعداؤنا الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي حتى الآن بنجاح منذ اكتشافهم سرّ إنتاج التفجير الذرّي. إننا كأمة نواجه إمكانية حرب ذرّية لا يمكن تخيلّها مع الاتحاد السوفييتي، وخلال كل ذلك، يغير الفتيان في

Twitter: @ketab_n

جامعة واينزبيرغ على جوارير خزانات الفتيات البريئات اللاتي هن زميلات لكم في الدراسة، وهناك، وراء مساكن الطلاب التي تقيمون فيها، عالم يحترق بينما تحترقون أنتم بالملابس الداخلية. ما وراء رابطات الأخوّة، يشرّع التاريخ أبوابه كل يوم - الحرب، التفجيرات، المذابح الجماعية، وأنتم غافلون عن كلّ هذا. حسناً، لا أظن أنكم ستكونون غافلين طويلاً! يمكنكم أن تكونوا أغبياء كما تشاؤون، بل ويمكنكم أن تظهروا، كما فعلتم هنا في ليلة الجمعة، رغبتكم الشديدة في أن تكونوا أغبياء، لكن التاريخ سيمسككم بقبضته في النهاية. لأن التاريخ ليس الخلفية - التاريخ هو خشبة المسرح! وأنتم على خشبة المسرح! كم هو مقزز جهلكم المروّع بالوقت الذي تعيشون فيه! وأكثر ما يثير التقزز هو أنكم تحاولون أن تبددوا ذلك الجهل في واينزبيرغ. ما هو الزمن الذي تظنون أنكم تعيشون فيه؟ هل يمكنكم أن تجيبوا؟ هل تعرفون؟ هل لديكم أيّ فكرة بأنكم لا تنتمون إلى أي زمن على الإطلاق؟ لقد أمضيت فترة طويلة في مهنة حرب السياسة، جمهوري في منتصف الطريق يحارب المتطرفين اليساريين والمتطرفين اليمينيين. لكن بالنسبة لي اللّيلة، أصبح هؤلاء المتطرفون لا شيء مقارنة بكم في سعيكم البربري للمرح الطائش. 'هيا لنجنّ، هيا لنمض وقتاً ممتعاً! ماذا عن أكل لحوم البشر في المرة القادمة!' حسناً، ليس هنا، أيها السادة المحترمون، لن تمرّ داخل هذه الجدران التي يكسوها اللبلاب متعة ارتكاب الخطأ المتعمّد بدون عقاب على يد المسؤولين عن هذه المؤسسة للحفاظ على المثاليات والقيم التي ضربتم بها عرض الحائط. لا يمكن السماح بمواصلة ذلك، ولن يُسمح باستمراره! يمكن تنظيم السلوك الإنساني، وسوف يُنظّم! لقد انتهى العصيان. لقد قُمع العصيان. واعتباراً من هذه الليلة، سيوضع كلّ شيء وكلّ شخص في موقعه الصحيح، وسيعاد النظام إلى

Twitter: @ketab_n

واينزبيرغ. ستعاد آداب السلوك واللياقة. ستعاد الكرامة. والآن بوسعكم، أيها الذكور المستهترون، أن تنهضوا وتغربوا عن وجهي. وإذا قرر أحدكم أن يترك بدون رجعة، إذا قرر أحدكم أن قانون السلوك الإنساني وقواعد الانضباط المتحضّر الذي تزمع هذه الإدارة أن تفرضه بقوة وحزم للمحافظة على واينزبيرغ، واينزبيرغ التي لا تناسب ذكراً واحداً من أمثالكم - لا يوجد لديّ مانع في ذلك! هيا غادروا! اذهبوا! لقد أصدرت الأوامر! احزموا وقاحتكم المتمردة وغادروا واينزبيرغ الليلة!»

لفظ الرئيس لينز عبارة «المرح الطائش» باحتقار شديد كما لو كانت مرادفة لعبارة «القتل المتعمد». وكان مقته شديد الوضوح «وقاحتكم المتمردة» وكأنه يلفظ اسم خطر لا يزمع تقويض واينزبيرغ فقط، بل أوهايو أيضاً، بل الجمهورية العظيمة برمتها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

التحرر من الهموم

الذاكرة تتوقّف هنا. حقنة إثر حقنة من المورفين تتدفق في ذراعه أدخلت المجند ميسنير في حالة عميقة وطويلة من السبات، لكنها لم تكبح نشاطه العقلي. وبعد منتصف الليل بقليل، غاب كلّ شيء وأصبح في عالم النسيان، باستثناء عقله. وقبل لحظة التوقف، حتى اللحظة التي لم يعد فيها قادراً على التذكّر، كانت سلسلة جرعات المورفين التي زُرقت له، قد تغلغلت في دمه ووصلت إلى دماغه مثل وقود الذاكرة الذي يساعد على تخفيف ألم جروحه المثخنة التي نجمت عن طعنات الحراب التي بترت إحدى ساقيه من جذعه، وقطّعت أمعاءه وأعضاءه التناسلية إلى أشلاء. فقد تعرضت الخنادق الواقعة في أعلى التلّ التي كانوا يقبعون فيها طوال أسبوع كامل وراء بعض الأسلاك الشائكة عند حافة مليئة بالأشواك في وسط كوريا إلى هجوم عنيف من جحافل الصينيين في عتمة الليل، وتناثرت أشلاء الأجساد في كل مكان. وعندما لم يعد لديهما ذخيرة، انتهى هو وشريكه برونسون، اللذان كانا مسلحين ببندقيتيهما الآليتين من طراز براونينغ. لم يكن قد أحيط بهذا القدر من الدم منذ أن كان صبياً صغيراً يزور المسلخ، يشاهد الحيوانات وهي تذبح بطرق طقوسية وفق الشريعة اليهودية. والسكين الفولاذي الذي قطّعه إلى شرائح حادّة يشبه جميع السكاكين التي كانوا يستعملونها في المحل لتقطيع وتجهيز

Twitter: @ketab_n

اللحم لزبائنهم. ولم يتمكن المجندون الذين يقومون بنقل جثث القتلى من وقف النزيف من جروح الجندي ميسنير - فقد توقف دماغه، وتوقفت كلوتاه ورئتاه وقلبه عن العمل بعد فجر اليوم الثالث من آذار ١٩٥٢ بقليل. لقد مات فعلاً، ولم يعد المورفين يؤثر فيه - تذكّر التحريض، ضحيّة صراعه النهائي، أشد الصراعات شراسة ورعباً من بين جميع الصراعات. سحبوا الغطاء وغطوا وجهه، ونزعوا من حزامه القنابل اليدوية التي لم يتح له أن يرميها، ثم هرعوا إلى زميله برونسون، الذي لفظ أنفاسه الأخيرة بعده بقليل.

في الكفاح للاستيلاء على التلّ الوعر والشديد الانحدار عند تلك الحافة المكسوة بالأشواك في وسط كوريا، تكبّد كلا الجانبين خسائر هائلة مما جعل المعركة كارثة حقيقية، تماماً مثل الحرب نفسها. أما القلة القليلة الذين أصيبوا بجراح والذين لم يُطعنوا بالحراب حتى الموت، أو الذين تفجرت أجسادهم وتناثرت إلى أشلاء، فقد غادروا مترنحين عند بزوغ الضوء «جبل المذبحة» كما أصبح يعرف ذلك التلّ المحدد في تاريخنا في حرب منتصف القرن - المغطى بالجثث والخاوي من الحياة الإنسانية منذ آلاف عدة من السنين قبل أن تظهر قضية عادلة هناك لكي يحطم كلا الجانبين الجانب الآخر. وفي سرية المجند ميسنير وحدها، لم ينج إلا اثنا عشر جندياً من أصل مائتين، ولم ينج واحد منهم دون أن يبكي وأن يفقد رشده ويجنّ، بمن فيهم الكابتن البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، الذي تهشم وجهه بضربة من أخمص بندقية كما لو كان قد تلقى ضربة بمضرب بيسبول. وكان أكثر من ألف جندي قد شنّوا هذا الهجوم الشيوعي، وتراوح عدد الصينيين الذي لقوا مصرعهم بين ثمانمائة وتسعمائة جندي. كانوا يأتون ويموتون، يتقدمون والأبواق تهدر «انهضوا، يا من تأبون أن تكونوا عبيداً». وينسحبون إلى حقل من الأجساد والأشجار المحطمة،

Twitter: @ketab_n

يرمون بالرصاص جميع جرحاهم وكلّ من شاهدوه من جرحانا. كانت الرشاشات روسية الصنع.

أما في أمريكا، وفي عصر اليوم التالي، فقد اقترب جنديان من باب منزل ميسنير في نيوآرك ليخبرا أبويه بأن ابنهما الوحيد قتل في المعركة. وبعد سماعه الخبر، لم يتماثل السيد ميسنير للشفاء أبداً. وفي وسط نحيبه قال لزوجته: «قلت له أن ينتبه على نفسه، لكنه لم يسمع مني. لقد رجوتني ألا أقفل الباب لكي ألقّنه درساً. لكنك لم تستطع أن تلقّنه درساً. لم يتعلم من إقفال الباب شيئاً. والآن لقد ذهب. ابننا ذهب. كنت محقاً يا ماركوس، كنت أرى ذلك آتياً وها أنت قد ذهبت الآن إلى الأبد! لا أستطيع أن أحتمل ذلك. لن أعيش بعد الآن». وعندما فتح الدكان ثانية بعد انتهاء فترة الحداد، لم يعد يمازح أحداً من زبائنه. وكان يعمل صامتاً لا يفوه بكلمة، ولم يكن يُسمع صوته إلا عندما كان يسعل، أو عندما كان يدمدم لأحد زبائنه، «لقد مات ابننا». ولم يعد يحلق ذقنه بانتظام، ولم يعد يمشّط شعره، وسرعان ما بدأ الزبائن، بخجل، يتركونه بحثاً عن جزّار كوشر آخر في الحيّ، وبدأ الكثيرون منهم يشترون لحومهم ودواجنهم من السوبر ماركت. وفي أحد الأيام، لم يكن السيد ميسنير منتبهاً لما كان يفعله فانزلقت سكينه فوق عظمة، وانغرز طرف السكين في بطنه فتدفق الدم واحتاج إلى خياطة الجرح. استمر كلّ ذلك ثمانية عشر شهراً، تعذب خلالها الرجل التعس إلى أن مات بشكل مفجع؛ فقد مات نتيجة الانتفاخ الذي ازداد في بطنه وأصبح كافياً لقتله.

أما الأمّ فكانت قوية، وعاشت حتى كادت تبلغ المائة من عمرها، مع أن حياتها كانت قد دُمّرت أيضاً. ولم يمر يوم واحد من دون أن تنظر إلى صورة تخرّج ابنها الوسيم في المدرسة الثانوية المؤطرة المركونة على رف جانبي في غرفة الطعام، وكانت تسأل

Twitter: @ketab_n

زوجها الراحل بصوت عال وهي تبكي، «لماذا جعلته يهرب خارج البيت؟ لحظة غضب، انظر ماذا فعلت! ماذا لو تركته يأتي إلى البيت في ساعة متأخرة؟ على الأقل كان سيمكث في البيت بعد أن يعود! والآن أين هو؟ أين أنت يا عزيزي؟ ماركوس، أرجوك، الباب غير موصد، عد إلى البيت!». ثمّ تتوجه نحو الباب ذي القفل المشؤوم، وتفتحه على مصراعيه، وتقف هناك منتظرة عودته.

نعم، لو كان هذا، ولو كان ذاك، لبقينا معاً جميعنا أحياء إلى الأبد، ولسار كلّ شيء على خير ما يرام. لو كان أبوه فعل ذلك، لو كان فلوسير فعل ذاك، لو كان إلوين عمل كذا، لو تصرف كودويل بهذه الطريقة او تلك، لو كانت أوليفيا -! لو كان كوتلر - لو أنه لم يصادق كوتلر المتعالي! لو أن كوتلر لم يصادقه! لو أنه لم يدع كوتلر يستأجر زيغلير لينوب عنه في الذهاب إلى الكنيسة! لو أن زيغلير لم يكشف أمره! لو أنه كان قد ذهب إلى الكنيسة بنفسه! لو كان قد ذهب إليها أربعين مرّة ووقّع اسمه أربعين مرّة، لكان اليوم حياً يرزق، ولتقاعد من عمله محامياً. لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك! لم يستطع أن يؤمن وهو طفل بإله غبي! لم يستطع أن يستمع إلى التراتيل التي تقبّل المؤخرات! لم يستطع أن يجلس في كنيستهم المقدّسة! والصلوات، تلك الصلوات بعيون مغمضة - الخرافات البدائية الفاسدة! حماقتنا، أي فنّ في السماء! خزي الدين، عدم النضج والجهل والعار كلّه! تقوى جنونية حول لا شيء! وعندما أعلمه كودويل أنه يجب أن يفعل ذلك، عندما طلب منه كودويل أن يأتي إلى مكتبه ثانية، وقال له إنهم سيطردونه من الجامعة إذا لم يقدّم اعتذاراً خطياً إلى الرئيس لينز، لأنه دفع لمارتي زيغلير نقوداً لينوب عنه في حضور الصلاة في الكنيسة، ولو حضر الكنيسة بنفسه، لا أربعين مرّة، بل على أنه شكل من أشكال التعلم، وللتكفير عن نفسه، ثمانين مرّة،

Twitter: @ketab_n

وبدأ يذهب إلى الكنيسة كلّ يوم أربعاء حتى آخر أيامه في الكلية، ما الخيار الذي كان أمام ماركوس، ماذا كان بوسعه أن يفعل غير ذلك؟ ميسنير، الذي كان طالب برتراند راسل، الذي خبط بقبضته على طاولة مكتب المشرف وقال له للمرة الثانية: "Fuck you".

نعم، العبارة الأمريكية القديمة الجريئة والمتحدّية Fuck you، وكان هذا ما حدث لابن الجزّار، الذي مات قبل أن يحل عيد ميلاده العشرين بثلاثة أشهر - ماركوس ميسنير، ١٩٣٢-١٩٥٢، الوحيد بين زملائه الذي كان من سوء حظه أن يُقتل في الحرب الكورية التي انتهت بتوقيع اتفاقية هدنة في ٢٧ تموز ١٩٥٣، أحد عشر شهراً كاملاً بعد وفاة ماركوس، لو كان قد رضي بالذهاب إلى الكنيسة وصمت، لحصل على شهادته الجامعية من جامعة واينزبيرغ - وكان من المحتمل أن يتخرج بتفوق - وبذلك يكون قد أجّل التعلّم الذي كان أبوه الجاهل يحاول جاهداً أن يمضي في تلقينه إياه: الطريقة الفظيعة غير المفهومة التي يمكن بها لخيارات المرء الأكثر تفاهة، والعرضية، بل حتى الهزلية، أن تحقق أكثر النتائج غير المتكافئة والمرجوة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ملاحظة تاريخية

في ١٩٧١، وصلت الاضطرابات والتحولات والاحتجاجات الاجتماعية التي شهدتها ستينيات القرن العشرين إلى جامعة واينزبيرغ، ذات الأفق المحدود، التي لم تكن تنتمي إلى أي تيار سياسي، وفي الذكرى العشرين للعاصفة الثلجية، وغزوة الكيلوتات البيض التي حدثت في تشرين الثاني (نوفمبر)، حدثت انتفاضة غير متوقّعة، احتلّ فيها الفتيان مكتب مشرف الطلاب الذكور، واحتلت الفتيات مكتب المشرفة على الطالبات الإناث، وطالبوا جميعهم «بحقوق الطلاب». ونجحت الانتفاضة في أن أغلقت الجامعة أبوابها مدة أسبوع كامل. وعندما استؤنفت الدراسة، لم يُعاقب أي من زعماء الطلاب من كلا الجنسين الذين فاوضوا على إنهاء الانتفاضة، واقترحوا على المسؤولين في الجامعة أن يجدوا بدائل جديدة غير الطرد أو التوقيف عن الدراسة. وبين ليلة وضحاها - وللرعب الذي كان يتملك المسؤولين الذين كانوا قد تقاعدوا من إدارة واينزبيرغ في ذلك الحين - ألغي مقرر حضور الكنيسة، وألغيت جميع القيود والقواعد التي تنظّم سلوك الطلاب والتي كانت سارية منذ أكثر من مائة سنة، والتي كانت تنفذ بدقة صارمة خلال فترة رئاسة لينز والمشرف كودويل المحافظين على التقاليد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عن المؤلف

في ١٩٩٧، حصل فيليب روث على جائزة بوليتزر عن روايته «الراعي الأمريكي». وفي عام ١٩٩٨، حصل على الوسام الوطني للفنون في البيت الأبيض، وفي عام ٢٠٠٢، حصل على أعلى جائزة تقدمها الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، وهي الميدالية الذهبية للرواية، التي كانت قد منحت سابقاً إلى دوس جون باسوس، ووليام فوكنر، وساول بيلو، من بين آخرين. وفاز بجائزة الكتاب الوطنية مرّتين، وبجائزة الدائرة الوطنية لنقّاد الكتاب. وفاز بجائزة PEN / فوكنر ثلاث مرات. وفاز بأعلى جائزتي PEN الأمريكية، وهما جائزة PEN / نابوكوف وجائزة PEN / بيلو.

وفي عام ٢٠٠٥، حصلت روايته «المؤامرة ضد أمريكا» على جائزة جمعية المؤرخين الأمريكيين عن «الرواية التاريخية المرموقة حول موضوع أمريكي للفترة ٢٠٠٣-٢٠٠٤». وفي المملكة المتحدة، فاز بجائزة و. هـ. سميث عن أفضل كتاب في السنة، مما جعل روث أول كاتب في تاريخ الجائزة منذ أربعين سنة يفوز بها مرتين.

إنه الكاتب الأمريكي الحيّ الوحيد الذي نشرت Library of America أعماله في طبعة شاملة. ومن المقرر طباعة آخر ثمانية مجلدات منها في عام ٢٠١٣.

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

البطل الراوي، ماركوس ميسنير، هو ابن وحيد لعائلة يهودية تعيش في نيوآرك ـ نيوجرسي. وهو شاب لامع وخلوق، يحظى برضا والديه، وتلميذ مجتهد وطموح، ورياضي نشط، يعمل بجدّ خلال إجازاته المدرسية إلى جانب والده اللّحام.

مع مجيء الحرب والتجنيد الإلزامي، تجتاح الأب حالة بارانويا وذعر دفعته إلى تضييق الخناق على ابنه، مما يحدو بالأخير إلى الرحيل بعيداً، حيث ينتقل للدراسة في كلّية بلدة واينزبرغ في الأعماق الريفية لولاية أوهايو. هناك يقع ماركوس في غرام زميلته أوليفيا، الفتاة صاحبة المواصفات كلّها التي منها تحديداً كان والده يخشى عليه. وها هو يختلي بالفاتنة الصهباء الشعر، ذات الندبة المشؤومة في معصمها بعد محاولة انتحار فاشلة، أوليفيا التي كانت أخبرته بطلاق والديها ولم تطلعه على دخولها المصحّات عدّة مرّات نتيجة إدمانها الكحول وتعرّضها لانهيارات عصبية، تصعق ماركوس بانفتاحها وخبرتها الجسدية وجرأتها.

@ketab_n

رسمة الغلاف: مريم الأعرج